قصة عثور القديسة هيلانة
على خشبة الصليب
أسطورة أم واقع

بقلم الدكتور اسحق عبيد
مدرس العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة عين شمس

تقديم للنص :

هذا جزء من المخطوطة ١٦٤٩ (بدار الكتب المصرية) ، وهو من كتاب لا نعلم اسم صاحبه ولا حتى عنوانه ؛ لأن المخطوطة مبتورة الأول والآخر . والجزء المتبقى يبدأ برحلة القديسة هيلانة — والدة الامبراطور قنسطنطين العظيم (٣٢٤ - ٣٣٧) — إلى الأرض المقدسة بحثاً عن صليب الصلبوت ، وينتهى باعتلاء الإمبراطور يوستنيانوس (٥٢٧ - ٥٦٥) العرش . فهو فى الواقع سجل لتاريخ ملوك القسطنطينية .

ومؤلف هذا الكتاب — على ما يبدو — ليس عربياً ، لأن لغته دارجة للغاية ولأنه يستخدم ألفاظاً يونانية كثيرة من قبيل « فوطاغون » ، « ثاولوغوس » ، « ابروطوريون » . . . الخ . كما أن أسماء القديسين الواردة بالنص مكتوبة فى صيغتها اليونانية ؛ ولذا فإنا نميل إلى الاعتقاد بأن الكاتب يونانى ومن جماعة الإكليروس . وهو بالتأكيد أرثوذكسى من أتباع مجمع خلقدونية (٤٥١ م) ؛ لأنه يتحدث عن الأرمن واليعاقبة و « الحبش » والنساطرة على أنهم هراطقة .

والجزء الذى نعالجه هنا خاص برحلة القديسة هيلانة إلى بيت المقدس بحثاً عن خشبة الصليب التى صلب عليها المسيح . وهذا يجرنا إلى الحديث عن القديسة هيلانة فى شىء من الموضوعية التاريخية ؛ لأن قصة اكتشافها للصليب قد أثارت جدلا كبيراً بين الدارسين ، ولم ينتهوا فيه إلى رأى قاطع .

والإمبراطورة هيلين ، أو هيلانة ، ولدت حوالى سنة ٢٢٥ م وتوفيت حوالى سنة ٣٣٠ ، ويحتفل بيوم عيدها فى الثامن عشر من أغسطس كل عام . وقد ظل

المؤرخون فترة طويلة يعتقدون أنها بريطانية الأصل ، ولكن ليس هناك من الدلائل مايؤيد هذا الرأى. والنظرية السائدة الآن أنها ولدت فى مدينة دريبانوم (هيلينوپولس) فى آسيا الصغرى ، من أسرة رقيقة الحال. وقد تعرف عليها الامبراطور قنسطانطيوس فتزوجها ، ثم أنجبت له قنسطنطين سنة ٢٧٤ ، على أنه فى سنة ٢٩٢ طلق قنسطانطيوس هيلانة لأسباب سياسية .

ولا نعلم بالضبط متى اعتنقت هيلانة الديانة المسيحية ، ولكنا نعرف أنه بعد أن أعلن ولدها قنسطنطين وزميله ليكين قرار التسامح مع المسيحية — فيما عرف خطأ باسم « مرسوم ميلان » — فى سنة ٣١٢ — راحت الإمبراطورة الأم هيلانة تولى كل اهتمامها لترقية شأن المسيحية فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية . ولما كنا نعلم أن قنسطنطين العظيم كان يكن لأمه كل التبجيل والتقدير ، فإنه يمكن القول إن نشاطها « المسيحى » كان يتم برضاء من جانب الإمبراطور الابن .

وفى أخريات سنى عمرها قامت القديسة هيلانة بزيارة طويلة لبيت المقدس ، حيث وزعت العطايا والهبات بسخاء زائد على الفقراء . كذلك ساهمت بذهبها ورأيها فى إنشاء الكثير من الكنائس هناك .

ويرتبط اسم هيلانة بوجه خاص باكتشاف صليب الصلبوت الذى وجدته — حسب قول الروايات — مطموراً بجوار تل من تلال الجلجثة . ولكن المؤرخين المعاصرين لا يذكرون شيئاً ألبتة عن دور هيلانة فى مسألة العثور على الصليب المقدس ، وإن كان من المؤكد أنه قد عثر عليه فى القرن الرابع . ويرجح أن الإمبراطورة القديسة كانت قد توفيت قبل اكتشاف خشبة الصليب . ورغم هذا فإنه ابتداء من نهاية القرن الرابع ارتبط اسم هيلانة بصليب الصلبوت .

أما التساؤل عما إذا كانت هذه الخشبة التى عثر عليها ، هى فى الحقيقة الصليب الحقيقى أم لا ؛ فهذا موضوع آخر لا أزعم لنفسى القدرة على الخوض فيه ، فهو من الأمور المستحيلة فى الدراسة التاريخية اليوم .

هذا وقد زودنا الحواشى بمادة تاريخية لقائمة القديسين الذين ورد ذكرهم فى هذا النص حتى تكون الفائدة كاملة .

النص :

« وللحين أتوا بخوف ووقفوا أمامها[1] ، فابتدت وقالت لهم : أرونى المكان الذى فيه مخبو[2] صليب المسيح ، فنكروا وقالوا لا نعلم أصلا ولا سمعنا منذ قط عن هذا . فقالت لهم أيضاً قولوا لى الحق كيلا أميتكم ، فنكروا أيضاً . حينئذ قالت للأجناد : أشعلوا النيران وأحرقوهم . فلما سمعوا ذلك ارتعدوا ، وللحين أجابوا وقالوا للملكة : ياسيدتنا : إن أردتى أن تجدى الصليب وغيره مماتوتريه[3] فخذى يهودا هذا واستفحصيه ، وهو يعرف جميع ماهو رأيك ومقاصدك ، لأنه نبي وابن رجل صديق ، يعرف الناموس فى الغاية أفضل من الكل . حينئذأمرت بتخليتهم[4] ومسكت يهودا فقط . وقالت له : الحياة والموت موجودان ، فاختار لك من الاثنين ماتريد . فأجاب وقال لها : ماذا تريدى ياسيدتى أن أصنع ، فقالت له الملكة : إن أردت أن تعيش هاهنا وفى العالم السماوى ، قل لى أين هو مختفى صليب المسيح . فأجاب يهودا : ليس لنا علم إذ كنا بعد شباب ، وما وصلنا كذلك الآوان ، ولسنا نعرف ولا سمعنا من أجله شيء ، فاعملى الذى بترسميه[5] . فأمرت أن يضعوه فى بير ناشف عميق ، فمكث هناك باستيشاق حزين سبعة أيام بغير خبز ولاماء ، حتى صار كمايت[6] . فزعق صوتاً عظيم ، وقال : أخرجونى من هاهنا ، وأنا أريكم مكان صليب المسيح . وهكذا أخرجوه وأتوا به أمام منبر الملكة . فمضوا معاً إلى المكان الذى صلب فيه الرب . ولم يعرف جيداً أين الصليب مختفى . حينئذ وقع أمام الملكة مصلياً قايلا : أيها الرب السيد إلاهنا ، يامن خلقت الإنسان على صورتك ومثالك ، يامن تسود على السموات والأرض والملايكة والبشر ، يامن أرسلت ابنك الوحيد ربنا يسوع المسيح الذى لأجل خلاصنا اقتبل الصلب ، وقام لثلاثة أيام[7] ، منك نطلب ونحوك نتضرع ، نحن عبيدك لكيما تظهر لنا الكنز المخفى الذى هو الصليب الكريم الصانع الحياة ، حتى إذا استوعبنا منه رايحة ذكية ، نمتلى نعمة روحانية ، وأنا الخاطى أومن به وأحوذ غفران ومسامحه . ولما تم صلاته ، للحين ياله من عجب تزلزل المكان ،

---

(١) أمام الإمبراطورة هيلانة . (٢) مخبأ . (٣) تبغيه .

(٤) إطلاق سراحهم . (٥) فاعملى ما تبغين . (٦) حتى أشرف على الموت .

(٧) وقام بعد الدفن بثلاثة أيام .

وخرج دخان ورائحته بخور طيب عطره من المكان الذى كان فيه الصليب مختفياً . فتعجبت الملكة وساير الناس ، وحينئذ شكر يهودا الله وقال : بالحقيقة يامسيحى أنت هو ابن الله الحى ، أنت هو مخلص العالم ، وأطلب منك أن تحصينى مع أول شهداءك استفانوس[1] لأنى أنا من جنسه وقبيلته . ثم أخذ الفاسات[2] مع الأراخنه الكثيرين ، وحفروا عشرين قامة ، فوجدوا الثلاث صلبان : صليب المسيح وصليب اللصان اللذان صلبا معه[3] . فلما نظرت الملكة ذلك فرحت كثيراً . وحينئذ قالت ليهودا : من أين تعرف أيهما هو صليب المسيح ، وبعد هنيهة اجتازوا بميت لكى يدفنوه ، وأن يهودا للحين أتى به إلى أمام الملكة ووضع على المايت الصليب الأول فلم تصير آية[4] ، ووضع الثانى فكان كذلك ، لأنهما كاناصليبان اللصان . فلما وضعوا الصليب الثالث الذى هو صليب المسيح ، فللحين قام الميت واعتلن مجد الله وقوة الصليب .

فلما رأت زمرة اليهود هذا العجب آمنوا بربنا يسوع المسيح . وأما المغبوطة

---

(١) استفانوس : هو أول الشهداء ؛ استشهد فى أورشليم حوالى سنة ٣٥ م ، ويحتفل بعيده فى السادس والعشرين من ديسمبر . وكل ما يعرف عن أول الشهداء مسجل فى الإصحاحين السادس والسابع من « أعمال الرسل » . وقد كان استفانوس « رجلا يفيض إيماناً وقوة » ، وهو بلا شك يهودى ولكنه كان يتكلم اليونانية ، لأنه كان على رأس الشمامسة السبع الذين اختارهم الرسل لرعاية شئون الأرامل الناطقات اليونانية فى أورشليم . وكان استفانوس مبشراً ممتازاً « أتى بكثير من الأعاجيب والمعجزات » ، ولذا فإن المجمع اليهودى أدانه وألصق به تهمة «التجديف» . وأمام هذا المجمع تحدث القديس فلعن حاخامات اليهود لمقاومتهم « الروح القدس » ، مذكراً إياهم أن أجدادهم أيضاً قد اضطهدوا الأنبياء ونكلوا بهم ، تماماً مثلما فعل رؤساء كهنة اليهود حينئذ مع المسيح بأن قتلوه . وبعد هذا صاح استفانوس وهو فى شبه حلم : « انظروا هو ذا ابن الإنسان يدخل أبواب النعيم ليقف عن يمين الله الآب » . وعندما اقتيد استفانوس إلى خارج مدينة أورشليم حيث رمته اليهود بالحجارة ، وقد صرخ وهو يسقط شهيداً : « سيدى يسوع ، تقبل روح عبدك الأمين ... يا إلهى اغفر لهم » . وكان يقف عند هذا المشهد شاول الطرسوسى العدو اللدود للمسيحيين ، الذين لقوا على يديه صنوفاً من التنكيل . وقد صار شاول هذا فيما بعد أستاذ المسيحية الأول فهو القديس بولس الرسول .

(٢) الفؤوس .

(٣) صلب هذان اللصان العاتيان مع المسيح : واحد عن يمينه وآخر عن يساره .

(٤) أى معجزة .

هيلانة فرحت كثيراً ، وابتهجت ومجدت الله الذى أهلها[1] لهذه النعمة ، وتعجبت من أمانة يهودا ، كيف أظهر مثل هذا السمى بعد الجهد ، وأخذت الذى تاقت اليه وطلبته : أعنى الصليب المكرم ، وعملت له صندوق ذهب بحجار ثمينة ولولو نفيس ، ووضعته فيه بوقار وخوف كثير فملته . حينئذ استدعت يهودا وقالت له أن يبحث عن المسامير التى سمر بها المسيح . وطلب يهوداً مع بقية النصارى ، فلمع المكان الذى كانوا فيه ، وحفروا فوجدوهم يلمعون كالشمس فتناولتهم الملكة ، ووضعتهم مع الصليب المكرم .

وأما يهودا فبعد اعتماده[2] ، عملته الملكة رئيس كهنة لأورشليم . وبعد ذلك بنت كنايس عظيمة فايقة بما أنها مومنة وورعة وحسنة العبادة فى مكان قبر الرب ، ومكان الجاجلة[3] وبيت لحم ، وجبل الزيتون ، وطور ثابور ، والأماكن الأخرى ، الذى تردد المسيح بها ، وعلم وتألم بالجسد ، وأيضاً هياكل كثيرة التى نكتبها باختصار :

فالأول قبر الرب الصانع الحياة ، الذى هو هيكل عظيم ومدور البناء ، وهو فى وسط أورشليم المدينة المقدسة ، وله قبتين وقناطر حسنة ملاصقات الهيكل المقدس . ومن بعد يستبين رسم صورة الثالوث المقدس . وأما القبة الواحدة التى هى فوق القبر المقدس فإنها مغطاة ، ومن هناك ينزل النور البهى نور القيامة المقدس فى يوم السبت العظيم . وأما القبة الأخرى فمن خارج ملبسة برصاص ، ومن داخل مربطه بالأخشاب إلى حد زنار الحايط . ومن نازل مزوقة ببلور مذهب صور جميع الأنبياء والقديسين قسطنطين وأمه هيلانة . ومن تحت رخام أحمر فى الحايط منقوش ودار الكايتخومانا القبر المقدس ثمانية عواميد رخام منقوش ، وثمانية ركايز طوال : فالعواميد فى الرواست وتحت الصخر ستة عشر عامود غلاظ ، وركايز طوال ثمانية . وفى وسط القبة التى بصخر القيامة قبة لطيفة صخرية ، وفى

---

(١) ألهمها .

(٢) أى بعد قبوله المعمودية واعتناقه المسيحية .

(٣) الجلجثة : المكان الذى صلب فيه المسيح .

وسطها قبر الرب المقدس . وفى دخولك من باب القبر المقدس هناك الحجر الذى دحرجه الملاك فى فم القبر ، وهو مثل المايدة المقدسة ، والقبر المقدس ، فهو رخام لطيف ، وفوقه قناديل غير مطفاة ثمانية وثلاثين . وهناك مصور دفن المسيح وقيامته وصموده ، ودايره جميعه مرخم . ومن هناك بقليل كنحو خطوتين الحجر الذى جلس الملاك فوقه وقال للنسوة : يسوع تطلبن ، قد قام ، ليس هو ها هنا . وفوق الحجر معلق أيضاً أربع قناديل غير مطفية ، وفوق القبر المقدس قبة صغيرة مغطاة مرصصة برصاص ، يحملها إثنى عشر عامود رخام ، مذهبات الروس ، مزوقات كلهم بفسيفسه . ومن هناك ينزل النور المقدس يوم السبت العظيم . وداير القبر المقدس ، من ناحيته البرانية ، هناك كنائس الأراطقة[1] : الأرمن[2] واليعاقبة[3] والحبش[4] والنساطره[5]، والأرثوذكسيين لهم الكنيسة الكاثوليكية . وفيما بين القبتين قنطرة كبيرة مصورة بيلور : أيقونات الصعود والبشاره ، ومعلق هناك قنديل ساهر ، وتحت القبة فى الصخر نصف الدنيا ، وهناك قناديل كثيرة . وهناك هيكل الكنيسة مصور ومكتوب دايره : معنا هو الله فاعلموا أيها الأمم وانهزموا لأن الله معنا . ودايره إثنى عشر عامود وأربعة قناديل ، وهناك كراسى البطاركة يزهرون . وهناك قناديل ثلاثين ، وخلف الهيكل المقدس هناك حبس المسيح ، ومنه خمسة عشر قدم ، مكان القيود التى وضعوها فى رجلى المسيح ، مرخم . وفيه مائدة حيث يقدسون ، وهناك أربعة قناديل غير مطفئة ، وأمام المكان الذى عملوا

---

(١) الهراطقة .

(٢) الأرمن : اختلف الأرمن مع كنيسة بيزنطة منذ أيام مجمع خلقدونية (٤٥١ م) ، وهم أميل إلى الاعتقاد بالطبيعة الواحدة للمسيح ، فهم فى عداد المنافزة من وجهة النظر الخلقدونية (الأرثوذكسية) .

(٣) اليعاقبة : هم منافزة (أصحاب الطبيعة الواحدة للمسيح) سوريا . وقد اتخذوا اسمهم من زعيمهم يعقوب برادايوس من ارها الذى تمكن ، بمعونة الامبراطورة تيودورة ، من تقوية نفوذ فرقته فى الشام .

(٤) الحبش : الأحباش أيضاً يؤمنون بالطبيعة الواحدة للمسيح ، مثلهم فى هذا مثل أقباط مصر ، الذين حرموا من المشاركة فى أعمال مجمع خلقدونية ثم أدينوا بالهرطقة .

(٥) النساطرة : هم أتباع نسطوريوس الذى قال إن العذراء مريم أم المسيح فى طبيعته البشرية لا الإلهية ، وقد أدينت تعاليمه فى مجمع افيسوس الاول سنة ٤٣١ م .

فيه مسامير الصليب ، وقدامه بقليل فى كنيسة الإفرانج ، فى الأرضية ، رخامة مدورة ومثقوبة فى وسطها ، فيضمون الناس آذانهم فى الثقب فيسمعون صوت دوى وصدا كحس نقر النحاس ، وخلف الهيكل المقدس المكان الذى اقتسموا فيه الجند ثيـاب الرب وعن يسار القبر المقدس من ناحية الهيـكل المقدس بتطلع[1] فى خمسة عشر درجة ، وبتدخل إلى مكان الجلجلة حيث نصب صليب المسيح واللصين . وفى هذا المـكان قال اللص : اذكرنى يارب ، ومصور صلبوت المسيح . وهناك قناديل ساهرة خمسة عشر . والجلجلة مبنية قبو مصلب ومصور ببلور صور الأنبياء وابراهيم واسحق ويعقوب وأرضية الصحن كله منقوش فسيفسه . ومن خلف الجلجلة بتنزل ثلاثين درجة إلى تحت هناك هيكل القديسة هيلانة بأربع عواميد رخام . والعامودين ينضحون ماء بارداً بالصيف . وهناك كرسى القديس يعقوب أخو الرب ومنه بتنزل اثنى عشر درجة ، فهناك المغارة التى كان بها يختفى صليب المسيح ، وفيها مايدة يقدسوا عليها فوطاغين . وهناك أربع قناديل ، وأمام القبر المقدس الموضع الذى فيه كفنا يوسف ونيقوديس جسد المسيح ولفوه بسبانى نقية ، وهى ملبسة برخام أسود سماقى ، ومعلق هناك ثمانية قناديل لا تنطفىء . وهناك أربعة عواميد رخام وقبو مصلب ، فالقنطرة التى للـكنيسة ثلاثين ، ولها ثلاثة أبواب فالواحد غربى الذى منه دخلت البارة مريم المصرية ومنعت من الدخول بواسطة ملاك . وفوق مصورة السيدة التى صارت كفيلة لهذه البارة . وأما البابين الآخرين قبليات ، فيهم ستة عواميد رخام وثلاثة سماقى وعتبة فوقانية لطيفة ، وفى قربهم قبة صخرية مصورة بفسيفسة ، وهو المـكان الذى جلس فيه الملك للحكومة . وأيضاً صحن القبر المقدس منقوش برخام ، وهناك أربعة عواميد الذى وضعوا المايت فوقهم ، الذى أقامه صليب المسيح . وهناك ثلاث كنائس : قيامـــة المسيح والأربعين شاهد ، ويعقوب أخو الرب ، وحاملات الطيب . وهناك نظرت مريم المجدلية الرب يسوع المسيح من بعد القيامة وتوهمت أنه البستانى وقالت له : يارب أين وضع جسد يسوع . فأجابها الرب : مريم لا تقربينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى . ومن هناك وفوق قليل دار البطركية ، وفوقها بقليل دير الثلاثة الهداية ، يسكنوه راهبات ؛ لأن من هناك

(١) يقصد « إذا ما طلعت » .

وقفت أم الإله وعاينت ابنها مصلوباً ، وانتحبت نادبة . ومن القبر المقدس كنحو غلوة فى ذاك الجانب، يوجد اثنى عشرة ديراً وغربى القبر المقدس : الأول للسابق، الثانى للمعظم جاورجيوس(١) الثالث للجليل ديمتريوس(٢) ، الرابع للقديس نيقولاوس(٣)

---

(١) جاورجيوس : يظن أن القديس جاورجيوس (سان جورج) قد استشهد فى أخريات القرن الثالث أو بداية الرابع . ويحتفل بيوم عيده فى الثالث والعشرين من أبريل . ومار جرجس أو سان جورج هو قديس انجلترا وولى شبان الكشافة وعلى اسمه تقوم كنائس لا تحصى فى العالم ، ويهتم المشرق به وبعيده اهتماماً زائداً . على أنه ليست هنالك مادة تاريخية عن حياته ، وكان من نتيجة تخبط الأساطير التى تدور حول هذا الشهيد أن خلص البعض من الدارسين إلى أن مار جرجس ما هو إلا شخصية أسطورية . هذا ولقد بدأ تبجيل القديس فى صورة الجندى « العلوى » منذ وقت مبكر ، وكان مركز هذه الفكرة فى ديوسبولس وهى مدينة اللد الآن . وربما كان أن سان جورج قد استشهد هناك فى نهاية القرن الثالث أو بداية الرابع .

أما الأساطير التى تدور حوله فهى عديدة ، ولا يقبلها المؤرخون على إطلاقها . ولعل أشهر هذه الروايات ماورد فى كتاب « الأسطورة الذهبية » ، الذى ظهر فى العصور الوسطى المتأخرة ، حيث يبدو القديس « فارساً من كبادوكيا ، ثم منقذاً لفتاة من مدينة سيلين فى ليبيا من أنياب التنين.. الأمر الذى أدى إلى اعتناق الآلاف من أهالى هذا الإقليم للمسيحية » . وبعد عديد من المعجزات التى تمت على يديه ، سقط سان جورج ضحية لاضطهاد دقلديانوس الذى أمر بقطع رأسه فى نيقوميديا .

أما كيف أصبح سان جورج القديس الحامى لانجلترا فهو أمر محير ، والمعروف أن اسمه كان متداولا فى انجلترا وايرلندة قبل الغزو النورماندى لانجلترا (١٠٦٦) . ويرجح أن الصليبيين الانجليز العائدين من الأرض المقدسة قد ساعدوا على ازدياد شعبية هذا القديس بين بنى جلدتهم . وفى سنة ١٤١٥ أصبح يوم عيده احتفالا على رأس سائر الاحتفالات فى انجلترا .

(٢) ديمتريوس : لايعرف تاريخه بالضبط ، وإنما يحتفل بعيده فى الثامن من اكتوبر . ويظن أنه كان من بين شمامسة سرميوم (متروفتشا فى الصرب) . على أن مركز شهرته كان فى سالونكا . والقصة التى تدور حوله فحواها أنه قبض عليه بسبب تبشيره بالمسيحية فى سالونكا ، على عهد الإمبراطور ماكسميان ، ثم قتل . ثم اكتسبت قصته لمسات أسطورية فقيل عنه إنه كان بروقنصل (قنصلا سابقاً) وأنه من مشاهير المحاربين من طراز سان جورج . ولقد ازدادت شعبيته تدريجاً وانتقلت من سالونكا إلى سائر أقطار المشرق .

(٣) نيقولاوس : عاش فى القرن الرابع ، ويحتفل بعيده فى السادس من ديسمبر . من =

الخامس للقديسة تقلا(١) ، السادس للقديسة حنة(٢) ، السابع للقديس ايثيميوس(٣)

= المعروف أنه كانت توجد كنيسة فى القسطنطينية باسم هذا الأسقف القديس فى القرن السادس . وبداية من القرن التاسع — فى المشرق — والحادى عشر فى غرب أوروبا صار نيقولاوس أكثر القديسين شعبية ؛ فغدا القديس الحامى لبلدان وولايات وابروشيات ومدن لا تحصى ولا تعد ، كما اتخذه البحارة والصبية والتجار ولياً لهم يتبركون بذكر اسمه وترتيل الأناشيد له ، كما تسابق الفنانون فى تصويره بالرسم والنحت . ورغم كل الأساطير التى تدور حول هذا القديس ، فإنه من الناحية التاريخية لا نكاد نعرف عنه سوى توليه منصب الأسقفية فى مدينة ميرا فى جنوب غربى آسيا الصغرى فى القرن الرابع .

ولقد شاعت أسطورته فى القرن التاسع . ولعل أهم ما ورد فيها أن القديس انتشل ثلاث فتيات من وحل الدعارة بأن ألقى إلى كل منهن من خلال نافذتها حقيبة ملأى بالذهب . ويحكى عنه أيضاً أنه أحيا من الموت ثلاثة صبية كانوا قد اغتيلوا عدواناً . كما انه قد أنقذ — وفقاً للأسطورة ذاتها — بعض البحارة من موت محقق على مقربة من الشاطىء الآسيوى فى منطقة ليقيا . على أن التاريخ لا يؤيد هذا ولا يعلم شيئاً عن قصة استشهاده فى سبيل المسيحية قبيل اعتلاء قنسطنطين العرش . كذلك قيل إنه كان من بين الحضور فى مجمع نيقية المسكونى (٣٢٥م) ، ولكن هذا غير ثابت أيضاً .

والقديس نيقولاووس بوصفه ولياً للصبية هو الأصل فى قصة « بابا نويل » ومصدر الإلهام لشخصية « سانتا كلوز » . وفى سنة ١٠٨٧ سرق بعض التجار الإيطاليين رفات القديس من ميرا ونقلوها إلى مدينة بارى فى أبوليا ، ولا زالت باقية هناك . هذا والرمز المميز للقديس نيقولاس عبارة عن ثلاث كرات .

(١) تقلا : وهى شهيدة عذراء من القرن الأول ، ويحتفل بعيدها فى الثالث والعشرين من سبتمبر ، وتستمد أسطورتها من «أعمال القديس بولس الرسول » التى كتبت حوالى سنة ١٧٠ م . ومنها نعلم أن تقلا كانت من مواطنى قونية ، وأنها اعتنقت المسيحية على يد القديس بولس . وبعدها تخلت عن خطيبها ووهبت بتوليتها لله ، مما عرضها لاضطهاد شديد . ولكن محاولات قتلها بالنار وبالوحوش المفترسة قد فشلت . وبعدها اعتزلت القديسة إلى كهف فى مريا ملك على مقربة من سلوقية ، حيث عاشت على هذا المنوال سنين طوالا . وعندما بلغت التسعين من العمر تعرضت تقلا مرة أخرى للاضطهاد هذه المرة من جانب رجال الطب الذين كانوا يحسدونها على مقدرتها على الشفاء الروحى لسائر الأسقام . على أن صخرة كهفها قد أنقذتها من مكرهم ؛ إذ انفتحت الصخرة ليحتويها الكهف فى عمقه شهيدة الإيمان والمعجزة .

(٢) القديسة حنة انظر حاشية رقم(١) ص ١٦ .

(٣) ايثيميوس : ولد هذا القديس فى ميليتين سنة ٣٧٧ وتوفى فى فلسطين سنة ٤٧٣ . ويحتفل بيوم عيده فى العشرين من يناير . ولقد هاجر هذا القديس من وطنه =

الثامن للقديسة كاترينا(١) ، التاسع لرئيس الطغمات، العاشر أيضاً للقديس باسيليوس(٢)

= فى أرمينيا — وهو فى الثلاثين من عمره — إلى فلسطين حيث توحد راهبا فى كهف ما بين أورشليم وجريكو . ويقال إن المسلمين كانوا يحترمون هذا الراهب المتوحد خاصة بعد أن من الله بالشفاء على ابن لأحد السادة المسلمين بعد صلوات ايثيميوس من أجل شفائه . كذلك نعلم أن الامبراطورة يودوكيا أرملة الامبراطور ثيودوسيوس الثانى كانت تستشير هذا القديس فى مشكلاتها الروحية .

(١) كاترينا : لا يعلم لها تاريخ ، ويحتفل بعيدها فى الخامس والعشرين من نوفمبر . والأسطورة التى تدور حول هذه القديسة تمثلها من أصل عريق، على درجة وافرة من الثقافة ، وذات جمال خارق . هذه الفتاة السكندرية وقفت فى وجه الامبراطور ماكسنتيوس محتجة ضد العبادات الوثنية . ولما أتوا إليها بخمسين من فلاسفة الوثنيـة لمحاجتها انتصرت عليهم جميعاً بحسن منطقها وإيمانها . وكانت النتيجة أن أمر الامبراطور بإعدام هؤلاء الفلاسفة الخمسين . وقد افتتن ماكسنتيوس بكاترينا ورغب فى الزواج منها إن هى أنكرت مسيحيتها ، ولكنها رفضت مما جعله يتفنن فى أساليب تعذيبها . وتقول الأسطورة أنها وهى حبيسة «زنزانتها» كانت تقتات على الطعام الذى كانت تحمله إليها حمامة وادعة كل يوم ، كما أن المسيح قد ظهر لها فى رؤية . وقد حاولت السلطات الوثنية تعذيبها على عجلة خشبية ذات أسـنان حادة ، ولكن العجلة تمزقت إرباً فقتلت شظاياها عديداً من المتفرجين ، فى حين أن القديسة لم تمس بسوء . وكان من نتائج هذه المعجزة أن اعتنق مائتان من جند الامبراطور الديانة المسيحية ؛ فأمر الامبراطور بقطع رؤوسهم جميعاً على التو . وفى نهاية الأمر قطع رأس كاترينا ، وهى تصلى من أجل البشر . على أن شرايينها فاضت لبناً بدلا من الدم . وقد حملت الملائكة جسدها الطاهر إلى جبل سيناء . كل هذا حسب روايات الأساطير .

على أننا لا نملك سجلات تعزز فى قليل أو كثير شيئاً من هذا كله . وأغلب الظن أن تلك القصة من نسج خيال كاتب يونانى مبكر . هذا والرمز المصاحب لـكاترينا هو « عجلتها » الأسطورية .

(٢) باسيليوس : ولد فى قيصرية حوالى سنة ٣٣٠ ومات هناك فى أول يناير ٣٧٩ ، ويحتفل بعيده فى ١٤ يونيو . ولد باسيليوس لعائلة مسيحية مرموقة الشان : فجدته ماكرينا ، ووالده باسيل الأكبر ووالدته إميليا ، وشقيقته الكبرى ماكرينا ، وشقيقاه الصغيران جريجورى من نيسا وبطرس من سباستيا — كل هؤلاء أعلام قديسون. وقد تلقى القديس تعليمه فى مدارس قيصرية والقسطنطينية وأثينا ، حيث صادق القديس جريجورى من نازيا — — نزوس . وفى سنة ٣٥٧ قام برحلة زار خلالها البيوتات الديرانية فى المشرق . ثم استقر بعدها راهباً فى آنيزى على نهر إيريس فى بنطس . ويعتبر القديس باسيل هذا الأب الحقيقى للحركة الديرية فى الشرق لأنه هو الذى وضع لجماعات الرهبان دساتيرهم وقوانينهم . =

الحادى عشر يوحنا الثاولوغس[1] ، الثانى عشر أيضاً للقديس جاورجيوس ، فهذه

= وفى سنة ٣٧٠ اختير القديس أسقفاً لقيصرية . وهنـاك وقف ضد الإمبراطور ڤالنز الأريوسى وأتباعه ؛ مناصرة للعقيدة الأرثذكسية . ولما استدعاه حاكم الولاية للتحقيق معه صاح فى وجهه «لعلك حتى اليوم لم تصادف أسقفا حقيقياً يواجهك فى شجاعة» ؛ وكانت تلك الشجاعة سمة مميزة للقديس باسيليوس ، جعلت الإمبراطور ذاته يخشى بأسه وشعبيته .

ولعل أشهر ما قام به القديس أنه وهب ضيعة من ضياع قيصرية للخدمة العامة ، فأسس فيها كنيسة ومستشفى وداراً لضيافة الغرباء وبيوتاً لإيواء المعدمين والفقراء . وللقديس عديد من الرسائل والمواعظ الشهيرة ، التى تكشف عن شخصيته وحبه للفقراء وكراهيته للموسرين . وتتميز شخصيته أيضاً بعناد شديد . ومن بين ما خلفه رسالة لأبناء إخوته يحثهم فيها على دراسة الآداب والفلسفة الكلاسيكية (الوثنية) لتمهد لهم الفهم الواعى لقواعد المسيحية . هذا ويعد باسيليوس واحداً من أشهر أربعة لاهوتيين فى الكنيسة البيزنطية .

(١) يوحنا اللاهوتى : (الثايولوغى) وهو واحد من أشهر تلاميذ المسيح الأثنى عشر. توفى فى أفيسوس (؟) حوالى سنة ١٠٠ م ، ويحتفل بعيده فى السابع والعشرين من ديسمبر. كان يوحنا جليلياً ومن جماعة الصيادين ، وقد أشار المسيح عليه وأخيه القديس يعقوب الأكبر ، وهما يصلحان شباك الصيد ، أن يتركاها ويتبعاه ففعلا ذلك . وكان هذان الأخوان يتميزان بحدة الطبع فأطلق عليهما المسيح كنية « ابنى الرعد » . على أن المسيح قد اختارهما وبطرس الرسول لمشاهدة لحظة « التجلى » على الجبل ولمصاحبته وقت الآلام فى الجسمانية . ولقد جرى العرف على أن يوحنـا هذا هو « التلميذ المحبب لقلب المسيح الذى اتكأ على صدر سيده ليلة العشاء الأخير » . كما وأن المسيح وكل إليه — وهو على خشبة الصليب — رعاية السيدة مريم . وكان يوحنا أول من زار القبر الذى دفن فيه المسيح بعد الصلب فى اليوم الثالث فوجده خالياً فاعترف على التو بقيامة المسيح . كذلك تعرف يوحنا على السيد المسيح بعد القيامة حين ظهر له عند بحيرة طبرية . وفى « أعمال الرسل » نجد يوحنا ملازماً لبطرس الرسول فى إتيان المعجزات وشفاء المرضى ، فى تحد صارخ لرؤساء الكهنة اليهود. كذلك كان يوحنا رفيقاً لبطرس فى سجنه ، ومصاحباً له فى رحلتهما التبشيرية إلى السامرة . ويطلق القديس بولس على يوحنا هذا وبطرس ويعقوب « عمد كنيسة أورشليم » .

هذا وقد نفى يوحنا — كما يعترف هو نفسه فى سفر الرؤيا إلى جزيرة بطمس « من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح » . ويقال إنه قد أمضى آخر سنى حياته فى أفيسوس وإنه توفى هناك . ويقول القديس جيروم أنه عندما بلغ يوحنا سن الشيخوخة ووهنت قوته عن القيام بالتبشير كان يكتفى بقوله للشعب « أحبوا بعضكم بعضاً — هذه هى وصاية السيد الرب ، فلئن اتبعتموها ففيها كل الكفاية » .

أما القصة التى تدور حول زيارة قام بها يوحنا إلى روما وحول إلقائه فى الزيت المغلى ونجاته =

الديوره الموجودة إلى اليوم فى أورشليم ، وهى بيد الأرتودكسيين . لكن فى زمان الروم كانت الديوره والكنائس ثلثمائة خمسة وستين ، الذى أخذوا الأمم منها أكثرها . وشرقى القبر المقدس ، داخل أورشليم أربع غلوات ، هناك قدس القديسين والهيكل الذى فيه علم المسيح ، الذى فيه ذبح زخريا أبو يوحنا السابق . وهناك سمعان ، قابل الإلهة ، اقتبل المسيح . وهناك الآن يوجد حجر معلق بقدرة الله . وهذا الهيكل فهو عظيم ، مدور البنا بقبب مرصصات ، ومزخرفات داخله وخارجه بالفيسفسه ، وصخر داره كبيرة رحبة . وفى الناحية الشرقية منه هناك الأربعة أبواب التى بهم دخل المسيح بالسعف والأغصان ، وهم مغلقات إلى اليوم . وبقربه دار بيلاطس والأبروطوريون ، ونازل منهم البركة الغنيمة ذات الخمسة أروقة . ومن القبر المقدس كنحو ثلاث غلوات قرب هنــاك بيت يواكيم ، وحنة(١) أجداد المسيح وبقربه بير الحماه الذى ألقوا اليهود أرميا النبى فيه ، وهو من القبر المقدس كنحو أربع غلوات . فهذه الديورة كلها موجودة داخل أورشليم المقدسة .

وخارج أورشليم كنحو أربعة غلوات ، قبلى القبر المقدس ، هناك بيت داوود ، وهو عظما كبيراً ، الذى فيه رتل المزامير ، وعلى مازعموا معلمين كنيستنا بأن هناك مزمع الاله أن يعمل المداينة(٢) فى مجيه الثانى . وقرب منه وادى البكا الذى منه مزمع أن يجرى نهر النار . ونازل منه بقليل دير القديس يعقوب أخو الرب ، وهو بيد

= من الموت ، فهى أسطورية تماماً . ولذا فإن الكنيسة الرومانية فى سنة ١٩٦٠ قد أبطلت تماماً الاحتفال بذكرى هذه القصة الخرافية فى السادس من مايو من كل عام . وقد جرى التقليد على نسب الإنجيل الرابع والرسائل الثلاث وسفر الرؤيا إلى يوحنا هذا .

ولكن بعض العلماء يشكون فى هذه النسبة . هذا والرمز المصاحب للقديس يوحنا هو النسر .

(١) هل هى القديسة حنة والدة العذراء مريم ؟ إذا كان الأمر كذلك فنحن نعلم أنه يحتفل بعيدها فى السادس والعشرين من يوليو . وهنالك كتابات مبكرة مشكوك فى صحتها تنسب عادة للقديس يعقوب الحوارى ، وفيها نبوءة عن مولد السيدة العذراء ، شبيهة بما ورد فى العهد القديم بقصة النبى صموئيل الذى من الله به على والدته حنة بعد أن كان الله قد أغلق رحمها فترة طويلة من الزمن .

(٢) أى الدينونة .

الأرمن . ومن هناك بيت يوحنا الثاولوغى ، وقريب منه الهيكل الذى بناه سليمان ، وهو صهيون المقدسة ، وقريب منه بيت والدة الإله ، هناك صار العشاء السرى والغسل وحلول الروح القدس على الرسل القديسين ، وفيه كان رقود والدة الإله ، والتئام الرسل بالسحاب ، وجنزوها إلى الجسمانية ، وهناك قبور الأنبياء داوود وسليمان وسمعان الشيخ والقديس استفانوس ، ومساجد أخرى كثيرة . ومن صهيون المقدسة كنحو ميل من القبر المقدس مكان وطاه هناك بير القديس يعقوب وعين سلوان ، وحقل الفخار لمدفنة الغرباء ، بعدهم من القبر المقدس كنحو ميل . ومن هناك بأربعة غلوات قبر يعقوب أخو الرب الذى أرموه من فوق جناح الهيـكل . وشرقى القبر المقدس خارج أورشليم هناك الجسمانية : هيكل مسقوف وباب لطيف ، ولها ثمانية عواميد ، وبتنزل فى درج ثمانية وأربعين درجة تجد الهيكل أسفل . وفى وسط الهيكل قبة صخرية ، وفى داخلها قبر والدة الإله المقدس ، من رخام أبيض لطيف ، ومعلق هناك عشرة قناديل ، وهناك باب مغلوق . ومن هناك ، على مازعموا مزمع أن يخرج نهر النار . وبقرب تلك المغارة التى كان بها المسيح مختفى مع الرسل ، وفى ليلة الآلام أتى يهودا بالجمع ومسكوا المسيح ، ومضوا به إلى رؤساء الـكهنة . وهناك قطع بطرس أذن ملخص[١] . ومن هناك بقليل المـكان الذى صلا فيه المسيح ، وبجانبه المـكان الذى جلس فيه ونظر إلى أورشليم وقال : ياأورشليم ياأورشليم ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها ، هوذا أترك لـكم بيتكم خراباً ، ولا يترك حجر على حجر . ومن الجسمانية إلى القبر المقدس مقدار ميل واحد ، هناك جبل الزيتون حيث صعد المسيح إلى السموات . وفيه هيكل عظيم ، وداخله قبة على خمسة عشر عاموداً رخام ، وداخل القبة أقدام المسيح مطبوعات فى الصخر لما صعد ، ومعلق أربعة قناديل غير مطفاة ، ومن هناك بتنزل ثلاثين درجة هناك قبر القديسة بلاجيا[٢] بقرب الحائط بمقدار نصف قدم إنسان . ومن أراد أن يعبر هناك يحتاج

(١) ملخص : كان ملخص واحداً من أتباع رئيس كهنة اليهود ، الذى جاء مع الخائن يهوذا للقبض على المسيح . وعندها ثار بطرس الرسول وضرب التابع بسيفه فقطع أذنه ولـكن المسيح وبخ تلميذه بطرس على هذه الفعلة ، وأمسك بالأذن المصلومة ووضعها مكانها معافاة تماماً .

(٢) بلاجيا : هى بلاجيا التائبة ، ولا نعرف لها تاريخاً محدداً ، وإنما يحتفل بعيدها فى =

أن يعترف بخطاياه وإلا يمسك مسكا غير منظور ولا يقدر أن يخرج . ومن هناك القلايه التى مسك فيها ، مشمول بها ثلاث قناديل غير مطفاة . ومن هناك نحو غلوتين قانا الجليل الذى عمل المسيح أول أعجوبه بعرس قانا وحول الماء خمراً . وكان فى الأول فيها كنيسة إلا أنها انهدمت ويقولون أن ملشيساداق[1] فى جبل الزيتون جلس . ومن أورشليم كنحو ميل شرقى جبل الزيتون هناك بيت عنيا وقبر العازر الصديق مرخم ، وقربه الحجر الذى جلس عليه المسيح فى الطريق . وداخل القبر مغارة فيها قبر مرتا ومريم أخوان(٢) العازر . ومن بيت عنيا كنحو ميلين من القبر المقدس هناك طريق ريحا والأردن. وفى الطريق عين الرسل ، وبقربها دير القديس افثيموس فى رأس الجبل . ومن أورشليم نحو خمسة عشر ميل فى طاه هناك دير السيدة ، وهناك عاين يشوع بن نون رئيس جنود قوات الرب . وفى ريحا المياه المالحة التى حولها اليشع إلى حلاوة . وهناك الجبل الذى صام فيه المسيح أربعين يوما . ومن أورشليم مقدار عشرين ميل من هناك بتنزل لدير القديس يوحنا السابق ونهر الأردن الذى فيه اعتمد المسيح وعلى حافة الأردن عاين يوحنا الروح القدس ، وجايز الأردن المغارة التى اختفى فيها إيلياس ، وهناك اختطف بالمركبة النارية . ومن الأردن إلى أورشليم أربعين ميل ، وجايز الأردن جبل عالى فيه صلى موسى لما أزمع أن يموت ، وهناك قبره . وفى البرية الجوانية هناك قبر القديسة مريم التى نسكت سبعة وأربعين سنة ، بعده من أورشليم عشرين يوماً ، ومن ناحية

= الثامن من أكتوبر ولهذه القديسة كنية هى «مارجاريتو» ومعناها ذات اللآلىء الفائقة الجمال .

وقد عاشت بلاجيا حياة خليعة ماجنة وهى فى شبابها المبكر فى مدينة انطاكية ، الأمر الذى لفت نظر نونس أسقف الرها ، فقال عنها فى إحدى المناسبات : « إن فى هذه الفتاة الماجنة درساً لنا نحن الأساقفة . فلو أننا أولينا اهتماما بالرعية وبأرواحنا مثل هـذا الاهتمام الذى توليه الفتاة بلاجيا لجمالها وطريقة رقصها لوصلنا حد الكمال » . ولقد تأثرت الفتاة بلاجيا بمواعظ هذا الأسقف ورغبت فى التوبة الصادقة ، نخلعت عن ذاتها رداء الدنيا وقبلت المعمودية. وبعدها ذهبت إلىأورشليم وتنكرت فى زى الرجالواختارت لها كهفاً قصاًعلى جبل الزيتون عاشت فيه حياة الزهد والتوبة ، متخذة اسم بلاجيوس .

(١) ملكيصادق .

(٢) أختى .

الأردن اليمين هناك صدوم والبحيرة الميتة وموضع لوط . ويقولون إن فى ذلك المكان تحته الجحيم ، بعده من أورشليم ثلاثين ميل . وهناك تجد دير القديس جراسيموس الذى كان يخدمه الأسد . وفوق صوب ناحية أورشليم فى جبل هناك سيق مارسابا[1] ، وقبره والدير واقف إلى اليوم مثل وادى . وأسفل منه الينبوع الذى أخرجه القديس بصلاته ، والكنيسة بقبب ومصورة باللازورد . وهناك قلاية القديس يوحنا الدمشقى[2] . وفى زمان القديس مارسابا كان فى الدير أربعة

(١) مار سابا : ولد القديس ساباس بجوار قيصرية على مقربة من كبادوكيا فى سنة ٤٣٩ وتوفى فى مار سابا سنة ٥٣٢ . ويحتفل بعيده فى الخامس من ديسمبر . كان مارسابا رئيساً ديرانياً ذا نفوذ كبير فى تطوير الحياة الرهبانية فى المشرق . وقد تتلمذ على يد القديس ليوثيميوس العظيم . وبعد قضاء بضع سنوات راهباً متوحداً فى بقاع مختلفة من فلسطين ، قام فى سنة ٤٧٨ بتأسيس بيت ديرانى فى البقعة ما بين أورشليم والبحر الميت . وقد نمت هذه الجماعة وازدهرت ، وفى عام ٤٩٣ صار القديس مشرفاً على سائر البيوتات الجماعية الديرانية فى فلسطين . ولقد شارك ساباس فى نشاط الكنيسة فأوفد مرتين من قبل بطريرك أورشليم فى مهمات كنسية إلى القسطنطينية . وقد قام كيرلس من سكيزوبولس بكتابة سيرة مارسابا . هذا ولا يزال دير مارسابا قائماً حتى الآن ، عامراً بالرهبان ، فهو بهذا من أقدم أديرة العالم .

(٢) يوحنا الدمشقى : لاهوتى مرموق وكاتب ترانيم كنسية ذائعة الصيت فى الشرق والغرب . ولد القديس فى دمشق سنة ٦٧٥ وتوفى على مقربة من أورشليم سنة ٧٤٩ . ويحتفل بيوم عيده فى السابع والعشرين من مارس .

ويعتبر يوحنا هذا آخر الآباء الأمجاد فى تاريخ الكنيسة الشرقية .

وقد شغل والده منصباً هاماً فى بلاط الخليفة عبد الملك بن مروان فى دمشق . ويقال إن والده استخدم راهباً يونانياً من كلابريا ، كان قد وقع أسيراً فى يد المسلمين ، لتعليم ابنه يوحنا . وقد خلف يوحنا ، أو منصور ، والده فى بلاط الخليفة الأموى لبضع سنين .

وعندما أقدم الإمبراطور ليو الثالث الألسورى على تحطيم الأيقونات فى الإمبراطورية البيزنطية ، تصدى له يوحنا الدمشقى ، تحت حماية الخليفة ، فهاجمه هجوماً عنيفاً . وقد اختار يوحنا الحياة الديرية وأصبح من أبناء مارسابا ، حيث عاش حتى وفاته . ولعل أشهر ما كتب القديس : « ينبوع المعرفة » التى تحوى مقالة هامة عن « الإيمان الأرثذكسى » . وقد كان لكتاباته أثر بالغ فى الغرب فى العصور الوسطى . كذلك له ثلاث مواعظ رائعة عن صعود جسد السيدة العذراء بعد موتها . ولا زالت ترانيمه تنشد فى قداسات الكنيسة اليونانية حتى اليوم .

عشر ألف راهب ، وهو من أورشليم مقدار اثنى عشر ميل . وبتطلع لتتوجه إلى أورشليم تجد دير القديس ثاودسيوس[١] رئيس الديارة ، بعده من أورشليم ثمانية أميال . وفوقه دير القديس مار الياس[٢] فى طريق بيت لحم ، والهيكل بقبب . هناك أتى إليه الملاك وقال له : قم كل واشرب . لأن الطريق مسافتها منك بعيدة . وفى هذه الوادى جاب يوسف والدة الإله إلى الحفرة ليخلى سبيلها ، وأتى الملاك وقال له : يا يوسف ابن داوود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك . ومن هناك بتمضى إلى بيت لحم ، وهو هيكل طويل فتجد فى الطريق قبر راحيل ، بقبته صخرة ، وقريب من هناك بيت لحم وهو هيكل طويل مسقوف بأخشاب ، ومن فوق برصاص ، ومصور بالفسيفسة ، وفيه واحد وأربعين عمود ، والأرضية جميعها رخام . وفى ناحية اليمين حوض المعمودية رخام أحمر ، وعن شمال الهيكل بتنزل بأربعة عشر درجة تجد مغارة التى ولد فيها المسيح ، المولد نحو المشرق ، والمذود نحو المغرب ، ومشعول فيهما عشرة قناديل غير مطفاة ، والمغارة جميعها ملبسة برخام ،

---

(١) ثاودوسيوس رئيس الديارة : ولد فى كبادوكيا حوالى سنة ٤٢٣ ، وتوفى على مقربة من بيت لحم سنة ٥٢٩ . ويحتفل بيوم عيده فى الحادى عشر من يناير . ترك هذا القديس عائلته وهو فى الثلاثين من عمره واستقر به الحال فى فلسطين ، حيث أسس جماعة رهبانية على مقربة من بيت لحم . وسرعان ما ازدهر شأن تلك الجماعة التى كانت تضم رهبانا من أجناس ولغات مختلفة . ولقد اشتهرت تلك المؤسسة الديرانية بخدماتها الجليلة لصالح المرضى والمسنين وضعاف العقول . وقد كان ثاودوسيوس صديقاً مقرباً للقديس مارسابا ، الذى عينه رئيساً للديارة فى فلسطين . وكان القديس معارضاً شديداً للمنافزة (أصحاب الطبيعة الواحدة) ، الأمر الذى دفع الإمبراطور أناستاسيوس إلى خلعه من منصبه فى رئاسة الديارة ولكنه سرعان ما أعيد إلى وظيفته . وقد توفى القديس عن مائة وخمسين عاماً .

(٢) مار الياس : هذا الشهيد ورفاقه الأربعة الآخرون ولدوا جميعا فى مصر واستشهدوا سنة ٣٠٩ فى قيسارية . ويحتفل بيوم عيدهم فى السادس عشر من فبراير . وقد سجل المؤرخ الكنسى المرموق يوسبيوس أسقف قيسارية سيرة هؤلاء الشهداء المصريين : فهم خمسة من أبناء مصر دفعتهم المحبة ودوافع الشفقة إلى اصطحاب نفر من بنى جلدتهم إلى محاجر كيليكيا ، بعد أن حكمت السلطات الإمبراطورية عليهم بالأشغال الشاقة فيها ، وكان ذلك بسبب تمسكهم بمبادىء العقيدة المسيحية . وأثناء عودة هؤلاء الخمسة من كيليكيا استوقفتهم سلطات قيسارية عند بواباتها وسألتهم عن أسمائهم فذكروها كالآتى : الياس ، جريمى ، اشعيا ، صموئيل ودنيال . ولما سألتهم السلطات عن موطنهم الأصلى ، ردوا قائلين « أورشليم » ، يقصدون « أورشليم السماوية لا الأرضية » بطبيعة الحال . وفى الحال أمر حاكم قيسارية بتعذيبهم ليحصل منهم على معلومات حقيقية ، ولكنهم آثروا الصمت ونالوا إكليل الشهادة .

والأبواب هى من نحاس أصفر . ومن ناحية الهيكل اليمينى بتطلع فى خمسة عشر درجة وبتدخل إلى هيكل القديس جاورجيوس ، وخلف الهيكل نحو غلوتين مكان الرعاة . وفى الأول كان هناك كنيسة عظيمة ، ولـكنها خربت ، ومن بيت لحم إلى أورشليم ستة أميال . ومن جهة المغرب هناك مكان ابراهيم عند البلوطة السوداء ، حيث كان يضيف الغرباء ، ونظر الثالوث المقدس ، وداخل بيته قبره ، وهى من أورشليم ثلاثين ميل . ومن هناك ثلاثين ميل قلاية القديس خاريطن[1] ، وبحيرة طبرية حيث كانوا الرسل يصطادون ، بعدها عن قلاية القديس ثلاثة أيام حيث قال لهم المسيح : تعالوا وراءى لأجعلـكم تصيدون الناس . وفى تلك الناحية الجبل الذى مضت إليه والدة الإله وسلمت على اليشيع . وفوق منه الصخرة التى انشقت واقتبلت السابق مع أمه اليشع . وهناك كنيسة موضع الذى ولد السابق . وأنت جاى إلى أورشليم قبلها بميلين ، هناك كنيسة المصلبة وهو هيكل عظيم بقبة ومبنى دايره كمثل قلمه بباب حديد ، ومعلق أربعة قناديل . وفى مجيئك إلى أورشليم كنحو خمسة غلوات تجد دير القديس بابيلا ، وهناك فوق الحجر الذى جلست عليه والدة الإله . فداير مدينة أورشليم خمسة أميال .

فهذه البنايات العجيبة كلها التى بيناها باختصار عملتها القديسة المغبوطة هيلانة ، لما كانت حاضرة فى أورشليم ، وخلفت وكلاء لعمارة البقية ، وأعطتهم ، المحبة لله ، ذهباً كثيراً ، وعملت ذلك تذ كاراً لها ولابنها قسطنطين الملك المشابه الرسل(٢) .

---

(١) خاريطن : كل ما نعلمه عن هذا القديس أنه كان متوحداً فى الـكهف فى برية تـكوه جنوب شرقى بيت لحم ، وأن هذه البقعة بالذات قد كانت المـكان المحبب لقلب القديس سرياقوص الذى توفى سنة ٥٥٧ .

(٢) اعتبر كتـاب الـكنيسة البا كروت قسطنطين العظيم مسـاويا لحواريى المسيح أو تلاميذه ؛ فهو على هذا الرسول الثالث عشر .

صور من الحياة الاجتماعية فى المجتمع العباسى فى العراق

الدكتورة مليحة رحمة الله

الأستاذة المساعدة فى كلية البنات — جامعة بغداد

هناك صور من الحياة كثيرة فى المجتمع العراقى فى عصر بنى العباس ، منها ما استمدت من واقع البيئة ، ومنها ما كانت ترجع إلى عصر ما قبل الإسلام ، ومنها ما اقتبست من الأمم الأجنبية وخاصة الفرس . وهذه الصور ممكن أن يطلق عليها اسم العادات والتقاليد التى سيطرت على عقول الناس ولا تزال مسيطرة حتى اليوم . هذا وتختلف هذه العادات والتقاليد باختلاف المناسبات ، فثمة عادات تظهر فى مناسبات الأفراح والأعياد ، وهناك عادات أخرى تبرز فى حالات الأتراح والأحزان ، ومنها ما لها علاقة بالحياة الاجتماعية بصفة عامة .

ففى مناسبات الأفراح كما هو الحال فى الأعياد الدينية كعيد الأضحى جرت العادة أن يستقبل الحجاج عند عودتهم من مكة المكرمة ، وتقدم التهانى لهم بسلامة الوصول وأداء فريضة الحجاج[1] وقد يشترك الخليفة نفسه فى هذا الاستقبال . حكى فى سنة واحد وتسعين وثلثمائة أن استقبل القادر بالله أهل خراسان القادمين من الحج الذاهبين إلى المشرق[2] . وفى عيدى الفطر والأضحى تقام الولائم خاصة فى قصور الأغنياء ، وعرفت أسمطة الخلفاء والوزراء بسعتها وبكثرة كميات وأنواع الطعام التى تقدم عليها .

ومن صور الحياة أيضاً الاحتفال بختمة القرآن ، ويكون مقصوراً على الأحداث ، وتنظم بذلك المواكب ويظهرون فيها بأحسن الأزياء ويجوبون طرق المدينة ينشدون الأناشيد وقد لبسوا أفخر الثياب[3] . ثم تقام المآدب وتوزع الخلع على المقربين

---

(١) ابن الجوزى : تلبيس ص ١٤٠ — ٣٨٢ .
(٢) ابن الجوزى : المنتظم ج ٧ ص ٢١٥ .
(٣) الشبيبى : ابن القوطى ج ٢ ص ١٠٦ .

والمؤدبين ، وتقام مآدب يدعى إليها بعض العلماء وتوقد فيها النيران[١] . ويحضر أيضاً إلى هذه الاحتفالات الرجال والنساء على السواء ، من الأقارب وأصحاب المحلة[٢] . وهذه العادات كانت شائعة عند العباسيين ، واهتم بها الخليفة المستنصر بصورة خاصة فى القرن الخامس الهجرى[٣] . وكذلك عادات الاحتفال بختان الأولاد واشتهر فى التاريخ الاحتفال الذى أقيم فى ختان المعتز بن المتوكل وكذلك ختان أولاد الخليفة المقتدر إذ أنفقت أموال كثيرة فى هذه المناسبة .

وهناك احتفالات تقام فى الأعياد الفارسية مثل النوروز والمهرجان[٤] ، ويشترك فيها الناس جميعاً فى العراق إذ تتبادل الهدايا بينهم ، كما تغير الأدوات والفرش وكثير من الملابس[٥] .

ومن الطريف أن الخلفاء العباسيين أنفسهم كانوا يتوقعون أن ترسل إليهم الهدايا من حاشيتهم وموظفيهم فى جميع أنحاء المملكة عندئذ وأكثر من ذلك يطالبون بها فالمتوكل جلس فى يوم النوروز لاستقبال المهنئين واستلام الهدايا فدخل عليه الطبيب بختيشوع ابن جبرائيل وكان من المقربين له فقال له المتوكل ما ترى فى هذا اليوم ؟ فقال مثل جرباشات الشحاذين إذ ابس قدر وأقبل على ما معى . ثم أخرج من كمه درج أبنوس مضبب بالذهب وفتحه عن حرير أخضر انكشف عن ملعقة كبيرة من جوهر لمع منها شهاب ، ووضعها بين يديه فرأى المتوكل ما لا عهد له بمثله[٦] . وقد تبلغ قيمة هدايا النوروز والمهرجان للخلفاء ولعائلاتهم مبلغاً كبيراً قد يتجاوز خمسة وثلاثين ألف دينار[٧] . وهذه العادة اتبعت لدى جميع أفراد المجتمع وكما نعلم أبطلها الإسلام فى بادىء الأمر حتى جاء معاوية وقبل الهدايا ، وفى العصر العباسى أرجعت الهدايا مع الاحتفال بالعيد رسمياً .

---

(١) ابن الجوزى : تلبيس ص ٣٨٢ .
(٢) ابن الجوزى : تلبيس ص ١١٠ .
(٣) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٧١ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشا جـ ٢ ص ٤٢ .
(٥) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢٢٢ .
(٦) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ص ٢٠٧ .
(٧) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

هذا ، وقد يتهادون بالقصائد الشعرية أيضاً ، خاصة إلى من هم أعلى منهم منزلة . وهكذا فعل إسحق الصابى وهو فى سجنه ، إذ كتب إلى عضد الدولة قصيدة أرسلها إليه مع درهم خردانى وجزء من كتاب ، فكان مطلعها[1] :

تصبح بعز واعتلاء حدود … وأبشر بخير واطراد سعود

وقال :

أتتك الهدايا فيه بين موفر … على قدر المهدى وبين زهيد

وقال :

فكان احتفالى فى الهدية درهما … يطير من الأنفاس يوم ركود
وجزءاً لطيفاً ذرعه ذرع محبسى … وتقييده بالشكل مثل قيودى

وكتب إليه فى يوم نيروز فقال[2] :

تهن بهذا اليوم واحظ بخيره … وكن أبداً بالعود منه على وعد
أرى الناس يهدون الهدايا نفيسة … إليك ولم يترك لى الدهر ما أهدى
سوى سكر يحلو لك العيش مثله … وآس أخى عمر كعمرك ممتد
وبينهما من ضرب قومك درهم … وأبيات شعر من ثنائى ومن حمدى
فإن كنت ترضى مابه انبسطت يدى … وتقبله منى فهذا الذى عندى

أما حفلات التشريف — والتى اقتصرت على الخلفاء بصورة خاصة — فالعادة جرت أن يخلع الخليفة على الأمير أو الوزير والنقيب أو الوالى لإحدى المقاطعات أو غيرهم خلعاً وألقاباً . وقد عرفت عادة الألقاب أولا منذ عهد الرسول (ص) إذ لقب (ص) جماعة من أصحابه بألقاب تتفق مع ما قاموا به من الأعمال وما يتصفون بها فلقب أبى بكر (بالصديق) وعثمان (بذى النورين) وعلى (بأبى تراب) وجعفر (بالطيار) وحمزة (أسد الله) وهكذا[3] . ولم تستعمل ألقاب فى العصر الأموى حتى جاء العصر العباسى ، فسمى كل خليفة باسم واعتبرت ألقاباً دينية فأبو العباس (بالسفاح) وهارون بالرشيد وهكذا ، الباقون كالمهدى والمتوكل والمستعين والمأمون[4] و ... وغيرهم . حتى

---

(١) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٨١ .
(٢) الثعالبى: يتيمة لدهر ج ٢ ص ٢٨٢ .
(٣) الصابى ، رسوم ص ١٢٨ .
(٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٦ .

الوزراء والقواد أعطيت لهم ألقاب ؛ فالمأمون أعطى الفضل بن سهل لقب «ذى الرئاستين» ولقب المتمد صاعد بن مخلد بذى الوزارتين ، ولقب المقتدر بن الحسن ابن الفرات بولى الدولة وهكذا بقية وزراء وأمراء الدولة (١) . هذا وقد وصلت الألقاب إلى ثلاثة وأربعة ألقاب فى العصر البويهى (٢) وبصورة عامة كانت الألقاب فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تعطى لأهل التقوى والدين ولكنها تغيرت فى العصر العباسى فأصبحت تعطى لرجال السياسة وفيها تعظيم وتفخيم (٣) .

ولم يكتف العصر العباسى بمنح الألقاب ، بل أعطيت معها خلع بلغت إلى السبعة مع الطوق والسوار (٤) وأعطيت للأمير بجكم لواء (٥) وجعل أمير الأمراء ، وكذلك لابن رائق (٦) وغيرهم من الأمراء والقواد . وكانت العادة أيضاً أن يخطب على المنابر للخلفاء ويذكر اسمهم فقط ، ولكن فى القرن الرابع شارك الأمراء الخلفاء فى ذكر اسمهم مع اسم الخليفة (٧) . وكانت العادة أن تضرب الطبول والدبادب للصلوات بحضرة الخليفة (٨) فقط ثم أخذت تضرب للأمراء أيضاً . قيل أول من ضربت له الدبادب هو عضد الدولة (٩) ثم استمرت طيلة فترة حكم بنى بويه (١٠) .

أما عادات الأحزان فهى كثيرة ولا تزال متبعة حتى اليوم فى المجتمع وتبدأ عند تشييع المتوفى ؛ إذ يخرج الأهل والأصدقاء والمعارف ويسيرون خلف الجنازة (١١) ، فالمرأة تخرج وتبكى وتنشر شعرها وتلطم وتنشد الأشعار ، وهكذا فعلت عند مقتل

---

(١) الصابى ، رسوم ص ١٣١ .
(٢) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ١٦٤ .
(٣) القلقشندى ، صبح الأعشا ج ٥ ص ٤٩١ .
(٤) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ١٦٤ .
(٥) الصولى ، الأوراق ص ١٩١ .
(٦) الصولى ، الأوراق ص ٢٠٩ .
(٧) الدمشقى ، البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٩٢ .
(٨) هلال بن الصابىء رسوم دار الخلافة ص ١٣١ .
(٩) الدمشقى ، البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٩٩
(١٠) ابن الجوزى ، المنتظم ج ٧ ص ٣٤٠ .
(١١) ابن الجوزى ذم الهوى ٤٧٨ .

الخليفة المسترشد[1] وقد تخرج نائحة خاصة خلف الجنازة[2] وربما يخرج رجال من أصحاب الذكر يسيرون خلف الجنازة وهم يقومون بالتهاليل وترتيل الألحان[3].

أما بالنسبة للنصارى فيشيعون موتاهم بالنواح وضرب الطبول والنفخ بالزمور[4] ويسير الرهبان فى المقدمة ثم حاملو الصلبان والشموع ثم بقية الناس من أهل وأصدقاء ومعارف .

وفى حالة الدفن اعتاد البعض من أهل بغداد أن يدفن موتاه خارج أسوارها والبعض الآخر يدفن موتاه فى النجف الأشرف ، وهؤلاء أصحاب المذهب الشيعى وتنقل الأموات إلى هذا المقر حتى من الأماكن البعيدة ، ولا زالت هذه العادة متبعة ليومنا هذا . وذكر أن عضد الدولة الأمير البويهى نقل جثمانه إلى النجف الأشرف فى القرن الرابع الهجرى[5] وكذلك استمرت عادة قراءة القرآن على القبور لدى جميع طبقات المجتمع . حكى أن امرأة فقيرة دفعت إلى رجل رغيفاً وطلبت منه أن يقرأ عند قبر ابنها ، فقرأ «يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا ...» قالت له هكذا يقرأ عند القبور؟ فقال لها ، أيش أردت أن أقراء « متكئين على فرش بطائنها من استبرق » فى ذاك بدرهم[6] .

وعلى ذكر طريقة دفن الموتى نشير إلى عادة دفن النقود أيضاً تحت الأرض خوفاً من ضياعها : فالأمير الذى يحكم كان يحفظ أمواله فى الصحراء[7]. وهكذا كان يفعل التجار . حكى أن تاجراً قدم من خرسان متأهباً للذهاب للحج ، وبقى من ماله ألف دينار لا يحتاج إليها ، فقال إن حملتها خاطرت بها وإن أودعتها خفت مغبة المودع ، فمضى إلى الصحراء ودفنها تحت الشجرة ، وعندما عاد لم يجدها فوصل الخبر إلى عضد الدولة فاستطاع بمهارته وعمق تفكيره أن يهتدى إلى السارق[8] .

---

(١) ابن الجوزى ، المنتظم ج ١٠ ص ٤٦ .
(٢) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ج ٣ ص ٣١ .
(٣) ابن القوطى ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابقة ص ٢٣٧ .
(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ج ٧ ص ٢٦٢ .
(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ج ٨ ص ٣١٧ .
(٦) ابن الجوزى ، الظراف ص ٩٨ .
(٧) الدمشقى ، البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٠١ .
(٨) ابن الجوزى ، الأذكياء ص ٥٢ .

أما المآتم التى تقام على الأموات ، فكانت على نوعين ، منها الخاصة بالرجال والأخرى بالنساء ، يقرأ فيهما القرآن . ويختار لمجالس النساء قراء عميان أو قارئات[1] يلبس فيها الثياب ذات اللون الأسود وهى تمثل شعار الحزن .

وعلى ذكر ثياب العزاء فإن المؤرخين وغيرهم من الكتاب لم يمدونا بمعلومات وافية عن لونها ووصفها . على أننا نستطيع أن نقول أنه كان يغلب عليها اللون الأسود وذلك على ضوء ما ذكره بعض المؤرخين عن وفاة الخليفة المستنصر العباسى سنة ٦٤٠ هـ وارتداء رجال الدولة الثياب السوداء فى يوم وفاة هذا الخليفة[2] .

ومن بين التعاليم الدينية التى تمثل صور من المجتمع العراقى زيارة قبور الأئمة والشهداء من أهل البيت ، وكذلك قبر الإمام أبى حنيفة ومشهد الصحابى سلمان الفارسى . وقد زار بعض الخلفاء قبور أهل البيت ، وكانت تنفق أموال كثيرة على قبور الشخصيات التى تتمتع بصفة دينية . فالخليفة المستنصر عند زيارته لقبر الإمام موسى بن جعفر أعطى ثلاثة آلاف دينار لنقيب الطالبيين لصرفها على المعنيين فى مشهد الأئمة[3].

وفى حالة وفاة شخصية كبيرة كالخليفة أو الأمير فالحزن يعم بغداد كلها إذ تغلق الأسواق وتعلق الاقمشة السوداء على جدرانها وتقام المآتم فى كل مكان . وحدث مثل ذلك فى القرن الخامس الهجرى عند وفاة الخليفة القائم بأمر الله فأظهرت علائم الحزن لمدة ثلاثة أيام[4] على المستوى الرسمى والشعبى ، وكذلك عند وفاة الأمير البويهى عضد الدولة .

هذا وقد يظهر أصحاب المذهب الشيعى الحزن الشديد فى ذكرى استشهاد الإمام الحسين يوم عاشوراء[5] ولا تزال عادة إظهار الحزن مستمرة فى العراق حتى الوقت الحاضر .

---

(١) السفطى ، ص ٦٨ .
(٢) ابن الجوزى ، المنتظم ج ٨ ص ٢٩٥ .
(٣) ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة ص ١٠٤ .
(٤) بن الجوزى ، المنتظم ج ٨ ص ١٦٥ .
(٥) ابن الجوزى ، المنتظم ج ٧ ص ١٥ .

وهناك صور أخرى تمثل نواحى الحياة فى المجتمع ، نذكر منها شيئاً فيما يخص الطعام واللباس وبعض الأمور الأخرى ؛ فمن العادات المتبعة عند الطعام ولا تزال خاصة عند طبقة المتدينين — هى غسل الأيدى قبل الطعام وبعده ويكون فى وعاء واحد[١] يسمى بالطشت[٢] ويبدأ رب البيت بالغسيل[٣] ويذكر متز أن العادة جرت أن يبدأ الغسل من جهة اليسار حتى ينتهى بصاحب البيت[٤] ، بينما يغسل يديه بعد الضيوف عند الانتهاء من الطعام[٥] ويستعمل عادة الاشنان فى الغسيل[٦] ويذكر كشاجم أن عامة الناس تعودوا على إجلال رؤسائهم وخلفائهم لعدم غسل أيديهم بحضرتهم وأجازوا ذلك مع نظرائهم ليكون بذلك (٧) ألبق . حكى أن القائد الافشين أكل عند الخليفة المعتصم يوماً وبعد الانتهاء من الطعام غسل يديه بحيث يراه المعتصم فأزعجه بهذا التصرف[٨] . هذا وبعد الغسيل تنظف الأسنان . حكى أن المأمون كان يصرف ساعتين كل يوم يستمع فيهما للشعراء أثناء تنظيف أسنانه ، كما يستعمل السواك لتنظيف الأسنان[٩] .

هذا ، وقد اهتم الكتاب بآداب الطعام ، فكتب الغزالى خمسة قواعد لآداب الطعام[١٠] وكذلك كشاجم[١١] كتب فى هذا الموضوع إضافة إلى عدد كبير من الكتاب والمؤرخين من اهتم بذلك ، فالخطيب البغدادى ذكر أنه بعد الانتهاء من الطعام على صاحب الدعوة أن يبخر المدعوين[١٢] وعلى المدعوين أنه يشكروا صاحب

---

(١) كشاجم ، أدب القديم ص ٢٧ .

(٢) الهمذانى ، مقامات ص ١٣٥ .

(٣) الغزالى ، إحياء ج ٢ ص ١٦ .

(٤) كشاجم ، أدب القديم ص ٢٧ .

(٥) الغزالى ، إحياء ج ٢ ص ٧ — الأزدى حكاية بن القاسم ص ٤١ .

(٦) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٧) كشاجم ، أدب القديم ص ٢٧ .

(٨) دم متز ، لحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٩) الأزدى ، حكاية ص ٤١ — الغزولى ، مطالع البدور ج ٢ /٦٨ .

(١٠) الغزالى ، إحياء العلوم ج ٢ ص ١٦ — ١٨ .

(١١) كشاجم ، أدب القديم ص ٢٧ .

(١٢) الخطيب ، التطفيل ص ٨٦ .

الدعوة عند مغادرتهم للبيت[1] . هذا وهناك عادات كثيرة جداً فى الأصول وقواعد الطعام لا مجال لذكرها هنا خاصة بموائد الخلفاء ورجالات الدولة .

أما عادات اللباس فهى كثيرة أيضاً فلكل طبقة زى خاص بها . فالخلفاء اتخذوا السواد[2] ولا يمكن تغييره لأنه أصبح شعاراً لدولتهم وكذلك الوزراء وغيرهم من الداخلين لدار الخلافة عليهم أن يتخذوا الأقبية السوداء لباساً لهم[3] وحتى محضرون مجالسهم لبست الأثواب المصبغة الزاهية الاحمرار والاصفرار والاخضرار يصقلونها حتى تلمع[4] . وفى المواكب تتخذ أثواب خاصة بها أيضاً[5] وجرت العادة أن يلبس القضاة والفقهاء المبطنة والطيلسان الأسود والدراعة السوداء والقلانس المستديرة حتى أبدلت بعد ذلك بالعمائم السود المصقولة[6] .

ومن التقاليد والعادات العائلية فى ذلك الوقت والتى استمرت حتى يومنا هذا لدى بعض الناس هى أن لا تخرج المرأة كاشفة الوجه أو حاسرة الرأس فى الطرقات — فعليها أن تغطى وجهها[7] وأن تتخذ التحفظ والاحترام والحشمة والابتعاد عن الرجال الغرباء عند حضورها مجالس الوعظ[8] وفى الذهاب للحمام أو الأسواق[9] .

وكان للزواج عادات وتقاليد سيطرت على المجتمع ومع أنها قد تسبب مشاكل ومصاعب للأسرة ، لكن ليس من السهل تغييرها أو إزالتها من عقول الناس . فمن هذه التقاليد التى أصبحت عادات بعض الزمن ، « الخطبة » التى اتبعت فيها طريقتان : إحداهما تتم بالتفاهم بين الرجل والمرأة مباشرة[10] وهذا نادرالحدوث ،

---

(١) الغزالى ، إحياء ج ٢ ص ٥ .

(٢) الصابى ، الوزراء ص ٢٦١ .

(٣) الصابى ، رسوم ص ٩١ .

(٤) الوشى ، الوشاء ص ١٨٣ التمدن ج ٥ ص ٨٣ .

(٥) جلالة الصابى ، رسوم ص ٩٠ .

(٦) الاصبهانى ، ج ٥ س ٣٩٠ .
(انظر مقالة عن الملابس لصاحبة المقال نشرت فى المجلد الثالث عشر سنة ١٩٦٧ من المجلة التاريخية المصرية) .

(٧) الغزالى ، إحياء العلوم ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٨) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ج ١٢ ص٧٦ .

(٩) الماوردى الأحكام السلطانية ص ١٢٣ أو ٢٢٢ .

(١٠) ابن الجوزى ، ذم الهوى ص ٣٦٦ — ٣٦٨ .

حتى خلال القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة حيث انتشرت الجوارى وانحطت منزلة المرأة .

أما الطريقة الثانية وهى المتبعة لدى جميع طبقات المجتمع فهى جعل الخطبة عن طريق الوساطة ، وذلك بأن يعهد إلى سيدة من الأقارب أو من صديقات الأسرة بالذهاب إلى أهل الفتاة لطلب يدها[١] . وكان من مستلزمات الزواج الصداق ، وقد جرت العادة بأن يكون نقداً ، وكان مقداره يختلف حسب طبقات المجتمع ؛ فالأثرياء يقدمون صداقاً كبيراً ، يتناسب مع ما يملكون من ثروة[٢] . وكانت طبقة العامة تحرص أيضاً على تقديم الصداق بقدر ماتستطيع[٣] . وهذا دليل على أن هذه العادة كانت مسيطرة على عوائل المجتمع .

ومن العادات التى كانت تراعى فى الزفاف أن تزف المرأة إلى بيت الرجل[٤] حيث يقام احتفال ووليمة ينفق عليها الزوج حسب إمكانياته[٥] . وقد يشترك مع المدعوين أشخاص يحضرون بدون دعوة ، يعرفون بالطفيليين ، والظاهر أنها عادة متبعة فى المجتمع ، ويسمى الواحد منهم بطفيلي العروس ، ولا يجسر أحد من المدعوين أن يطلب منه الخروج . ويحكى أن طفيلياً أوصى ابنه إذا دخلت عرساً فلا تلتفت تلفت المريب وتخير المجالس ، فإن كان العرس كثير الزحام فلا تنظر فى عيون أهل المرأة ولا فى عيون أهل الرجل ليظن هؤلاء أنك من أهل هؤلاء . فإن كان البواب غليظاً صلفاً فابدأ به ومره وانهه من غير أن تعف به وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال[٦] .

وجرت العادة عند الأمراء والطبقات الثرية أن ينثر على الحضور النقود الذهبية والفضية والحلويات فى حفلات الزفاف وقد عرف ذلك بالنثار . وتجلت هذه المظاهر

(١) ابن الجوزى ، الأذكياء ص ٤٢٨ .
(٢) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ١٤٩ .
(٣) ابن الجوزى ، الأذكياء ص ٧٧ .
(٤) الثعالبي ، ثمار القلوب ص ٣١٩ — ٣٢١ .
(٥) ابن الجوزى ، الأذكياء ص ١٨٢ .
(٦) ابن الجوزى ، الأذكياء ص ١٨٣ .

فى حفلى زواج زبيدة بهارون الرشيد وبوران بالمأمون[١] . وظلت عادة النثار متبعة طيلة العهد العباسى[٢] فشوهدت فى حفلى ختان المعتز بن المتوكل[٣] ، وأولاد المقتدر ، حتى قيل إن النفقات بلغت فى يوم ختان أولاد هذا الخليفة ستمائة ألف دينار ، حيث وزعت دراهم وكسوة[٤] . وقد اتبع سائر الناس عادة النثار وصاروا فضلا عن ذلك يقدمون الهدايا إلى العروس فى صباح يوم زواجها . وتسمى بالصبحية . قيل سئل أحد بعد أن زفت له امرأة قبيحة عماذا تصبحها قال بالطلاق[٥] .

وكان أغلب هذه العادات متبعاً لدى كثيرين من أفراد المجتمع العراقى ، ولم يختلف عنهم بصورة واضحة سوى طائفة الصابئة ، ففى الزواج كانوا كالمسلمين يتبعون نظام الخطبة عن طريق أحد الوسطاء من الأقارب أو المعارف ، ثم يقوم علماء الدين بعقد القران ، ويقدم الصداق حسب ثروة الزوج . وتنقل العروس إلى مكان خاص قرب النهر تجرى فيه مراسيم الزواج بإشراف علماء الدين وعلى رأسهم الفقيه . وقد جرت العادة عند الصابئة أن يحتفل بتعميد العروسين عند زواجهما فيرتديان ملابس خاصة ويجلسان على حافة النهر ، ثم تغطس رأسيهما ثلاث مرات ، ويرش الماء على جسديهما ويتناول كل منهما ثلاث جرعات من الماء ثم يرتديان ملابس أخرى ويعودان إلى دراهما ، وهناك تجرى طقوس دينية يتولاها أحد علماء الصابئة ، يتناول بعدها العروسان نوعاً خاصاً من الطعام يتكون من الجوز والتمر والزيت والكشمش والملح والبصل ، وبعد الانتهاء من هذه المراسيم يصبح الزواج مقبولا[٦] .

---

(١) الشابشتى ، الديارات ص ١٠٠ و ١٠١ .
(٢) محمد رضا الشبيبى ، مؤرخ العراق ابن الفوطى ج ٢ ص ٩٧ .
(٣) الشابشتى ، الديارات ص ١٠٠ .
(٤) ابن الجوزى ، المنتظم ج ٧ ص ١٢٧ .
(٥) ابن الجوزى ، أخبار الظراف ص ٨٩ .
(٦) عبد الرازق الحسنى ، الصابئون ص ١٠٢ — ١٠٤ .

حركة التوفيق ١٤١٤ — ١٤٤٩ ودلالاتها السياسية

Conciliar Movement 1414-1449

تكاد تكون الحركة التاريخية التي قامت داخل الكنيسة الكاثوليكية في مطلع القرن الخامس عشر ، والتي يطلق عليها المؤرخون اسم حركة التوفيق ، مثالا نموذجياً للعلاقة الوثيقة بين علمي التاريخ والسياسة ؛ فهي من ناحية حدث تاريخي هام لا يستطيع إغفاله الباحث التاريخي في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ البشرية ، فترة نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث . ومن ناحية أخرى لا يستطيع الباحث في علم السياسة أن يغفل أهميتها عندما يتعرض لجوهر هذا العلم — وهو السلطة — سلطة الحاكم وسلطة أجهزة الحكم — وحدودها ومصدرها ، أو عندما يتناول مفهوم الدستورية ومؤسساتها وتطورها . إذ أننا عندما نذكر أن الكنيسة الكاثوليكية كانت طوال عشرة قرون تقريباً تستوعب المجتمع المسيحي الأوروبي كله وأن سلطة البابوات — الدينية والسياسية — كانت سلطة عليا لا تعلوها ولا تساويها سلطة أخرى في أوروبا ، ندرك على الفور أن تلك الحركة التي استهدفت الحد من هذه السلطة ومناقشة مصدرها لا بد أن تكون ذات أثر بالغ في تطور الفكر السياسي .

وقد قامت عدة حركات تستهدف تغيير الطابع المطلق لسلطة البابا ، وفشلت جميعها . ولكنها رغم فشلها تعتبر من علامات الطريق الرئيسية في تطور مفهوم السلطة . وكانت حركة التوفيق أولى هذه الحركات ، وأهمها وأبعدها أثراً . ونحن نعلم أن الأفكار السياسية التي سيطرت على الجنس البشري ، وانقسم حولها الجنس البشري ، ابتداء من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر ، مثل فكرة السيادة ونظرية الحق الإلهي المقدس للملوك ، ومفهوم حقوق الإنسان ومبدأ الدستور الذي يقيد الحاكم لمصلحة الشعب ، كلها وجدت بذورها في العصور الوسطى كما يقول الأستاذ ميتلاند[1] .

---

(١) في مقدمة للترجمة الإنجليزية لكتاب العالم الألماني أوتوجيركه ، النظريات السياسية في العصور الوسطى «Political Theories of the Middle Ages» ص ٧١١ .

ولا ريب فى أن التغييرات الضخمة التى حدثت فى أوروبا فى أواخر العصور الوسطى مست الفكر السياسى بأوضح صورة فى التنظيم الكنسى ، وأن الجهود التى بذلت فى حركة التوفيق للحد من سلطة البابا بواسطة مجلس يمثل المجتمع المسيحى أثارت ، كما يقول عالم سياسة آخر(١) « مبادىء عامة استخدمت فيما بعد فى تقويض سلطة الملوك ، واستبدالها بسلطة البرلمانات النيابية » وفى أن مرسوم مجلس كونستانس (الذى تبدو فيه الأهمية القصوى لحركة التوفيق) يمثل ذروة جهود العصور الوسطى فى التخلص من النموذج الرومانى للسلطة التى يمارسها فرد واحد (Caeserism) وخلق هيئة نيابية تقوم على أساس شعبى ، ويعد استباقاً واضحاً للصراع الذى قام فيما بعد داخل الدولة الإقليمية بين الحكم المطلق والحكم الدستورى .

وليس هناك ما يدعو إلى التعجب فى هذا الترابط الوثيق بين سلطة البابا بوصفه رأس الكنيسة المسيحية ، وهى أولا وقبل كل شىء مؤسسة دينية ، ومفهوم السلطة السياسية الحديث . إذ لم يكن لفظ « الكنيسة » فى العصور الوسطى يعنى فى الواقع مجرد الجهاز الكنسى وما يتصل به من أمور روحية ودينية ، بل كانت الكنيسة شيئاً أكبر وأشمل من ذلك بكثير . فمنذ أن بدأت الإمبراطورية الرومانية فى الانهيار بدأت المسيحية تقوى ، وفى نهاية القرن الرابع الميلادى أصبحت الدين الرسمى الوحيد للامبراطورية . وعندما تحطمت الإمبراطورية الغربية نهائياً فى القرن التالى لم يعد هناك سوى الكنيسة ، برئاسة أسقف روما ، من يقوم بدور السلطتين معاً — الدينية والدنيوية — مستقلا عن كل سلطة سياسية (٢) . وصارت الكنيسة مع الوقت مصدر السلطة الوحيد فى أوروبا كلها ، كما أصبحت المسيحية هى الرابطة الوحيدة التى تجمع بين تلك الشذرات الصغيرة التى انقسمت إليها القارة الأوروبية

---

(١) لورانس وانلاس « Gettell's History of Political Thought » (ط ٢ — لندن ١٩٥٩) ص ١٣٩ .

(٢) فيما يتصل بوضع أسقف روما قبل نشوء مؤسسة البابوية ، انظر مثلا ، كرستوفر دوسن ، « تكوين أوروبا » — ترجمة د. مصطفى زيادة و د. سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٦٧) ص ٢٣٥ .

بعد انهيار الإمبراطورية . وقد تأكد هذا الوضع للكنيسة ورأسها عندما توج البابا أحد كبار رؤساء قبائل الفرانك ملكا على فرنسا فى القرن الثامن . وتأكد مرة أخرى عندما سعى شرلمان للحصول على اعتراف الكنيسة به خليفة للامبراطور الرومانى . واعتبر ذلك فى الحالتين منحاً للسلطة الزمنية من الكنيسة إلى الحاكم الزمنى بمقتضى نظرية « السيفين » — سيف السلطة الدينية وسيف السلطة الزمنية — اللذين يتلقاهما خليفة بطرس الرسول من الله ليستبقى أحدهما ، وهو سيف السلطة الدينية ، ويمنح الآخر للحاكم الزمنى . وقد ظلت الكنيسة طوال قرون الفوضى التى أعقبت انهيار روما هى المستودع الوحيد للقيم القديمة فيما يتصل بالسلطة العامة والنظام فى المجتمع الأوروبى ، وحافظت بذلك على هذه القيم فى مواجهة عوامل التحلل الإقطاعى .

وكان الجهاز الكنسى نفسه فى أول الأمر منظما على أساس محلى وديموقراطى إلى حد كبير، بحكم نشأتها كمذهب ينتشر سراً فى مواجهة ضروب الاضطهاد والتحريم من جانب الدولة — الإمبراطورية . وعندما صارت المسيحية الدين الرسمى للدولة أصبح الإمبراطور، بحكم مفهوم الحكم السيادى المطلق Imperium السائد فى القانون الرومانى ، هو السلطة العليا فى الشئون الدينية ، وتبع تنظيم الكنيسة التنظيم المركزى للدولة الرومانية (١) . وفى أوائل القرن الخامس الميلادى وضع سانت أوجستين فى مؤلفه « مدينة الله » City of God مفهومه عن المجتمع المسيحى ، الذى ظل يعتبر المفهوم السائد فى الفكر الأوروبى طوال العصور الوسطى ؛ فالمجتمع المسيحى واحد مصيره أن يضم العالم كله : هو « مملكة المسيح » Christendom التى « يحكمها الله نفسه ، شعب واحد متصل الأطراف يتجسد دينياً ودنيوياً فى الكنيسة الكلية الشمول Universal Church . ومن ثم فإنه — لكى يحقق أهدافه — يتطلب حكومة واحدة وقانوناً واحداً »(٢) .

---

(١) وانلاس ، المرجع السابق ص ٥ — ٩٩٤ .

(٢) أوتوجيركه « Political Theories of the Middle Ages » الترجمة الإنجليزية — فردريك ميتلاند (نيويورك ١٩٥٨) ص ١٠ .

هذا هو مفهوم « الكنيسة ـ الدولة » التى حلت محل « المدينة ـ الدولة » و « الدولة ـ الإمبراطورية » فى الفكر السياسى فى العصور الوسطى : مفهوم « جمهورية المسيح » Respublica Christiana ، التى ظلت تجسد وحدة أوروبا المسيحية دينياً وسياسياً حتى نهاية العصور الوسطى تقريباً .

ولم تكن الكنيسة — بهذا المعنى — دولة بين عدة دول ، بل كانت « الدولة » الوحيدة ، وكانت التنظيمات المدنية ـ التى اتخذت فيما بعد صورة « ممالك » ـ هى مجرد أجهزة الشرطة فى الكنيسة كما يقول ما تنجلى[1] لقد ألقيت على عاتق الكنيسة فى العصور الوسطى مهمة ضخمة ، هى المحافظة على كيان المجتمع الأوروبى من الإنهيار الكامل والتحول الى مجموعات متقاتلة من القبائل البربرية التى انحدرت على أوروبا من أواسط آسيا[2]. وبحكم ضخامة هذه المهمة ، وكذلك بالجهود المتعمدة من جانب زعماء الدين المسيحى ، صارت الكنيسة أكبر المؤسسات السياسية فى العصور الوسطى . ولم يكن هدف الكنيسة فى هذه الحقبة المظلمة من تاريخ أوروبا أن تكون مجرد شيعة دينية ، بل أن تؤلف حضارة كاملة على أنقاض الحضارة الرومانية المنهارة وفى مواجهة الجحافل الزاحفة من القبائل البربرية الوثنية . إنها كانت ، كما يقول الأستاذ تونى فى مؤلفه العمدة « تضم الحياة بكل جوانبها ، وكانت سلطتها نهائية »[3] .

ومن الناحية التطبيقية كانت الكنيسة الكاثوليكية أول مؤسسة عامة فى أوروبا

---

(١) جاريت ما تنجلى فى مقدمة كتاب ج. ن. فيجيس « Political Thought from Gerson to Grotius » (لندن ١٩٦٠) .

ويقول جيركه ، المرجع السابق ص ١٣ « لم يكن النظام الزمنى فى نهاية المطاف سوى إحدى مؤسسات الكنيسة » .

(٢) يقول دوسن ، المرجع السابق ص ١١٤ ، إنه « عندما حل الانهيار بالحكومة الإمبراطورية فى الغرب غدا الأسقف الزعيم الطبيعى لسكان الرومان ؛ فهو الذى رتب وسائل الدفاع عن مدينته ، وهو الذى فاوض . زعماء البرابرة » .

(٣) «الدين ونشأة الرأسمالية» (Religion and the Rise of Capitalism) (لندن ١٩٥٨) ص ٢٨ .

يكون لها جهاز منظم متدرج السلطات ومحاكم ذات اختصاص على درجات وقوانين مكتوبة(١) ، وكان لها أول أسلوب منظم فى فرض الضرائب وتحصيلها . وكانت أول مؤسسة دولية ، بعد انهيار الإمبراطورية ، لها وزارة خارجية وسلك دبلوماسى. وكان لها أول جيش يحارب ، لا تحت شعار شخصى لأحد لوردات الإقطاع ، ولكن تحت شعار هيئة دائمة لا شخصية . وبالاختصار كانت للكنيسة فى العصور الوسطى كل السمات تقريباً التى تميزت بها فيما بعد الدول عندما نشأت . بل أكثر من ذلك، لقد صار الانتساب « لمملكة المسيح » نوعاً من الجنسية : نوعاً من المواطنة شرطها الأساسى هو التعميد ويقابله من الناحية الأخرى قرار الحرمان excommunication الذى يفقد المرء صفة المواطن . فالمجتمع الأوروبى كان ، نظرياً وعملياً ، هو الـ Respublica Christiana . وكان من الطبيعى أن تكون الكنيسة أول منظمة تواجهها المشاكل الدستورية الكبرى التى واجهتها الدولة الإقليمية بعد ذلك ؛ إذ أن هذا المجتمع الواحد كان يقوم فيه ، بحكم تكوينه وظروف قيامه ، مؤسستان لكل منهما وظيفتها ، وكلاهما تستمد سلطتها من الإرادة الإلهية ؛ إحداها لتحقيق المصير الدنيوى للانسان ، والأخرى لإعداده للمصير الأخروى : الكنيسة والإمبراطورية الرومانية المقدسة . وكان البابوات يدعون دائماً أنهم على قمة هذا المجتمع ، ومن ثم فإن المؤسستين تدينان لهما بالتبعية . ولم يواجه هذا الادعاء تحدياً فى صدر العصور الوسطى ، ولكن الأباطرة بدأوا منذ القرن العاشر يعارضون دعوى البابوات ، ويعرف دارسو التاريخ الوسيط الأهمية الكبرى التى يحتلها النزاع بين البابوات والأباطرة .

ولكن يجدر بنا أن نشير هنا إلى حقيقة أساسية لا يمكن فهم الأوضاع فى أوروبا بدونها ، هى أن الخلاف بين هاتين المؤسستين كان بمثابة اختلاف حول حدود الاختصاص والأسبقية . بينهما باعتبارهما جهازين فى منظمة كبرى واحدة — كما نرى اليوم فى أجهزة الحكومة المختلفة — ولا يشبه فى شىء الخلاف بين دولتين

---

(١) لم تشمل الإمبراطورية الرومانية فى أى وقت من الأوقات سوى الجزء الجنوبى والغربى من أوروبا ، إذ كانت جيوشها تقف فى زحفها دائماً عند حدود الأنهار الكبرى فى وسط القارة .

أو منظمتين كل منهما مستقلة عن الأخرى وتتمتع « بسيادة » فى مواجهتها . فالمجتمع الأوروبى كان يقوم على مفهوم « الوحدة » المسيحية الأساسى الذى يتضمنه مفهوم « مدينة الله » ولا يسمح بقيام مؤسستين مستقلتين داخله .

ولما كان مصدر السلطة هو الله فإن رجال الدين ، باعتبارهم مفسرى إرادته ، كانت لهم اليد العليا فى المجتمع المسيحى واستطاعوا أن يفرضوا عليه مفهوم سيادة Sovereignty الجهاز الكنسى الذى يمثل السلطة الروحية . ومما ساعدهم على ذلك أن فقهاء القانون الرومانى الذين كانوا يكرسون جهودهم الفقهية لخدمة الإمبراطورية لم يجدوا أمامهم بعد انهيارها سوى الكنيسة يستنفدون طاقاتهم فى خدمتها ، فعملوا مع رجال الدين على بلورة هذا المفهوم السيادى الجديد . وفى بداية الحقبة الثانية من العصور الوسطى صار البابوات ، وبخاصة منذ عهد جريجورى السابع ١٠٧٣م ، يعتبرون أنفسهم الرأس السيادى للمجتمع المسيحى ويتمتعون بسلطة سيادية شاملة مطلقة Plenitudo Potestatis . فيصدر البابا أنسونت الثالث مثلا مرسوماً بابوياً فى مطلع القرن الثالث عشر يحدد به صفة السلطة التى يمارسها البابا — سلطة فريدة أعلى من أية سلطة أخرى وتختلف عنها فى النوع . ويقول ساباين أن هذه السلطة مما لا يمكن تصوره إلا على أساس مفهوم السيادة Sovereignty الذى تبلور فيما يتصل بالدولة بعد ذلك بعدة قرون على يد جان بودان(١) . فهى لا تشبه فى شىء نوع السلطة التعاقدية المعروفة فى العصور الوسطى بين الامبراطور وأمراء الإقطاع مثلا ، أو بين الأمراء وأتباعهم من الفرسان ، أو حتى بينهم وبين رعاياهم .

ونستطيع أن نتصور المفهوم الذى تنطوى عليه هذه السلطة من وصف أحد مفكرى العصور الوسطى ممن شاركوا فى الصراع الفكرى الذى ثار بسبب النزاع بين البابا بونيفاس الثامن وفيليب الرابع ملك فرنسا فى أواخر القرن الثالث عشر . يقول انجيديوس كولونا عن السلطة البابوية إنها « قوة مستقلة تحرك ذاتها » (ونحن نجد هذا الوصف ذاته عند كثيرين من الكتاب المتأخرين فيما يتصل بمفهوم السيادة

---

(١) ج . سابابن « History of Political Theory » (نيويورك ١٩٦١) ص ٢٧٢ .

الحديث بعد ذلك بقرون) ، ثم يقارن هذه السلطة بسلطة الإمبراطور فى القانون الرومانى الذى كان يعتبر إرادة الحاكم هى مصدر حجيته القانون وشرعيته [1] . ولم يكن مثل هذا التصور قد عزى إلى أى من الحكام والأمراء الزمنيين الفيوداليين فى ذلك الوقت ، ولكننا سرعان ما سنراه مكملا للسلطة الملكية المطلقة التى خلقتها الظروف الأوروبية مع « الدولة الإقليمية » ذات السيادة المطلقة .

ولعل ما يثير التساؤل هنا هو كيف تسرب إلى فكر العصور الوسطى هذا المفهوم — بعد أن اندثر قروناً بانهيار الإمبراطورية — وقد اكتسب سمات جديدة تماماً يعتبرها بعض علماء السياسة اليوم المعيار المميز للدولة الحديثة . ولماذا ارتبط بالكنيسة ورأسها ، دون أية مؤسسة أخرى من المؤسسات الأوروبية فى العصور الوسطى كالإمبراطورية الرومانية المقدسة .

لقد كان التاريخ الأول للكنيسة يتضمن وجود ما يسمى « بالمجلس العام » General Council الذى يتألف من كبار رجال الدين وعدد من « المؤمنين » من غير رجال الدين Laity . ورغم أن طابع هذه المجالس كان استشارياً بالنسبة للسلطة البابوية إلا أنها كانت تضفى على التنظيم الكنسى نوعاً من الطابع الديموقراطى باعتبار أنها تمثل صوت المجتمع المسيحى كله فى ما يسوده من آراء . وقد ورثت الكنيسة هذا الطابع عن مفهوم الحكم عند الإغريق فى الغالب — إذ أن الدين المسيحى فى ذاته لا يتضمن مثل هذا المفهوم ، كما أن نشأته الأولى كانت فى الشرق حيث كان يسود مفهوم واحد للحكم هو الحكم الملكى المطلق المستند إلى السلطة الدينية . إلا أن العصور الوسطى ورثت مفهومين آخرين عن الحكم : أحدهما كان التركيز الأساسى فيه على القانون والنظام والوحدة ، وهو المفهوم الرومانى الذى أدى إلى بلورة فكرة السلطة المركزية Imperium والحكم الفردى المطلق المتجسد فى القيصرية Caeserism . والآخر كان يتمثل فى مؤسسات الحكم لدى القبائل الجرمانية الغازية ودور مجلس رؤساء العشائر Diet فيه . إلا أن هذا المفهوم الأخير لم يكن له أثر مباشر فى الفكر السياسى الأوروبى ككل إلا فى

---

(١) أوردها ساباين ، المرجع السابق ص ٢٧٩ .

أواخر العصور الوسطى ، وهو أثر سنراه بوضوح عندما نتحدث عن الموفقين Conciliarists ، وبالتالى لم يكن له أثر فى الأفكار التى قام عليها التنظيم الكنسى فى المراحل الأولى التى اتسم فيه هذا التنظيم بطابع ديموقراطى من نوع ما .

وعندما نتتبع التطور التاريخى للمؤسسات الأوروبية فى العصور الوسطى نجد الاتجاهات المركزية قد بدأت تظهر بصورة واضحة فى الكنيسة ابتداء من القرن التاسع الميلادى : وتتجسد هذه الاتجاهات بوضوح فى حركتين قامتا داخل الكنيسة حوالى ذلك الوقت : الأولى هى الحركة التى لعبت فيها تلك الوثائق التاريخية ، التى عرفت باسم «مراسيم إيزيدور المزورة» Pseudo Isidorian Decretals ، دوراً كبيراً فى منتصف القرن التاسع . والثانية حركة أديرة كلونى الإصلاحية فى أوائل القرن العاشر . وكان هدف الحركتين على السواء هو تحرير الأساقفة فى مختلف أنحاء أوروبا من سلطة كبار الأساقفة Archbishops وربطهم بالتبعية المباشرة للبابا فى روما . إذ أن كبار الأساقفة كانوا قد تحولوا ، بامتلاكهم مساحات واسعة من الأرض ، إلى أمراء إقطاعيين يرتبطون بالحكام الزمنيين بروابط ومصالح عديدة ويدينون لهم بالولاء الفيودالى بحيث صارت السلطة الفعلية على شئون الكنيسة فى كل إقليم للحاكم الزمنى . وعمت الشكوى داخل الأجهزة الكنسية ضد هذه الأوضاع وبخاصة بعد أن تحول كثير من كبار الأساقفة إلى مجرد أدوات فى يد الملوك ، بل وقد بدأ هؤلاء الملوك فى ادعاء حق تعيين كبار الأساقفة فى أقاليمهم .

وكان من نتائج هاتين الحركتين تركيز الشئون الكنسية فى يد البابوات وتأكيد المسئولية المباشرة من جانب الأساقفة أمامهم وإبعاد تأثير الحكام الزمنيين على أجهزة الكنيسة .

وفى أوائل القرن الحادى عشر تركزت كل السلطة — فى المجتمع المسيحى ، نظرياً وعملياً — فى يد البابا الذى صار يعتبر فوق كل الملوك والحكام فى أوروبا . فنرى الصراع بين الإمبراطور هنرى الرابع والبابا جريجورى السابع ينتهى بخضوع الإمبراطور تماماً للبابا فى كانوسا (١٠٧٧) — ومنذ ذلك الوقت صار مصطلح «الذهاب إلى كانوسا» تعبيراً سائداً للدلالة على الخضوع الكامل للكنيسة . ونرى

الإمبراطور فردريك بارباوسا يحنى رأسه أمام البابا اسكندر الثالث . ولم يعد فى أوروبا المسيحية فى ذلك الوقت سوى مصدر واحد للسلطة السيادية الشاملة — فى الدين كما فى السياسة — هو البابا . فبأمر من البابا أنوسنت الثالث اتخذ ملك فرنسا زوجة ، وقبل ملك إنجلترا أسقفاً لا يريده ، وتنازل أحد الطالبين بعرش هنغاريا لخصمه ، واعترف ملوك انجلترا واراجون والبرتغال بالبابا أميراً أعلى Feudal Overlord فى ممالكهم[1] .

وسارت الأمور فى « مملكة المسيح » على هذا النسق أكثر من قرنين ، ولكننا لا نلبث أن نرى الصورة تختلف فى أوائل القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ؛ فنرى ملكى انجلترا وفرنسا يفرض كل منهما إرادته على البابا داخل مملكته . بل إننا لا نلبث أن نرى البابا أسيراً لملك فرنسا فى أفينيون (الأسر البابلونى) .

ولم يحدث ذلك دون مقدمات ، ونستطيع أن نبين من التاريخ الأوروبى العام فى هذه الفترة سببين أساسيين لهذا التحول : أحدهما ظهور نظام اقتصادى جديد لا تلائمه الأوضاع القائمة ، والآخر ثورة فكرية عامة تناولت جميع المفاهيم والقيم والمعايير التقليدية بالنقد والفحص والتأمل .

ففى القرون الأربعة الأخيرة من العصور الوسطى نما النشاط الاقتصادى — التجارى أساساً — نمواً كبيراً وظهرت أساليب جديدة فى التعامل كان روادها كبار التجار الذين ازدهرت على أيديهم المدن الإيطالية ومدن بحر البلطيق . ومن ناحية أخرى كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة — جهاز الشرطة الرئيسى فى أوروبا المسيحية — قد أصابها الوهن ، وصارت أوربا مسرحاً لمئات الصدامات المسلحة بين أمراء الإقطاع وفرسانه . وهى الصدامات التى عرفت باسم حرب البارونات . بالإضافة إلى ذلك الصراع الكبير الذى استمر قرابة مائة عام بين انجلترا وفرنسا ، مما أدى إلى انتشار الفوضى وانهيار مفهوم السلطة إلى حد كبير ؛ وقد أحاق الخراب والدمار بمساحات شاسعة فى أوروبا وانتشر الوباء الذى عرف باسم « الموت الأسود » وأطاح بنسبة ضخمة من السكان .

---

(١) ول ديورانت « The Story of Civilization » VI « The Reformation » (نيويورك ٥٧) ص ٣٧ .

وفقد الناس ثقتهم فى المعايير التقليدية التى عاشوا فى ظلها آمنين قروناً ، وضعف إيمانهم بالكنيسة كوسيلة للخلاص ، وبدأت أوربا تشهد نوعاً من الثورات لم تعرفه طوال خضوعها لسيطرة الكنيسة ظهر فيها نوع من التمرد الطبقى يذكرنا بثورات الرقيق فى روما ، مثل تمرد الرعاة Pastouraux فى فرنسا عام ١٣٥١ وتمرد الفقراء Poor Men فى انجلترا فى ١٣٨٠ وتمرد الفلاحين من أتباع هاس فى ألمانيا حوالى ذلك الوقت . ونحن لا نستطيع أن نعزو هذه التمردات إلى أفكار وايكليف فى انجلترا وهاس فى بوهيميا فقط كما يذهب بعض الدارسين .

لقد بدا واضحاً أن الاستقرار الفيودالى قد تحطم وأن النظام الاجتماعى فى فى أوروبا أخذ ينهار من أساسه .

إذ رغم أن الكنيسة لجأت إلى إثارة الحروب الصليبية لإفراغ الطاقات القتالية لدى البارونات وملوك الإقطاع ، فإنها لم تعد قادرة على توفير السلام والنظام اللذين كان يتطلبهما نمو النشاط الاقتصادى ، وأساليب التعامل الجديد ، ولم يعد فى الإمكان كما يقول جتل ، استمرار الأفكار الفيودالية الخاصة بالدولة المسيحية العالمية بأى حال(١) .

إن فردريك إنجلز ، فى « حرب الفلاحين فى ألمانيا » ، يرى أن حركة وايكليف فى انجلترا وهاس فى بوهيميا تمثلان فى الواقع تمرد تجار المدن الجديدة ضد الكنيسة وما تمثله من أوضاع فيودالية(١) . وقد لا يكون تجار المدن هم وحدهم حقيقة قواد هذه التمردات والدافع المباشر لها ، رغم أنهم دعموها واشتركوا فى توجيهها فى كثير من الحالات ، ولكن الأمر الذى يفرضه علينا أى تفسير سليم لوقائع التاريخ وتطوراته هو أن النظام الذى يمثله هؤلاء التجار ما كان يمكن أن يتفق ويزدهر — أو حتى أن يعيش — فى ظل الأوضاع القديمة .

كان التطور الاقتصادى أحد عاملين رئيسيين فيما طرأ على النظام الاجتماعى

---

(١) المرجع السابق ص ١٣ .

(٢) فردريك إنجلز ، « حرب الفلاحين فى ألمانيا » Peasant War in Germany (موسكو ١٩٥٦) ص ٥٦ ، ٥٧ .

الأوروبى من تحول ، وهناك عامل آخر – هو إلى حد ما نتيجة لنفس الأسباب التى أدت للتطور الاقتصادى من ناحية وللتطور الاجتماعى ذاته من ناحية أخرى – ولكنه يمثل من جانبه سبباً يكاد يكون مستقلا ويعتبر وجوده حاسماً فى هذا التحول، وأعنى به الثورة الفكرية التى شهدتها أوروبا فى أعقاب الاتصال بالعرب والانفتاح على العالم الخارجى .

إن الجامعات التى قامت فى أوروبا فى القرن الثانى عشر ، وكانت أهم المراكز الفكرية لهذه الثورة ، ما كانت لتقوم فى ظل اقتصاد الندرة والاكتفاء الذاتى المحلى الذى ساد أوروبا فى قرون الإقطاع الأولى ؛ إذ ما كان هذا النوع من الاقتصاد ليستطيع توفير الموارد المالية — على الأقل خارج الكنيسة — للانفاق على مجموعات كبيرة من العلماء والباحثين المتفرغين الذين يكرسون وقتهم للدرس . كما أن الانفتاح على العالم الخارجى ما كان ليتم لولا العلاقات التجارية عبر البحار التى كان دافعها الأساسى هو الربح .

وقد شهد القرن الثانى عشر تدفق سيل ضخم من المعارف الجديدة على أوروبا مصدره الأول هم العرب الذين اتصل بهم الأوروبيون فى أسبانيا وصقلية(١) . وكان من بين ما نقله الأوروبيون عن العرب ترجمتهم لأرسطو وتعليقاتهم عليه ودراساتهم له . وأحدث الفكر الجديد فى أوربا دوياً وصار أرسطو هو « الفيلسوف » الذى لا يكاد يضاهيه أى مصدر آخر فى مختلف فروع المعرفة لدى المثقفين الأوروبيين ، بل إن الكنيسة نفسها حاولت أن توفق بين معطياتها وأفكار « الفيلسوف » بعد أن فشلت فى الحد من انتشارها .

إن هذه الظاهرة وحدها تدل على مدى الصدع الذى أصاب سلطة الكنيسة ، بل وسيطرة الدين نفسه ، على أوروبا المسيحية ، وتعتبر إيذاناً بتعرض « مملكة المسيح » للرياح العاصفة المقبلة .

إذ أدت المعارف الجديدة إلى انتشار نوع جديد من الدراسات لا يعتمد على

---

(١) يعتبر بعض المؤرخين أن الاتصال الحضارى بالمسلمين فى هذه الفترة كان له تأثير حاسم فى غرب أوروبا ، وكان من أهم العناصر فى تطور الحضارة الأوروبية كلها فى العصور الوسطى وبخاصة فيما يتصل بدخول « التقاليد العلمية العربية وقيام الحركة الفكرة الجديدة » فى الغرب الأوروبى (انظر مثلا دوسن ، المرجع السابق ص ٣٧٠) .

الأصول اللاهوتية وحدها كمصدر وعلى الإيمان كمعيار أخير للمعرفة . وتمخضت هذه الدراسات عن أفكار جديدة فى التنظيم الاجتماعى وعاد إلى الوجود الأوروبى مرة أخرى علم السياسة على يد توماس الأكوينى الذى حاول أن يوفق بين العقل والإيمان كمصدرين للمعرفة وظهرت فى كتاباته آثار التفكير التاريخى المنظم الذى بدأت نواته عند أرسطو . ولم يعد الكون مجرد خلق ، بل هو أيضاً نمو . وقد جعل الأكوينى أساس تفكيره السياسى كتابات « الفيلسوف » وأقام السلطة السياسية على المفهوم الأرسططاليسى الخاص بالطبيعة الاجتماعية للانسان .

ولمفهوم الأكوينى عن السلطة أهمية خاصة فى هذا التطور ، إذ بدونه لم يكن فى حيز الإمكان قيام أية حركة لتغيير الطابع الخاص للسلطة البابوية دون أن تتعرض هذه الحركة للاتهام بالإلحاد .

يقول الأستاذ إرنست باركر عن تصور الأكوينى للسلطة إنه فرق بين أفكار ثلاث تتعلق بها — فكرة مبدأ السلطة principium ، وفكرة صورتها modus ، وفكرة ممارستها exercitium . وعلى أساس هذه التفرقة ذهب الأكوينى إلى أن مبدأ السلطة ، وهو جوهرها ونسيجها من عند الله ، وأن صورتها ، أو شكلها الدستورى ، يحددها الناس . أما ممارستها ، أو حيازتها فعلا ، فهى لمن يمنحها له الناس . وينطوى ذلك ضمناً على أن الناس إذ يمنحون السلطة يستطيعون استرجاعها أو التحكم فيها فى حدود كون جوهرها مصدره إلهى[1] .

وبرغم أن هناك جانباً آخر لفكر الأكوينى يترتب على تقسيمه للسلطة نفسها إلى سلطة مستمدة من الناس وأخرى مستمدة من سلطة أعلى مثل سلطة البابا المستمدة من الإرادة الإلهية مباشرة ، وأن من حق الناس فى الحالة الأولى أن يخلعوا الحاكم الطاغية ، وليس أمامهم فى الحالة الثانية سوى الالتجاء إلى تلك السلطة العليا ، فإن هذه الاتجاهات فى تصور السلطة وتفسيرها من جانب أحد كبار رجال الكنيسة كانت كافية لأن يبدأ بعض المفكرين ، وبخاصة فى الجامعات الجديدة ، فى تناول

---

(١) إرنست باركر : مقدمة العقد الاجتماعى «Social Contract» (لندن ١٩٥٨).

مثل هذه المسائل دون إخضاعها للمعايير القديمة القائمة على التسليم المطلق واستبعاد المنطق العقلى بشأنها اعتماداً على الحجج اللاهوتية وحدها ، ولذلك نجد رجال الفكر الجديد لا يتورعون عن مهاجمة مفهوم الـ Plenitudo Potestats وهم فى مأمن من تهمة الإلحاد

وقد ضمت الجامعات الأوروبية الأولى مجموعة من المفكرين ، مثل جون وايكليف أستاذ جامعة اكسفورد وجون هاس عميد جامعة براغ ومارسيليو بادوا عميد جامعة باريس ووليام أوكام الأستاذ بها ، تولوا قيادة الفكر الأوروبى الجديد . وسرعان ما سنرى على رأس حركة التوفيق ، وهى ذروة هذا التحول الفكرى ، مفكرين من أبناء هذه الجامعات وعمدائها وأساتذتها .

فما هو مضمون هذا الفكر الجديد الذى زلزل القواعد التى قامت عليها تلك السلطة الفريدة Plenitudo Potestatis التى يتمتع بها رأس الكنيسة الكاثوليكية .

لقد كرس مارسيليو بادوا كتابه الأول لمبادىء « الدولة » وحقها فى حياة خاصة بها مستقلة . وبرغم أن الدولة التى يتحدث عنها مارسيليو ليست هى الدولة القومية التى نعرفها اليوم ، ولا حتى الدولة الإقليمية التى كانت على وشك الظهور فى أعقاب هذه الفترة ، فإنه قرر أيضاً أن الشعوب التى تتكلم لغة واحدة ينبغى أن تكون دولا منفصلة ، وأن الحروب بين الدول إجراء تمليه الطبيعة لمصلحتها ، وأن السلام المطلوب هو السلام داخل هذه المجموعات اللغوية . وهاجم مارسيليو السلطة السيادية للبابا داخل الجهاز الكنسى وطالب بإحالة كل سلطات البابا الدينية ، والزمنية فيما يخص الجهاز نفسه ، إلى «المجلس العام» للكنيسة الذى يتألف من كبار رجال الدين وغيرهم ، حتى النساء ، ممن يمثلون خلاصة الرأى المسيحى المستنير ويختارون من جميع أنحاء أوروبا المسيحية ، وبذلك « يمثلون » المجتمع المسيحى وينوبون عن مجموع المؤمنين فى القيام بهذه المهام .

واعتبر وليام أوكام أيضاً السلطة المطلقة التى يتمتع بها البابا طغياناً Tyranny وبدعة وإلحاداً ، ودعا مثل مارسيليو إلى جهاز « نيابى » يمثل المؤمنين للحد من سلطة البابا .

إن هذه الأفكار تعتبر غريبة ، بل وثورية ، فى ذلك فى الوقت ولكنها انتشرت بسرعة فى المجتمع الأوروبى ، وصارت السلطة المطلقة للبابوات موضع نقاش على نطاق واسع بين الدوائر المثقفة فى أوروبا . إن سابابن يصف هذه الحركة(١) بأنها أول حركة كبرى للتربية السياسية الشعبية شهدها التاريخ ؛ وهو محق فى ذلك فى حدود مفهوم « الشعبية » فى ذلك العصر — وربما أيضاً باستثناء الحركة التى أثارتها « الأكاديميات » فى أثينا عند الإغريق .

وقد اشتعلت هذه الحركة بصفة خاصة بعد أن حدث الانشقاق الكبير Great Schism فى الكنيسة الغربية وصار رأب هذا الصدع فى وحدة المسيحية الهم الشاغل لكثير من المفكرين الأوروبيين وهدفاً يتطلع إليه جمهرة المسيحيين فى أوروبا مما أدى إلى انتشار المناقشة فى أوضاع الكنيسة كلها بين الناس لمعرفة أسباب ما أصابها .

ومما ساعد على انتشار الأفكار الجديدة الخاصة بنظام الحكم داخل الكنيسة المقارنات التى عقدت بين سلطة البابا وسلطة رأس المؤسسة الكبرى الأخرى فى أوروبا وهى الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فقد كانت سلطة الإمبراطور تقوم على ذلك التقليد الرومانى فى الحكم الذى تتضمنه مؤسسات الحكم لدى القبائل الجرمانية ، وكان « مجلس المنتخبين » Electors مجرد تطوير لمجلس رؤساء العشائر وكبار رجال القبائل . وفى الأنظمة التى قام عليها حكم الملوك الأقل شأناً كانت توجد مجالس شبيهة مثل البرلمان الإنجليزى والدايت فى ألمانيا ومجلس الطبقات العامة فى فرنسا . وكانت هذه المجالس تعتبر من الناحية النظرية على الأقل « نائبة » عن الشعب فى مجموعه وممثلة له ، وفيها يتجسد مفهوم الدستورية الفيودالى الذى يجعل الإمبراطور أو الملك خاضعاً للقانون الذى يخضع له الجميع .

وعندما تغلغلت هذه الثورة الفكرية إلى أعماق المجتمع الإقطاعى ، ظهرت تلك الحركات التمردية التى أشرنا إليها ، ووجهت بعضها الهجوم إلى الفوارق الطبقية السائدة ودعت إلى المساواة الكاملة بين الناس وإلغاء « السلطة » بجميع أنواعها كما

---

(١) سابابن ، المرجع السابق ٣٢٥ .

حدث بين المتطرفين من أتباع هاس فى بوهيميا واللولارد Lollards فى إنجلترا.

وبرغم أن هذه الحركات انهـــارت فى بحار من الدماء تحت وطأة ضربات أدوات النظام القائم ، فإن الإصلاح كان قد صار ضرورة لامندوحة عنهـا ، ومن ثم ظهرت حركات من نوع آخر تعتبر إلى حد كبير بمثابة حل وسط بين تلك القضية التى تجعل لفرد واحد فى المجتمع المسيحى ، هو رأس الـكنيسة ، سلطة نهائية مطلقة لا حدود لها ، ونقيضتها التى تدعو إلى التخلص من كل سلطة . وأهم هذه الحركات هى حركة التوفيق .

* * *

إن أحداث حركة التوفيق Conciliar Movement نفسها ، من مجلس كونستانس فى ١٤١٤ إلى نهاية مجلس بازال فى ١٤٤٩ ، معروفة ونستطيع أن نوجزها فيما يلى :

فى أول القرن الرابع عشر حدث نزاع بين البابا بونيفاس الثامن وفيليب الرابع ملك فرنسا حول حق الأخير ـ الذى كان فى حاجة ماسة إلى المال بسبب الحرب ـ فى فرض الضرائب على ممتلـكات الـكنيسة فى فرنسا . وحرم بونيفاس الثامن فرض ضرائب على ما تملـكه الـكنيسة أو رجالها من جانب الحـكام الزمنيين وأصدر المرسوم المشهور Unam Sanctum الذى يعتبر أكثر الوثائق البابوية تطرفاً فى تأكيد السلطة المطلقة للبابا . ورد ملك فرنسا على ذلك بإرسال جنوده إلى روما لإرهاب البابا ، الذى سرعان ما توفى . وعند انتخاب البابا التالى استطاع ملك فرنسا بنفوذ الـكرادلة الفرنسيين انتخاب أحد الـكرادلة الموالين له لـكرسى البابوية ثم أقنعه بنقل المقر البابوى إلى أفينيون على حدود فرنسا ، وبذلك بدأت فترة « الأسر البابلونى » ١٣٠٤ — ١٤١٨ التى كانت البابوات فيها أدوات فى يد ملوك فرنسا تقريباً .

وكان هذا الوضع يحز فى نفوس قادة الرأى المسيحى ، وقامت حركة تدعو إلى عودة البابا إلى روما . وعندما توفى البابا جريجورى الثانى عشر إنتخب مجمع

الكرادلة فى روما البابا أوربان السادس الذى قرر إعادة البلاط البابوى إلى روما . ولكن الكرادلة الفرنسيين رفضوا الاعتراف بالبابا الجديد وانتخبوا بابا آخر هو كليمنت السادس أقام فى أفينيون ، وبذلك بدأ الانشقاق الكبير للكنيسة الغربية الذى استمر أربعين عاماً ١٣٧٨ — ١٤١٨ . وأثار هذا الانشقاق — الذى زاد الطين بلة — المخلصين من زعماء المجتمع المسيحى الغربى ، وعقد « مجلس عام » فى بيزا لوضع حد له . وطالب هذا المجلس البابوين القائمين بالتنازل وانتخب بابا ثالثاً . ولكن البابويين الأولين لم يذعنا لقرار المجلس ، وصار هناك ثلاثة بابوات .

وهنا نشأت بين بعض رواد الفكر الأوروبى فى ذلك الوقت وبعض كبار رجال الدين الذين روعهم هذا الوضع ، فكرة ضرورة إيجادسلطة تستمد اختصاصها من المجتمع المسيحى ككل لتفصل فى الأمر وتحدد صاحب السلطة النهائية فى هذا المجتمع . وكانت هذه فكرة جريئة ، بل وثورية ، فى ضوء الأوضاع والأفكار السائدة . ولكن رواد هذه الحركة كانوا موضع احترام فى أوروبا المسيحية إذ كانوا يضمون نخبة من كبار رجال الدين والعلماء والمفكرين ، مثل جون جيرسون عميد جامعة باريس والكردينال نقولا الكوزى وفرانسيسكو زابارلا وهنرى لانجنشتاين وكونراد جلنهاوزن وبيتر دايى ، وكلها أسماء معروفة جيداً لدى المشتغلين بالعلوم السياسية والتاريخية .

وبدأت « حركة التوفيق » بالدعوة إلى عقد مجلس كبير على نطاق أوروبا كلها لمناقشة المشاكل التى تشيع القلق والاضطراب فى المجتمع المسيحى ، على أساس تطبيق نوع من المؤسسات البرلمانية — مثل تلك التى كانت توجد فى صورة مختلفة فى أوروبا انبثاقاً من المجالس الفيودالية التى تحدثنا عنها — داخل الجهاز الكنسى للحد من سلطة البابا المطلقة وإصلاح حالة الكنيسة .

وكانت أهداف الحركة ثلاثة :

١ — وضع حد للانشقاق فى الكنيسة الكاثوليكية .

٢ — النظر فى أمر الحركات الإلحادية التى ظهرت فى أنحاء مختلفة من أوروبا ، وبخاصة حركة هاس وأتباعه فى بوهيميا .

٣ — إصلاح الكنيسة نفسها فى « الرأس والأعضاء » .

وتمخضت هذه الحركة عن عقد مجلس عام فى كونستانس عام ١٤١٤ — بداية حركة التوفيق — ونجح هذا المجلس فى تحقيق الهدفين الأولين ، إذ وضع حداً للانشقاق بخلع البابوات الثلاثة وتعيين بابا جديد فى روما هو البابا مارتن الخامس، كما أصدر حكمه فى حركة أتباع هاس باعتبارها إلحاداً ، وبذلك أمكن إخمادها وإعدام زعمائها ، برغم أن قيام هذه الحركة وأمثالها فى أنحاء أوروبا هو الذى وفر للموفقين الجو العام الذى أتاح لهم ما أحرزوه من نجاح .

أما فيما يتصل بإصلاح الكنيسة ، فإن المجلس أصدر مرسومين ، أحدهما المعروف باسم مرسوم Frequens — يقرر ضرورة انعقاد المجلس العام بصفة دورية كل عشر سنوات ، وبذلك سلب حقاً كان معترفاً به للبابا وحده فى دعوة المجلس وتحديد ما ينظر فيه من قضايا ، كما أضفى المجلس بذلك ضمناً على نفسه صفة مختلفة عن صفته الأولى كمجرد مجلس استشارى للبابا .

ويقرر المرسوم الثانى ـ Sacroscanta ـ أن سلطة المجلس بوصفه ممثلا للمجتمع المسيحى أعلى من سلطة البابا . ويقول الأستاذ فيجيس فى مؤلفه العمدة المعروف إن هذا المرسوم يعتبر « أعظم وثيقة رسمية ثورية فى تاريخ العالم .. لقد أصدر مجلس كونستانس مرسوماً يقرر فيه أنه يمثل سلطة أعلى من البابا وبذلك كان يحاول قلب حكم ملكى مطلق استمر أكثر من ألف عام إلى حكم دستورى » (١) .

وقد رفض البابا طبعاً الخضوع لهذا التمرد ، ومرت فترة زاخرة بالصراع بين المجلس وزعماء حركة التوفيق من ناحية ، والبابا وأنصاره من ناحية أخرى . وعندما توفى البابا مارتن الخامس جاء بعده البابا يوجينيس الرابع الذى قرر حل المجلس نهائياً عند ما تبين أن زعماءه لا يزالوا مصرين على موقفهم من أن سلطة المجلس تعلو سلطة البابا ، ولكن الضغوط المختلفة أجبرت البابا على العودة إلى الإعتراف بشرعية المجلس الذى عقد اجتماعه الثانى فى بازل ابتداء من ١٤٣١ كما كان مقرراً . وعندما احتدم النزاع بين المجلس والبابا قرر المجلس إيقاف البابا ثم عزله وانتخب باباً جديداً ، ولكن الرأى العام المسيحى لم يؤيد المجلس فى هذه الخطوة خشية حدوث

---

(١) فيجيس ، المرجع السابق ص ٤١ .

انشقاق جديد فى الكنيسة . وكانت هذه هى بداية انهيار حركة التوفيق . وفى ١٤٤٩ أضطر من بقى من أعضاء المجلس ، وكانوا قد انتقلوا إلى لوزان ، إلى إعلان خضوعهم للبابا فى روما وانتهت حركتهم — فيما يتصل بالحد من سلطة البابا — بالفشل الكامل . وفى العام التالى ١٤٥٠ احتفلت الكنيسة الكاثوليكية رسمياً بانتصار البابوية نهائياً على حركة التوفيق .

وقد ساعد البابا يوجينس الرابع على هذا الانتصار الحاسم أنه فى هذه الأثناء كان قد دعا إلى عقد مجلس آخر ، فى فرارا ثم فى فلورنسا ، عام ١٤٣٩ للنظر فى أمر توحيد الكنيستين الشرقية والغربيـــة بهدف تكتيل الجهود ضد المسلمين (الأتراك) الذين كانوا على وشك الانقضاض على القسطنطينية بعد أن استولوا على معظم ما حولها ، وبذلك عمل على اجتذاب الرأى العام المسيحى فى هذا الاتجاه وتحويله عن دعوة الموفقين .

* * *

كانت حركة التوفيق أول منافشة كبرى تقوم بها مجموعة من العلماء ورواد الفكر الأوروبى حول أفضل النظم الاجتماعية والسياسية للمجتمع الأوروبى ؛ إذ منذ اختفاء الثقافة الإغريقية وسيادة الكنيسة المسيحية لم يحدث أن نوقشت مثل هذه الموضوعات اللهم إلا فى حدود الدراسات اللاهوتية . وقد ظهرت فى هذه المناقشة أفكار وآراء أثرت فى الفكر السياسى قروناً ، وحفلت باتجاهات ما زالت حتى يومنا هذا موضع تأمل كثيرين من المفكرين(١) .

ففيها عاد إلى الحياة — كما يبدو فى كتابات فرانسسكو زابارلا — مفهوم قديم قيض له أن يلعب دوراً ضخماً فى الفكر السياسى الحديث ، وهو أن كل شعب People أو جماعة بشرية Community تملك قدرة متأصلة فى ذاتها وحقاً ثابتاً فى وضع قوانينها وتعيين حكامها ، وأن هذه القدرة وحدها هى مصدر مشروعية الحكم الذى تخضع له هذه الجماعة .

---

(١) يقول بنجامان نلسون Benjamin Nelson فى معرض نقده لكتاب فيجيس المشار إليه : «أنه ليست هناك فترة فى تاريخ أوروبا تبدو لنا الآن أكثر امتلاء بالمعنى — بالنسبة للصراعات السياسية فى عصرنا — من المائتى سنة التى بدأت بمجلس كونستانس» .

وعند مفكر آخر من الموفقين، هو نقولا الكورى ، نجد مفهوماً آخر ترددت أصداؤه فى كتابات المفكرين منذ ذلك الوقت هو أن كل الناس بالطبيعة أحرار وأية سلطة تقيد حرية الخاضعين لها ، وتمنعهم عن القيام بعمل ، أو تدفعهم إلى القيام بعمل عن طريق الخوف والعقاب لا بد أن تأتى من رضا هؤلاء الخاضعين وقبولهم لها « سواء كانت هذه السلطة كامنة فى القانون المكتوب أم فى القانون الحى المتجسد فى الحاكم » .

إننا لا نملك إلا أن نرى على الفور الشبه الواضح بين هذه الأفكار والأفكار التى أحدثت دوياً فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وبلغت ذروتها بالثورات التى هزت العالم الحديث فى هذين القرنين فى انجلترا وأمريكا وفرنسا . ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن هناك فرقاً أساسياً بين الفكرين ؛ فالرضا الذى تحدث عنه مفكرو القرن السابع عشر والثامن عشر كان رضا الأفراد من الناس ، أما فى القرن الخامس عشر فكان الرضا بهذا المعنى مستحيلا . لأن الفرد ، الذى لا سيد له سوى ضميره ، لم يكن قد تبلور كمفهوم سائد إلا بعد انهيار أفكار العلاقات الفيودالية والدينية وبعد أن تأكد — كنتيجة لحركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر — مفهوم الفرد ذى العلاقة المباشرة بالله والذى يختصه الله بكيان خاص به لمجرد كونه إنساناً . إن مفهوم الرضا عند الموفقين كان يعنى رضا الجماعة كما يتمثل فى « زعمائها الطبيعيين » ، إنه الرضا الذى يتضمنه التقليد الفيودالى فى الحكم. كما كانت تمارسه القبائل الجرمانية فى صورة مجلس العشيرة Diet

ومن مبدأ الرضا كأساس للحكم — الذى أكده الكوزى — نستطيع أن نتبين لماذا ذهب الموفقون إلى أن السلطة السيادية معقدها هو « مجتمع المؤمنين » ، أو « شعب الكنيسة » كله كما يقول جيركه ، وأن ممارسة السلطة « وظيفة » ، يقوم بها البابا والمجلس معاً لحساب هذا المجتمع ، وبذلك أصبح منصب البابا نفسه ، مثله مثل المجلس ، ذا طابع نيابى أو مجرد توكيل . كما أن مرسوم كونستانس يضفى على مجمع الكرادلة — وهو هيئة دائماً من هيئات الكنيسة — وضعاً يكاد يقابل وضع مجلس الشيوخ فى كثير من الدساتير الحديثة . وهكذا تصبح لدينا

صورة للحكم فى الكنيسة تضم البابا ، فى وضع الملك المقيد دستورياً أو رئيس الجمهورية المنتخب بواسطة مجلس نيابى ، وبرلمان مكون من مجلس أعلى — هو مجلس الكرادلة — ومجلس أدنى هو المجلس العام . إن هذه الصورة تطبيق واضح لمفهوم « الدستور المختلط » الذى نراه عند جمهرة المفكرين السياسيين فى عصر الاستنارة والذى يعتبر المبدأ السائد فى كثير من بلاد العالم الآن .

ولا ريب فى أن الموفقين استوحوا الكثير من هذه الأفكار من مفهوم أرسطو ، الذى كانت كتاباته قد انتشرت على نطاق واسع فى ذلك الوقت ، عن أفضل نظم الحكم ، وبخاصة أن نظرية الموفقين فيما يتصل بالرضا كشرط للخضوع للسلطة ، كانت انطلاقاً من المفهوم الأرسطاليسى عن المجتمع المكتفى بذاته Self Sufficient . ولا شك أيضاً أن الموفقين تأثروا بنظرية الملكية المقيدة الفيودالية فى مواجهة الحكم على أساس الحق الإلهى المطلق التى صاغها أنصار البابوية ، والتى استخدمها فيما بعد الملوك لمصلحتهم ، وإلا ما استطاعوا أن ينصوا صراحة فى مرسوم كونستانس على أن للمجلس ، بصفته ممثلا للشعب المسيحى ، أن يعزل البابا إذا اغتصب قدراً من السلطة أكثر مما تحدده مقتضيات وظيفته لمصلحة الشعب ، بل ولما جرؤوا على إصدار قرار بعزل البابا يوجينس الرابع عندما رفض دعواهم .

لقد صارت كل هذه المبادىء التى أثارتها حركة التوفيق من القضايا المسلم بها فى كل حكم دستورى فى العصر الحديث . ولا شك أن تأثيرها كان كبيراً فى التطورات التالية فى التاريخ الأوروبى . بيد أن هناك جانباً آخراً لحركة التوفيق لا يقل أهمية فى نظرنا عن هذه الأفكار فى تحديد مسيرة هذه التطورات .

من المعروف أن أوروبا فى ذلك الوقت لم تكن قد استقرت بعد على مفهوم خاص بتعدد الجنسيات ، فهى لم تعرف مثل هذا المفهوم عملياً إلا بعد أن قامت الدولة الإقليمية territorial State وعندما دفع الانقسام الدينى الناجم عن حركة الإصلاح الناس إلى البحث عن رابطة أخرى غير الدين توفر التماسك الضرورى للمجتمعات الجديدة ، التى كان لا بد أن تنشأ بتأثير عدة عوامل وظروف اقتصادية واجتماعية فى أوروبا .

ولكن الدافع الذى حدا بمفكرى حركة التوفيق بأن يكون « التمثيل » فى

المجلس العام ومجلس الكرادلة على أساس « الأمم » — أياً كان معنى هذا المصطلح فى ذلك الوقت — لا بد أنه كان يجسد صدى المشاعر التى بدأت تتسرب إلى المفاهيم فى آخر القرون الوسطى وساعدت فى القضاء على وحدة « مملكة المسيح » ومعها النظام الإقطاعى بأكمله وأقامت على أنقاضه الدولة الإقليمية ثم — بعد ذلك — الدولة القومية الحديثة .

وقد تبلورت حول هذا القرار بصورة نهائية « الكنائس الوطنية » — وهو مفهوم جديد تماما فى القرن الخامس عشر ما كان ليخطر على بال إنسان مجرد التفكير فيه فى القرن السابق . أن الأستاذ فيجيس يردد خلاصة رأى علماء السياسة الحديثين عندما يقول « إن جيرسون وأساتذة جامعة باريس اتخذوا موقفاً وطنياً متطرفاً فى حركة التوفيق » ، وهو بذلك ، يعبر عن ظاهرة كانت جديدة تماما فى أوائل القرن الخامس عشر ؛ فعندما نستعرض التاريخ الأوروبى كله فى هذه الفترة وقبلها لا نجد حركة أخرى تعطينا نموذجاً أوضح من ذلك لبداية نشأة النواة الأولى للمشاعر الوطنية فى بداية تحولها إلى تلك الظاهرة التى تعتبر اليوم أخطر عامل فى السياسة المعاصرة ، وهى ظاهرة القومية الحديثة .

مما تقدم نستطيع أن نتبين أن معظم الأفكار السياسية التى صنعت العصر الحديث توجد بذورها بصورة أو أخرى فى كتابات الموفقين وقراراتهم . ومما لا ريب فيه أن حركتهم لو كانت نجحت فى فرض النظام الدستورى داخل الجهاز الكنسى — وهو أمر كان مستحيلا لعدة أسباب — لتركت أثراً مباشراً وفعالا فى كل التطورات التالية ، بل لعلها كانت قد حالت دون قيام ثورة الإصلاح الدينى فى القرن التالى وغيرت بذلك مجرى التاريخ الحديث . ولكن لماذا فشلت حركة التوفيق ؟

إن المصير الذى انتهت إليه هذه الحركة كان هو نفس المصير الذى أصاب البرلمانات الفيودالية بعد ذلك فى المحافظة على نفسها ضد موجة الحكم الملكى المطلق التى أثارت بدورها موجة ثورات القرن السابع عشر والثامن عشر . والغالب أن الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التى أدت إلى الظاهرتين واحدة ولكن هناك أيضاً أسباباً واضحة أسهمت فى فشل حركة التوفيق بالذات .

فـ « مملكة المسيح » التى كانت تمثل مجال السلطة الشاملة للكنيسة الكاثوليكية

لم تعد وحدة متماسكة تسمح بوضع نظام نيابى لتمثيل أوروبا كلها — كما حدث داخل الدول الإقليمية التى أتاحت لها قوة التماسك الوطنى النامى أساساً تقوم عليه مؤسساتها النيابية فحولتها بذلك إلى دول قومية . فأوروبا كانت فى القرنين الأخيرين من العصور الوسطى فى بداية الانقسام إلى دول تستهدف كل منها الاستقلال عن كل سلطة خارجية ، ولم يكن من اليسير جمعها على المشاركة فى خلق نظام حكم لمؤسسة موحدة تدعى الاختصاص الكلى الشامل فوق هذه الدول .

كما أن حركة التوفيق لم تكن متمتعة بالتأييد الشعبى الكافى — باستثناء بعض الجيوب هنا وهناك — للقضاء على السلطة المطلقة للبابا . فالرأى العام المسيحى أيد الموفقين فيما يتصل بوضع حد للانقسام وتعدد البابوات الذى كان يؤرق المسيحيين فى أوروبا ويفقدهم الثقة فى أعظم وأهم مؤسساتهم فى ذلك الوقت . ولكن عندما حاول الموفقون إصلاح الكنيسة بالحد من سلطة البابا وكادت محاولتهم تؤدى إلى انقسام جديد انصرف عنهم الرأى العام المسيحى . فضلا عن أن الموفقين ، وهم مجموعة من المفكرين الأكاديميين أساساً ، لم يدخلوا فى اعتبارهم أن حركتهم حركة شعبية فى جوهرها ، إذ تعمل على فرض مصلحة « الشعب » المسيحى وإرادته بجعله مصدر السلطات ، وليس لديها ما تواجه به المصالح القائمة التى يهمها الإبقاء على الأوضاع السائدة سوى التأييد الشعبى ، ومن ثم فإنهم لم يبذلوا جهداً لاجتذاب الرأى العام الأوروبى فى تأييد حركتهم ، بل إنهم بموقفهم المتشدد ضد حركة أتباع هاس ، والحركات المماثلة ، واتهامهم إياها بالإلحاد ، وهى التى كانت تمثل فى الواقع تطلعات الجماهير فى ذلك الوقت ، أفقدهم ما كان يمكن أن يحصلوا عليه من تأييد وقضى على جهودهم بالفشل .

لقد كان فشل حركة التوفيق بمثابة ضربة قاصمة لقضية الحكم الدستورى فى أوروبا كما يقول أحد المؤرخين الذين يعتد برأيهم(١) ، ولكنها برغم فشلها تركت

---

(١) و. ت. ، و. ج « تاريخ أوروبا من ١٣٧٨ — ١٤٩٤ » (لندن ١٩٤٩) ص ٣٧ W.T. Waugh « History of Europe 1378-1494 » .

ويقول فيجيس ، المرجع السابق ص ٤٣ ، كان انتصار البابا يوجينيس الرابع بداية لانتصار البيروقراطية المركزية فى العالم .

أثراً دائماً فى التاريخ الأوروبى والفكر السياسى عموماً باعتبارها أول محاولة من نوعها لبلورة المفاهيم الدستورية الفيودالية فى مبدأ دستورى محدد يستخدم فى مواجهة حاكم مطلق على أساس تحديد سلطته بواسطة هيئة تمثل « المجموع » ، وبذلك وضعت اللبنات الأولى لسيادة الشعوب - حتى قبل أن يتبلور مفهوم السيادة الحديث نفسه — ووجدت فيها الحركات الدستورية التالية كلها ذخيرة من الحجج والأفكار كما نستطيع أن نرى بوضوح فى كتابات دعاة هذه الحركات .

وهناك أثر هام آخر لحركة التوفيق يعتبر من علامات الطريق فى تاريخ النظرية السياسية . لقد استمرت أوروبا قرابة ألف عام تتناول القضايا العامة — الكبرى والصغرى — من زاوية الحق القانونى الشخصى الذى ورثه الفكر الأوروبى عن القانون الرومانى ، وقد استطاع أنصار البابوية أن يثبتوا « الحق القانونى » للبابا فى الحكم السيادى المطلق . ولكن زعماء كونستانس وبازل واجهوهم بمفهوم حديث تماماً هو أن القانون ليس شيئاً مستقلا بذاته يعمل فى فراغ ، بل هو جزء من المجتمع ويستطيع المجتمع تغييره بإرادته عندما تتغير ظروفه ، ومن ثم فإن « الحق » السياسى أمر نسبى يرتبط بمصلحة المجتمع ككل . وهكذا ظهر لأول مرة فى تاريخ الفكر الغربى منذ قيام المسيحية « مفهوم النفعية » Utilitarianism فى مواجهة مفهوم الحق المطلق ، الذى يتضمنه القانون الطبيعى أو أى قانون آخر بعيد عن متناول العقل البشرى والإرادة البشرية ، كحجة تستخدم فى قضية عامة مطروحة فعلا . ولم تمض مائة عام حتى كان مكيافللى قد استخدم هذا المفهوم — مفهوم الاحتكام لمصلحة المجتمع كمعيار نهائى — وحوله إلى مبدأ « صالح الدولة » Raison d'Etat كمعيار نهائى ليجعل منه نظرية سياسية قام عليه الجانب الأكبر من علم السياسة الحديث .

عبد الكريم أحمد
أستاذ العلوم السياسية
بالمعهد العالى للخدمة الاجتماعية

مؤرخ مغربي معاصر
يصف أحداث أوربا الغربية
خلال سنوات ١٥٨٧ — ١٨٩٦

الدكتور عبد الكريم كريم

كلية الآداب — جامعة محمد الخامس الرباط — المغرب

أولى المؤرخ المغربي أبوفارس عبد العزيز الفشتالي عناية كبرى للأحداث المعاصرة التي عرفتها أوروبة الغربية خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر ، لدرجة يمكن معها القول بأن المعلومات الهامة والتفاصيل الدقيقة التي أثبتها في مخطوطه القيم (مناهل الصفا) الموجود بخزانة القصر الملكي بالرباط ، قل أن نجد لها مثيلا حتى عند بعض المؤرخين الأوروبيين المعاصرين .

وليس هناك من شك في أن وضعية الفشتالي كوزير للمولى أحمد المنصور السعدى ورئيس كتابته الخاصة ثم كجليس خاص للخليفة ، قد مكنته من الاطلاع على الكثير من التطورات والأحـداث الداخلية والخارجية . وساعدته على تدوين جانب كبير منها .

ويهمنا في هذا البحث أن نكشف الجوانب الهامة من تاريخ أوربا الغربية في نهاية القرن السادس عشر ، التي أولاها المؤرخ الفشتالي عناية كبرى في مخطوطه (المناهل) وذلك :

١ — لنستفيد منها في دراسة هذه الحقبة الخطيرة من تاريخ أوربا الغربية في مطلع العصر الحديث .

٢ — لنستدل بها على مدى سعة أفق بعض المؤرخين المغاربة المعاصرين الذين دونوا أحداث بلادهم الداخلية وأهم التطورات الخارجية المعاصرة لهم .

٣ — ولنبطل الأدعاء الذى طالما ردده الكثير من الأجانب بانعزال العالم

العربي وانكماشه على نفسه خلال العصور الحديثة وجهله لما يجرى من تطورات فى داخل البلاد وخارجها .

اشتدت وطأة الحروب الدينية بأوربة الغربية منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر : للاشتباكات الدموية التي تعددت واجهاتها وتشعبت أهدافها ، لدرجة يمكن معها القول بأن الكثير من ملوك أوربا وأمرائها قد استغلوها لبسط سيطرتهم أو لخلع نير حكم أجنبى ، أو لتحقيق مطامع وأهداف طالما عملوا لأجلها ، وقد كان ملك أسبانيا فيليب الثانى يعمل جاهداً على إقامة دولة مسيحية واحدة تكون قوام إمبراطورية عالمية ، وكان يتخذ من تأييد البابوية فى روما حجة وسنداً للدخول فى حروب ضد الدول الأوروبية بدعوى اعتناق بعضها المذهب البروتستانتى الذى اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية بدعة يجب القضاء عليها مع أن هذه الدول قد خرجت أو سعت إلى الخروج ضد فيليب الثانى والوقوف فى وجه أطماعه التوسعية وذلك للتطورات التى عرفتها أوضاعها وظروفها كدول نامية تسعى لتحقيق كيانها السياسى ووحدتها الوطنية ، ومن هذا القبيل بريطانيا وفرنسا وهولندا التى كانت تربطها بالمغرب روابط قوية وخاصة فى الميدان التجارى . وقد أخذت هذه العلاقات تتحول إلى اتصالات سياسية بسبب شعور هذه الدول بالخطر الأسبانى المتزايد . أو بعبارة أوضح ، فإن الخطر الأسبانى قد قارب بين دول المعسكر البروتستانتى بأوربا وبين المغرب الذى كان يتخوف من قيام الأسبان بهجوم عسكرى ، خاصة وأن للاسبان قواعد احتلال عديدة منبثة على شواطىء المغرب الشمالية .

ومنذ انهزام البرتغال فى معركة وادى المخازن (الاثنين ٤ غشت ١٥٧٨) ، اشتدت رغبة فيليب الثانى ملك أسبانيا فى ضم العرش البرتغالى وتوحيد شبه جزيرة ايبريا ، وقد تدلى فى قواعد الاحتلال البرتغالى فى المغرب (سبته ، طنجه ، أصيلا ، مازكان) بدعوى حمايتها من الهجومات المغربية ، وأخذ يستغل كل الفرص والظروف للاطاحة بالحكومة البرتغالية التى لم تكن الأيام لتزيد أوضاعها الداخلية إلا تدهوراً واضطراباً ، وخاصة بعد وفاة الكاردينال (هنرى) فى شهر فبراير سنة ١٥٨٠ وعدم توصل الهيئة الخماسية التى ألفت فى لشبونة لتسيير الأمور ، ريثما يبث مجلس (الكورتيز) البرتغالى فيمن سيتولى العرش لتعدد الطالبين وتشعب الاتجاهات واختلافها .

ومن أبرز المطالبين (دون أنطونيو) عم الملك القتيل (دون سباستيان) ، الذى شارك بدوره فى معركة وادى المخازن ونجا من الأسر بأعجوبة ، والملك الأسبانى فيليب الثانى الذى لم يتردد فى استخدام القوة لضم العرش البرتغالى والامبراطورية البرتغالية المترامية الأطراف .

وعندما اخترقت القوات الأسبانية الحدود البرتغالية يوم ١٢ يونية ١٥٨٠ سارع مجلس (الكورتيز) البرتغالى إلى بيعة (دون انطونيو) يوم ١٩ يونيه ، وتصدت القوات البرتغالية إلى مقاومة الأسبان ولكن بدون جدوى ، إذ انهزم (دون أنطونيو) فى معركة (القنطرا) وجرح ثم فر إلى شمالى البلاد ومنها إلى جزر آصور التى وصلها يوم ٢٣ أكتوبر من نفس السنة .

أما فيليب الثانى فقد استقر فى مدينة بطليوس إلى أن جاءه خبر الفتح وتصديق مجلس (الكورتيز) على وحدة العرشين البرتغالى والإسبانى خلال جلسته المنعقدة يوم ١٥ أبريل ١٥٨١ ، ومن مدينة بطليوس انتقل إلى لشبونة التى دخلها دخول الفاتحين يوم ١٣ يوليو فى حين أن (دون أنطونيو) قد أعلن معارضته لذلك ، وجعل من جزر آصور مقراً للثورة ضد الأسبانيين . وعندما أرسل الأسبان قوات بحرية ضد آصور سنة ١٥٨٣ انتقل (دون أنطونيو) إلى فرنسا عند ملكها (هنرى الثالث) الذى أعرب عن تأييده للأمير البرتغالى ومده بمختلف المساعدات ، غير أن أحداث فرنسا الداخلية ، وتجدد الحروب الدينية بها بسبب محاولات الحزب الكاثوليكى الفرنسى حرمان الأمير (هنرى نافار) البروتستانتى من عرش فرنسا بعد أن أصبح المرشح الوحيد له إثر وفاة الأمير (فرانسوا) أخى الملك (هنرى الثالث) سنة ١٥٨٤ ، وتدخل ملك أسبانيا لتأييد الجانب الكاثوليكى من جهة أخرى ، جعل (دون أنطونيو) ينتقل إلى بلاط الملكة الانجليزية (ايليزابيث) بلندن ، التى آوته وشملته بكل عطف وتأييد .

وبانتقال (دون أنطونيو) إلى لندن ازدادت حدة النزاع بين أسبانيا وانجلترا وتباينت شقة الخلاف بين المعسكرين المسيحيين الأوربيين الكاثوليكى بزعامة فيليب الثانى والبروتستانتى بزعامة الملكة إيليزابيث .

والجدير بالملاحظة هو أن كلا من المعسكرين قد سعى جاهداً إلى كسب جانب

الخليفة السعدى المولى أحمد المنصور لما يتمتع به المغرب من ستراتيجية هامة . وللدور العسكرى الذى يمكن أن يقوم به المغاربة عنـــد قيام حروب بين دول المعسكرين الـكاثوليكى والبروتيستانتى ، وقد التزم المغرب جانب الحياد بين الجانبين المتنازعين . إلى أن حصلت معركة الأرمادا التى انتهت بانهزام الأسطول الأسبانى (١٠ أغسطس سنة ١٥٨٨) إذ ازدادت الصلات بين الملـكة الانجليزية (إيليزابيث) والمولى أحمد المنصور الذى أعلن تأييده للأمير البرتغالى (دون أنطونيو) ، واعترافه بمطالبه المشروعة فى العرش البرتغالى .

وبعد الاتصالات السرية التى جرت بين مراكش ولندن تم الاتفاق على أن ينتقل الأمير (دون كريستوف) بن (دون أنطونيو) إلى المغرب كرهينة فى مراكش مقابل المساعدة المادية والقروض المالية التى وعد المنصور بتقديمها ، إلا أن المولى أحمد استغل وجود الأمير البرتغالى بين يديه للضغط على الملك الأسبانى فيليب الثانى الذى تنازل له دون قتال عن مدينة أصيلا إحدى قواعد الاحتلال الأسبانى بالمغرب ، وللانطلاق نحو غربى أفريقيا لفتح السودان ، وتأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف .

لقد أثرت نتائج معركة الأرمادا على الأحدث التى عرفتها أوربة الغربية فعلاوة على الثورات التى ازدادت ضد الأسبان لفقدهم بعض المـكانة التى كانت لهم كأعظم دولة فى العالم ، أخذ خصومهم الذين كانوا يقفون منهم على حذر لسطوتهم وقوتهم ، يصارحونهم العداء ، ويحاولون استغلال هذه الفرصة لرفع نيرهم وإبعاد خطرهم ، أو للانتقام منهم .

وهكذا اندفع الانجليز فى حروبهم ضد الأسبان وتعددت واجهات القتال بين المعسكرين المسيحيين ، وسعى الحلف البروتستانتى بوجه خاص إلى احتلال أهم المدن البرتغالية الساحلية لتتويج (دون أنطونيو) بها ولقطع الطرق التجارية البحرية التى تصل بين أسبانيا من جهة والعالم الجديد والشرق الأقصى من جهة أخرى .

وقد نجح الانجليز أخيرا سنة ١٥٩٦ فى احتلال مدينة قادش إحدى المراكز

الاقتصادية الأمة بشبه الجزيرة الإيبرية ونادوا بالأمير « دون كريستوف » أميراً عليها بعد وفاة والده (دون أنطونيو) بفرنسا سنة ١٥٩٥ .

* * *

وجميع هذه التطورات والوقائع قد دونها المؤرخ الفشتالي في مخطوطه « مناهل الصفا » ، وإن لم يكن ذلك بصفة منتظمة لأن الفشتالي كان يدون أخباره بشكل كراريس ومذكرات ولأن بعض هذه الأحداث جاءت بصفة إستطرادية أو في معرض حديثه عن الخليفة المنصور وأخبار دولته بالمغرب .

وقد قمت بتنظيم المعلومات التي دونها الفشتالي عن أوربا الغربية خلال الفترة بين ١٥٧٨ ـ ١٥٩٦ وترتيبها ترتيباً زمنياً لتتم الفائدة المرجوة ودون أن يمس ذلك بالأصل وبشروط الأمانة التاريخية .

١ ـ أوضاع البرتغال بعد معركة وادي المخازن والصراع بين فيليب الثاني ملك أسبانيا و (دون أنطونيو) المطالب بالعرش البرتغالي :

« فأما ولد طاغية برتقال دون أنطون فقد كان من خبره أن أمير المؤمنين المنصور لما وقع بجموع الشرك يوم النهر بوادي المخازن حسبما سبق وجدلت سيوفه بستان برتقال واستولى المسلمون على من تخطاه الأجل من سواد المشركين كان ممن أسر يومئذ من طواغيث الشرك دون أنطون عم بستيان طاغية برتقال الهالك أسره بعض زعانفة البربر من مطوعة بلاد الهبط واستمالهم بالمال وقد جهلوه فأوصلوه إلى أصيلا وعبر البحر إلى الاشبونة قاعدة برتقال ، وكان القائم بها يومئذ بأمر برتقال من بعد بستيان عمه فرديال ثم هلك لحولين من ولايته فقام بالأمر من بعده دون أنطون هذا ثم طمع طاغية قشتالة أن يغلبه على ملكه بها وأعانه على انتهاز الفرصة فيه ما قدمنا من تلاشي أمر برتقال باستيصال عداتهم وهلاك جموعهم بوادي المخازن الكائن للمسلمين عليهم على يد أمير المؤمنين فزحف إليهم بعساكر قشتالة وكانت أكثر أمم النصرانية جمعاً فخرج دون أنطون لدفاعه فيمن بقي من جموع برتقال فالتقى الجمعان بساحة الاشبونة فكانت الدائرة على دون أنطون ونجى إلى مملكة

بلاد نكلطيرة ابذبيل فنزل منها خير نزل فأوته وشمرت لنصرته » (المناهل ص ١١٢) .

٢ — وصف المارك والحروب التى جرت بين الأسبان والإنجليز :

« فأظلم الجو بالفتن على طاغية قشتالة وتهالكت فى مشاقته ملوك الأمم النصرانية فكان أشدهم تكالباً عليه وأكثرهم جراءة على الإجلاب على ممالكه والتضييق عليه والأخذ بمخنقه إيزبيل سلطانة ممالك بلاد نكلطير ... ثم رام مناهضتها واحتفل فى تجهيز الأسطول لمنازلتها فأوقعت به أساطيلها وارتد على أعقابه مغلولا » (المناهل ص ١٣٥) .

٣ — وصف معركة الأرمادا : [من رسالة المنصور إلى أهل سوس — رسائل سعدية . ص ١٥٠] .

« ذلكم أن عدو الدين الكافر جدد الله حزنه وقوض ركنه وهو طاغية قشتالة الذى هو اليوم ضد الإسلام وعميد الشرك الذى يشرع إليه اللهدم والحسام كان من أمره مع سلطانة بلاد نكلطيرة التى قيض الله منها عدواً من جنسه وضداً شغله عن نفسه بسبب عداوة نشأت عن نزوعها هى وقومها عن ديار النصارى ، وشرعتهم والخروج عن ملتهم فكانت لذلك تغزى الطاغية منذ سنين بأسطولها فى عقر داره وتستأصل المرة بعد المرة بسيوفها جماهر حماته وأنصاره وتقيم كل يوم فى أرضه مآتم ، وتهجم على أساطيله مع البحر غربانها هجوم الليل العاتم حتى إذا استشرى داؤها العضال وعضته من حروبها الأسنة والنصال سولت له نفسه تجهيز الحركة إلى أقطارها ومنازلتها بمجموعه فى عقر دارها إظهاراً لقوته وإيذاناً من الله باستحصاد شوكته فشمر للأهبة والاستمداد واستنفذ فى الاحتفال الطارف والتلاد حتى تجمعت له من الأساطيل عمارة حافلة مكث فى جمعها أربعة أعوام تباعاً استفرغ فيها غاية مقدوره وجهده واستعمل فيها كل طاقته وجده وعندما كملت أجراها إلى البحر وشحنها بأمم لا تحصى من جموع الشرك ، وأحزاب الكفر بحيث لم يبق أحد من أحزابه (.) فما فوقه بسائر أقطاره ، وبلاده وقوضت إلى بلاد نكلطيرة تخوض نحوها الأمواج وتبتغى إليها السمو والمعراج حتى إذا دنوا منها وقد أخذت أساطيلها لحربهم الأهبة والاستمداد وقعدت لهم بمنتهى جزيرتها وحدود أرضها بالمرصاد أرسلت

الله على أساطيل الطاغية من عنده ريحاً صرصراً ألحمتهم فى بلاد العدو على غير نظام ونكست لهم الرايات والأعلام فاغتنمت منهم نكلطيرة الفرصة فابتدروا انتهازها وهجم أسطولهم على تلك العمارة القوية فردوا على صدروها أعجازها وأقبل تيار الهلكة على جموع قشتالة كافة واستأصل الله سبحانه لهم الشأفة فلم ينج من الغرق سوى من استأصله السيف وعاجله بحمد الله تعالى السيف ولا خلو من الورطة فى تلك الجموع الكفرية ولله المنة على كثرتها وأربابها على الرمل والحصى فى عددها وعدتها إلا قبطان مدينة لا غير وهو قائد تلك الجموع الكافرة والعصابة الرائحة بالصفقة الخاسرة أفلت وحده من شرك الردى جريحاً ، وكان له الموت لو وجده شافياً من تجرع تلك الغصة ومريحاً » .

٤ — إيليزابيث ومساعيها لدى المنصور لتأييد (دون أنطونيو) ضد الأسبان.

« ثم نظر فى أمره فردا أن جبر صدعهم وبناء ما تهدم من ملكهم لا يتأتى إلا على يد أمير المؤمنين الذى فى هلاكه ضرهم ونفعهم وجبرهم وصدعهم وأنه لا قدرة على تشييد ركنهم إلا نقضه بمعاول سيوفه الأمامية وأسنته اللهدمية فاستخدم له ومد إليه يد التأميل من وراء البحر ، وأوفد عليه ابنه من بلاد لنكاطير صريخاً وضارعاً فنزل باسفى قاعدة البحر ، وبلغ إلى أمير المؤمنين على مكناسة من طريقه لفاس خبر وصوله غرة ربيع النبوى [فاتح ربيع الأول عام ٩٩٧هـ . الموافق منتصف يناير سنة ١٥٨٩] فسرح إلى ابنه المولى الأمير أبى فارس بالحضرة يأمره بإرسال كبير الموالى العلوجى بابه القائد محمود لصحابته فوصل به وأنزل بصهريج المنارة من بساتين الخلافة بساحة الحضرة ، وأقيم له هنالك من رسوم الكرامة ما يليق بعظماء القوم أمثاله » (المناهل ص ١١٣) .

٥ — المولى أحمد المنصور وموقفه من الحروب الأسبانية — الانجليزية .

« كان أشدهم تكالباً عليه وأكثرهم جرأة على الاجلاب على ممالكه والتضييق عليه والأخذ بمخنقه إيزبيل سلطانة ممالك بلاد نكاطيرة لإغراء مولانا أمير المؤمنين إياها بمناوأته وشحذ عزائمها على عداوته ومظاهرتها على مغالبته بما أمدها به من النحاس لتفريغ مدافع النار وإطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة

وإمدادها بالمعادن التى أعوزتها ببلادها فناصبها أيده الله فى وجه عدو الدين وقيض له منها أيده الله بمقتضى حزمه، وواسع تدبيره، وشده احتياطه شاغلا يشغله تفرغاً واستجماعاً إلى ما كان أيده الله صرف إليه وجه عزائمه الماضية من تجهيز العساكر إلى بلاد السودان التى فتحها، وملك أرضها فتم له أيده الله فى ذلك تدبيره وكمل فى نكاية عدو الدين مراده وقصده واعتزت صاحبة بلاد نسكلطير بمظاهرته وطاوعته على ما أغراها به وتوكات على منساة الإسناد إلى عالى جنابه والاعتضاد بعظيم سلطانه والاستمداد من شريف إيالته وضخامة ممالكه وقاومت بذلك الطاغية على ضيق خطتها فشمرت لمشاقته ومضايقته فنازلت أولا بعساكرها الأشبونة قاعدة بلاد برتقال من ممالكه » (المناهل ص ١٣٥) .

٦ — تطور الصراع الانجليزى — الأسبانى بعد الأرمادا :

« فازدادت بذلك جرأة عليه وبالغت فى الاحتفال له فملأت عليه البحر أساطيلها وجرت عليه هزائم وأتيح لها عليه الظهور، وأغلت فى مضايقته حتى هجمت أساطيلها على أسطوله بمرسى قالس من سواحله فنالت منه سبياً ، وتغريقاً وملكت عليه البحر أجمع فكادت أساطيلها تقطع عنه منافع الهند ، ومجابية ، وعطلت على بلاده مرافق البحر والتجر وضاق منها مخنقه إلى اليوم » (المناهل . ص ١٣٥) .

٧ — فيليب الثانى ملك الأسبان والحروب الدينية بفرنسا :

« ذلك أن ملك الأفرنج كان فى القديم من أضخم الدول وأفخم الممالك ، وأوسع الأيالات خطة وأعمالا ثم رجع القهقرى شيئاً فشيئاً حتى ضاق نطاقه ، وتوزعت ممالكه فغلب على بعضها طاغية قشتالة عند ركود ريح الدولة الأفرنجية ، وتقاصر قدرتها بالضعف العارض للدول عند هرمها ، ووافق ذلك ما كان من تحويل جمهور أهل تلك الممالك إلى الدين الحادث فى الأمم النصرانية المعروف بلا تريان فكان ذلك أعون على خذلان ملك الإفرنج لإطباق رعاياه على الانتقال لهذا الدين فصمم هو على دينه الأول، ورام رعاياه يسوقهم بعصى القهر إلى دينه فاستعصى عليه شأنهم فتجافى عنهم وتركهم ودينهم مداجاة وهوادة وليس له مع ذلك وارث يرث ملكه ذكراً والبنات لا يرثن الملك فى دينهم كما يرثن عند غيرهم من

النصارى فلم يكن أقرب إليه وأحق بأرثه من ابن عم له سلطان أهل نباره الوارث لملكهم من طريق الخؤولة ، وكانوا على دين لاتريان فطمع لذلك طاغية قشتالة فى ملك الإفرنج لانقطاع وارثه وتحول دين أهله فاعتمل فى التضريب بين سلطانهم وقومه وأغرى بعض أهل بارس قاعدة ملكهم بالفتك به فاستحكمت النفرة بينهم وبين سلطانهم وتوجس فى نفسه خيفة من ذلك فانتقل عن بارس إلى روان إحدى ممالكه ووصل يده بيد ابن عمه صاحب نباره ثم عاود باريس منازلا لها فدس إليه أولياء طاغية قشتالة من أهلها بالغدر على يد قسيس فطمنه ثم غالية السلطان المطعون على سلاحه فقتله به فى الحين ثم هلك هو من طمنته فصار بسبب ذلك لصاحب قشتالة من مملكة أفرانصة برطانية ويرجوم والبعض من نباره ، وصارت باريس بعد خروج صاحب أفرنصة عنها ليجيبه وممثاها جماعة تدير الأمر وصاحب قشتالة معهم فى تلك اللجة كأحد تلك الجماعة ، وكان يعدهم بجيشه الذى بأفلانطس ثم ملك صاحب نبارة ابن عم السلطان الهالك باريس ، واتصل أهل أفرانصة ، وانضم بعض فقويت شوكتهم واستفحل أمرهم ، وتعاظمت صولتهم فسمت هممهم إلى استرجاع ممالكهم ومعاودة سلطانهم وشمروا لمغالبة طاغية قشتالة على ما يليهم من ممالكه فصمدت عساكرهم إلى باريس فنازلوها وأجلبوا على أعماله وممالكه وزاحموه بالمناكب ولاحت لهم بوارق الظهور عليه فتهالكوا لهذا العهد فى مضايقته ووقفوا له بمدارج النفس فضاق منهم مخنقه وتكالبوا عليه مع صاحب بلاد نكلطيرة كل من جهته» (المناهل ص ١٣٦) .

٨ — ثورة الأراضى المنخفضة ضد الأسبان :

« ثم عززوا بثالث الأثافى من أهل فلنضس ، وهم أهل مملكة الطاغية القديمة التى منها أصله وقد انقضوا عليه وصاروا عليه إلباً مع الإفرنج وأهل بلاد نكلطيرة فأضرموا عليه جهات ممالكه ناراً وفتنة وصلى بنار حروبهم براً وبحراً فظهروا عليه ظهوراً أطمعتهم فى انتشار سلكه ومقاسمة ملكه » (المناهل . ص ١٣٦) .

٩ - احتلال الأنكليز لمدينة قادس وأهمية ذلك سياسياً واقتصادياً :

« وفى هذا التاريخ (يقصد الفشتالى سنة ١٥٩٦) صمد إليه أسطول سلطانة بلاد نكلطيرة فى مائتى مركب ونيف مشحونة بجيوش وافرة وعساكر النار على احتفال

عظيم يقدمها دون كشطوبان الذى كان أوفده على أمير المؤمنين والده دون أنطون سلطان برتقال النازع إلى بلاد نكلطيرة عند تغلب طاغية قشتالة على الاشبونة حسبما قدمنا وطارت لنوى زحفها طيارات الطاغية وتصاعدت من الذعر إلى أوكارها مشرقة ومغربة حذاراً من انقضاض التح الـكواسر عليها من مراكب أهل نكلطيرة الماثلة لعظمها وجفائها على ثبج الموج كالمعاقل الحصينة فأجابت على مدينة قادس من مدن سواحل قشتالة ، وهى الباب الأعظم إلى ممالك الطاغية ومتون النظائر الثقيلة من بلاده ، ومحط رجال الأموال الطائلة من أرضه ومرسى أسطوله وفرضة المجاز إلى ممالكه والمقيلة الماثلة على كرسيها من بحر الزقاق آنفة وعزة وتحصيناً فاقتضى عذرتها أسطول الانكليز ، واستباحوا حماها وكانت أغربة الطاغية الأندلسية وأسطوله (   ) مسفر الهند جاثمة عليها ومحامية دونها فأوجف عليها أسطول الانكليز ولم يكن لها من قبل بمدافعته فأوقع بها ، وكانت فيما زعموا خمس مراكب للطاغية مشحونة بالأموال يقال فيها من السلع النافعة بأرض الهند النامية الأرباح يساوى المثين من الآلاف فأتيح للانكليز الاستيلاء عليها والظفر بها واكتسحوا الأساطيل ثم أضرموا أعوادها ناراً فأتى عليها التدمير تغريقاً وتحريقاً ثم اقتحموا المدينة عنوة واستولوا عليها بالسيف غلباً وقهراً فاستباحوها وأطلقوا أيدى العيث فيها فحصلوا من أموالها الطائلة وذخائرها المستبحرة وتجائرها الثقيلة على ما لا يضبطه قلم حاسب ولاذ التجار من أهلها وأكابرها وحاميتها بقصبتها (   ) العساكر ونصبوا عليها مدافع النار وشاهدوا الموت الأحمر فألقوا باليد واستامنوا وطلبوا الإبقاء على مال بداره فداء يقال إنه مائة وأربعون ألف دقاة ، ويقال مائتان ، وبعثوا إلى قومهم بأشبيلية فأعطوها عن يد فأخرج عنهم عساكر الإنكليز فخرجوا متسايلين إلى أرضهم ناجين بأنفسهم من بين الناب والظفر ومغتنمين الإبقاء عليهم واجتمعت على المدينة العساكر وسائر عمارة الأسطول وتهالكوا فى تخريبها ، وأضرموا بيوتها ناراً فأصرعوها إلى الأرض وألصقوا مبانيها وقصورها بالرغام فأصبحت أطلالا دراسة كان لم تغن بالأمس ، وأقلعوا عليها ستة عشر يوماً منادين هل من مبارز فأعطاهم الطاغية الأذن الصماء وقد عظمت فيه النكاية وحلت به المصيبة وقد تصاعد أسطول الانكليز لهذا العهد من بعد تخريب قادس مع بحر الزقاق للعيث فى سواحل الطاغية وتدمير أرضه والإجلاب على ممالكه والتضييق عليه والمبالغة

فى نكايته وهو متطاحن لصولتهم ومستكين لا ينبس له عرق بحركة ولا يختلج منه خافية ولا قادمة لنهوض ولا مدافعة وألبسته هذه المرة الشنعاء الذل والصغار وجللته الهوان عند الملوك أضداده فأطمعتهم بيه وفغروا أفواههم من كل جانب إلى التهامه مكن الله منه بعنايته وعزته حزب الإسلام وجعل ملكه نهبة سيوف مولانا الإمام » (المناهل . ص ٤٣٧) .

* * *

مصادر البحث :

١ — مناهل الصفا . عبد العزيز الفشتالى . مخطوط بخزانة القصر الملكى بالرباط رقم ٢٧٤ .

٢ - عصر المولى أحمد المنصور الذهبى . أطروحة الدكتوراه للدكتور عبد الكريم كريم .

أتباع سان سيمون ونشاطهم فى مصر

(١٨٣٣ - ١٨٣٦)

د. محمود صالح منسى

سان سيمون (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) :

ينتسب السان سيمونيون إلى الكونت « هنرى دى سان سيمون Claude Henri de Rouvroy de Saint Simon » صاحب المذهب الاشتراكى الذى نشأ فى فرنسا خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر ؛ فقد كان دائم التفكير فى أحسن الوسائل للنهوض بالإنسان والمجتمع الإنسانى كله ، وصار يرى أن هذا الأمر لايتحقق إلا بوسيلتين هما العلم والصناعة . ولذلك وثق « سان سيمون » صلته بكثير من أساتذة وخريجى مدرسة الهندسة العليا Ecole Polytechnique ، ورغم قلة ما لديه من مال فقد استطاع — بمعونة بعض أصدقائه — أن يصدر بعض المطبوعات مثل صحيفة « الصناعة L'Industrie » وصحيفة « السياسة La Politique » وكتاب « المنظم L'Organisateur » وكان آخر ما كتبه هو (المسيحية الجديدة Le Nouveau Christianisme الذى ظهر فى ابريل من عام ١٨٢٥ وفيه أوجز « سان سيمون » الرسالة التى يجب أن يضطلع بها القرن التاسع عشر ألا وهى تحسين أحوال الطبقة العاملة أكثر الطبقات عدداً وأشدها بؤساً .

ويعتبر « سان سيمون » مؤسس الاشتراكية الفرنسية ، فقد آمن بالمبادىء الاشتراكية وعمل على نشرها ، ولما كان يعتقد أن تقدم العالم مرهون بأمرين اثنين هما العلم والصناعة فقد دعا إلى قيام دولة صناعية على أن يديرها العلماء لا الطبقات الأرستقراطية أو العسكرية ، وعلى أن تستهدف هذه الدولة إنتاج الأشياء المفيدة للحياة باستغلال قوى الطبيعة استغلالا علمياً منظما يقوم على التعاون بين الأفراد . كما كان « سان سيمون » يرى وجوب امتلاك المجتمع لأدوات الإنتاج حتى يتحرر العامل من الفاقة والبؤس ومن الشروط المجحفة التى كان يفرضها عليه أصحاب العمل ، وتضطره ظروفه القاسية من الجوع والحرمان إلى قبولها ، وبذلك لا يتحكم

أصحاب العمل فى العمال ، ويصبح العمل متوفراً لكل قادر عليه ويعطى كل فرد حسب إنتاجه .

وإلى جانب ذلك كان (سان سيمون) يتمنى أن يرى المجتمع الأوروبى وقد ألقى السلاح ونبذ الحروب وجنح إلى السلام ، ووسيلة ذلك — فى رأيه — العمل على الحد من التعصب الوطنى وإيجاد نوع من الاتحاد بين شعوب أوروبا ، مع احتفاظ كل منها باستقلاله القومى وحكومته المحلية ، على أن تقوم أنظمة للحكم متشابهة فى مختلف الأقطار الأوروبية من شأنها أن تساعد على التقارب بينها ، وإلى جانب هذه الأنظمة المحلية تقوم حكومة عالية وبرلمان أعظم لتنفيذ المشروعات العامة التى تعود بالنفع على المجتمع الأوروبى كله .

ومن الأسس الهامة التى قام عليها مذهب (سان سيمون)، دعوته إلى الجمهورية كنظام للحكم فى المجتمع الصناعى الذى نادى بقيامه ، فقد كان يرى أن الجمهورية أفضل النظم لأنه فى ظلها تتوفر الحياة الحرة الكريمة لكل مواطن دون استغلال .

وبعد وفاة (سان سيمون) فى ١٩ مايو ١٨٢٥ خلفه فى زعامة أتباعه الأب (بروسبير انفانتان Prosper Enfantin)واستمر نشاط الجماعة وازداد عدد أعضائها وانضم إليها كثيرون من خريجى مدرسة الهندسة العليا الذين كانوا يعتبرون من أقدر الناس على تحقيق أفكار السان سيمونيين وتنفيذ مشروعاتهم ، حتى لقد كان (انفانتان) يعتبر أن مدرسة الهندسة العليا هذه هى المصدر الذى تشيع منه أفكارهم فى المجتمع ، وأن العلم الذى رشفه أعضاء الجماعة فى هذا المعهد الأثير هو الذى سيغذى الأجيال التالية[1] .

ولم تلبث الحكومة فى فرنسا أن رأت فى وجود جماعة السان سيمونيين خطراً يتهدد الأمن العام ونظام الحكم القائم ، واتهمتهم بأنهم فى أحاديثهم يحضون الناس على الثورة ، ولذلك فسرعان ما عمدت إلى حل الجماعة وأودع زعماؤهم سجن (سان بلاجى St. Pelagie) منذ ديسمبر ١٨٣٢ حتى أغسطس ١٨٣٣ عند ما اعتزموا الرحيل إلى مصر .

السان سيمونيون ومشروع القناة :

لقد كان مجىء السان سيمونيين إلى مصر عام ١٨٣٣ يهدف أولا وقبل كل شىء

---

(١) D'Allemagne, R. : Les St. Simoniens (Paris 1930), p. 87.

إلى تنفيذ مشروع القناة بين البحرين المتوسط والأحمر ، وقد راودت هذه الفكرة (سان سيمون) مثلما راودته فكرة شق قنوات أخرى مثل قناة (انبارتيدو) فى المكسيك بين المحيطين الأطلنطى والهادى ، والقناة بين مدريد والبحر المتوسط ، والقناة بين الدانوب والراين ، والقناة بين الراين وبحر البلطيق ، إلا أنه عندما مات (سان سيمون) عام ١٨٢٥ لم يكن قد تجاوز مرحلة التفكير فى مشروع القناة بين البحرين المتوسط والأحمر ، فترك الفكرة لأتباعه يتعهدونها ، فأخذ خليفته (انفانتان) يعمل من أجل شق هذه القناة التى اعتبرها — هى وقناة بناما — ذات أهمية قصوى فى سبيل تقدم التجارة وما سوف يترتب على ذلك من ازدهار الحضارة وربط شعوب العالم بعضها ببعض ، ورغم أن الحكومة الفرنسية حلت الجماعة وسجنت زعماءها فلم يفتأ هؤلاء فى سجنهم يفكرون فى المشروع ، حتى أصبحت أفكار الأب (انفانتان) وخططه — عندما أطلق سراحه فى أغسطس ١٨٣٣ تدور حول الرحيل الى مصر وشق قناة فى برزخ السويس، فأعرب أنفانتان فى إحدى رسائله بتاريخ ١٨ أغسطس ١٨٣٣ إلى زميله (بارو Barrault) عن اعتقاده بأنه « يقع على عاتقنا أن نشق بين مصر وبلاد اليهود القديمة (يقصد فلسطين) طريقاً من الطرق الجديدة التى تصل أوروبا بالهند والصين ، ولسوف نشق بعدئذ طريقاً آخر فى بنما ، وبذلك نضع أحد أقدامنا فى بلاد النيل والآخر فى بيت المقدس ، فى حين يمتد ذراعنا الأيمن على مكة ويصل ذراعنا الأيسر إلى روما . ويظل مرتكزاً على باريس ، إن السويس هى مركز حياتنا العملية ، وفيها سوف ننفذ العمل الذى ينتظره العالم منا لكى نثبت قوتنا وشدة بأسنا »(١) .

وتحدث (انفانتان) مرة أخرى عن واجب إحياء مشروع توصيل البحرين المتوسط والأحمر فكتب فى ٢٨ أغسطس ١٨٣٣ إلى (اردوان M. Ardoin) — أحد الذين يهتمون بنشاط السان سيمونيين ويولون صحفهم — مؤكداً أن قيام السان سيمونيين بتوصيل البحرين يعتبر عملا عظيما ، وأن الإسهام فى هذا العمل يجب أن يصدر عن شعور قوى يفيض بالحماس والإخلاص « لأن المجد سوف يكون جزاء أولئك الجنود المسالمين الذين سوف يضطلعون بتنفيذه »(٢) .

---

(١) Lettre d'Enfantin à Barrault, citée dans : Oeuvres de St. Simon et d'Enfantin, T. IX, pp. 56, 7; D'Allemagne, p. 357.

(٢) Lettre d'Enfantin à M. Ardoin en 28 août 1833 (Arsenal 7647, fo. 490) citée dans : Oeuvres .... T. IX, p. 64; D'Allemagne, p. 359.

ولقد عبر زعماء السان سيمونيين الآخرون مثل أرلس دوفور Arles Dufour و (فورنل Fournel) عن نفس الآراء .

ويرجع اهتمام السان سيمونيين بمشروع القناة ومحاولة تنفيذه وتمسكهم به قرابة قرن من الزمان ، أنه كان شديد الصلة بالمبادىء التى آمنوا وبشروا بها من عهد زعيمهم الأول (سان سيمون) ولأن المشروع كان يحقق كثيراً من الأهداف التى يسمون إلى تحقيقها ، فقد أعلن الأب (انفانتان) أن المشروع يعتبر أولى ثمرات سياستهم الاقتصادية[١] ، إذ كان التصنيع أساس فلسفة (سان سيمون) الاجتماعية باعتبار أن المجتمع الصناعى هو أقدر المجتمعات على إسعاد المواطنين ، ولكى يستمر النشاط الصناعى كان لا بد من قيام حركة واسعة للتبادل التجارى بين الشرق والغرب من أجل الحصول على المواد الأولية وتصريف منتجات المصانع ، وكان شق القنوات المائية فى مقدمة أنواع المواصلات التى تسهل التبادل التجارى .

وإلى جانب ذلك كان السان سيمونيون يرون أن النزعة القومية سوف تختفى لتحل محلها فكرة الإنسانية العالمية والوحدة المشتركة إذا ما تم ربط جهات العالم بوسائل المواصلات المختلفة ومنها القنوات المائية والسكك الحديدية . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان من الطبيعى أن تتسبب أفكار السان سيمونيين الاشتراكية والجمهورية فى إثارة سخط الحكومة فى فرنسا وأن تنظر بعدم الارتياح إلى مساعيهم لنشر هذه الأفكار وكسب الأعوان ، لما فى ذلك من خطر على الملكية وعلى الطبقة المتملكة فى فرنسا فى عهد (لويس فيليب) وهى الطبقة المتوسطة ، حتى لقد اعتبرت الحكومة الفرنسية أحاديثهم ومقالاتهم إنما هى وسائل لحض الناس على الثورة ضد السلطات القائمة. ومما زاد فى كراهية السان سيمونيين أنهم كانوا يتطلعون إلى تولى الحكم فى فرنسا واعتقدوا أن الواجب يقتضى الملك (لويس فيليب) أن يتخلى لهم عن مكانه لأنهم أكثر منه مقدرة وكفاءة على تسلم أمانة الحكم . وقد كتب (ميشيل شيفاليه M. Chevalier) وهو فى السجن يتنبأ بأنهم سيصلون إلى مقاعد الحكم خلال أربع سنوات . ولم يكن (شيفالييه) يرى ضرورياً أن يرأس الأب (أنفانتان) حكومة جمهورية فى فرنسا أو يتولى الوزارة فيها فرد بذاته

---

(١) Micard : Le Canal de Suez et le Genie francais, p. 67.

من قادة السان سيمونيين ، بل كان مقصده أن يتولى الحكم فى فرنسا أناس يؤمنون وحسب بالمبادىء السان سيمونية(١) .

لهذه الأسباب جميعاً لم تعد الحكومة الفرنسية راضية عن هذه الجماعة ، وإنما اعتبرتهم عنصراً من عناصر الفتنة والاضطراب وأنهم يتخذون من العمل على تحسين أحوال الفقراء ستاراً يخفون وراءه نواياهم الحقيقية ، ولذلك أخذت فى مطاردتهم ولم تلبث أن قدمت — فى أغسطس ١٨٣٣ — زعماءهم وخصوصاً الأب (انفانتان) و (ميشيل شيفالييه) إلى المحاكمة بتهمة القيام بأعمال مضرة بالنظام الاجتماعى القائم ، وصدر الحكم فى ٣٠ أغسطس من نفس العام بالسجن عاماً على زعمائهم كما نص الحكم على حل الجماعة ومصادرة مطبوعاتها .

وشعر السان سيمونيون بشدة وطأة الحياة التى صاروا يحيونها فى فرنسا بسبب الاضطهاد الذى لاحقتهم به السلطات الفرنسية الأمر الذى جعل (بتى Petit) يحبذ رحيل الأب (انفانتان) ليقضى فترة من الوقت بعيداً عن فرنسا حتى يمهد لنفسه سبيل العودة « فلا يعود خائفاً مكروهاً مهيناً كما كان ، ولكن ليعود وقد اكتسب محبة الناس وصار هؤلاء يرغبون فى عودته . . . » وذلك بقيامه بعمل مجيد خارج فرنسا يضفى عليه الشهرة(٢) ، ويؤدى إلى رد اعتباره(٣) .

وهكذا نرى أن السان سيمونيين عند ما أحسوا بأن حكومة فرنسا قد صارت غير راضية عنهم أخذوا يتحدثون عن مشروع يشغلون به جهود الجماعة ، يكون ميدانه خارج فرنسا ذاتها ، ومن شأنه العودة بالنفع على فرنسا وتقوية مركزها وذلك حتى يكسبوا رضا الحكومة الفرنسية ، ذلك الرضا الذى افتقدوه بسبب أعمالهم وآرائهم التى رأت فيها خطورة على الحكم القائم فى فرنسا آنذاك .

ولقد كان بسبب هذه الرغبة إذاً أن قر رأى السان سيمونيين على الرحيل

---

(١) Lettre de M. Chevalier à Algae St. Hilaire, sans date, Arsenal 7706 : D'Allemagne, p. 316.

(٢) Lettre d'Alexis Petit à M. Lemonnier en août 1833, Arsenal 7771 : D'Allemagne, p. 357.

(٣) Aisenal 7704, D'Allemagne, p. 360.
Lettre de M. Chevalier à Arlés Dufour en 28 août 1833,

إلى مصر ، التي أرادوا أن تقوم بها « خارج فرنسا » أكبر مشاريعهم الإنشائية إطلاقاً ، فيقوى بفضلها مركز فرنسا ، أما المشروع الذى أرادوا تنفيذه ، فكان حفر قناة تربط — بطريقة ما — بين البحرين المتوسط والأحمر ، ذلك المشروع الذى كانت فرنسا توليه أهمية خاصة ، وبذلك ترتفع مكانة السان سيمونيين فى نظر حكومتهم ويثبت لها نفعهم كجماعة تعمل لصالح الأمة الفرنسية .

أما الحكومة الفرنسية فقد كانت من ناحيتها ترحب برحيل السان سيمونيين ، حتى لقد صار المسئولون الفرنسيون يشجعون أصحاب السفن التجارية على نقل السان سيمونيين إلى الشرق على أن يقوم المسئولون بسداد نفقات الرحلة إذا عجز السان سيمونيين عن سدادها .

وقد لفت نظر السان سيمونيين موقع مصر ، فهى كما يقول الأب (انفانتان) أهم أجزاء أفريقية ، يمر بها المسلمون من مختلف أنحاء القارة فى طريقهم إلى الأماكن المقدسة ، كما أنها تقع فى أكثر الجهات ملاءمة لتسيير الحملات إلى مختلف الجهات ، ولدى أهلها استعداد لتذوق العلوم والمعارف ، وبذلك يمكن القيام فى هذه البلاد بمشروعات منوعة تعود عليها وعلى العالم كله بالفائدة كمشروع حفر قناة تصل بين أوروبا والهند فتستفيد مصر عند ما تصبح ممراً لتجارة العالم كله ، وتستفيد أوروبا نتيجة اقترابها من أسواق الشرق(١) .

وكان مما شجع السان سيمونيين على اتخاذ مصر مسرحاً لنشاطهم من جهة وميداناً لمد نفوذ فرنسا من جهة أخرى ، أنه كان يوجد فى هذه البلاد عدد غير قليل من الأوروبيين ، ومن الفرنسيين خصوصاً ، على رأس كثير من المؤسسات التعليمية والصناعية والعسكرية ، واعتقد السان سيمونيون أنه بمعونة هؤلاء ، وكذلك بمعونة الشبان المصريين الذين كانت توفدهم مصر لتلقى العلم فى فرنسا ، يستطيعون تنفيذ هذه المشروعات .

ومن ثم فقد كانت الفكرة التى سيطرت على ذهن الأب (انفانتان) وأعوانه هى غزو مصر اقتصادياً واجتماعياً وليس حربياً سياسياً ، وذلك عن طريق الإسهام

(١) Lettre d'Enfantin à Barrault en 8 août 1833 : Oeuvres de St. Simon et d'Enfantin T. IX pp. 56-7 ; D'Allemagne, p. 357.

فى المشروعات التى يتسنى بفضلها إعطاء فرنسا مركزاً ممتازاً فى مصر ، وقد بلغ من إيمان السان سيمونيين بضرورة بسط نفوذ فرنسا فى مصر أنهم صاروا يدعون الحكومة الفرنسية إلى تأييد دعاوى الدول الأوربية الأخرى وخاصة روسيا وانجلترا فى أملاك الدولة العثمانية الأخرى حتى لا تلقى فرنسا معارضة من جانب هاتين الدولتين خصوصاً قد تحول دون بسط النفوذ الفرنسى فى مصر ، فقد اعتقد الأب (انفانتان) أن ثمة ضرورة ملحة فرضتها « السماء » حتى يشهد القرن التاسع عشر آثارها ألا وهى استعمار الغرب للشرق « لأن الله يدعو روسيا صوب الأناضول وفرنسا صوب مصر ، وانجلترا صوب أرض الفرات من أجل إدخال المدنية الأوربية إلى هذه البلاد المتخلفة ونشر ألوية الحضارة بين ربوعها وذلك بالقيام بحملات صليبية سلمية لنشر الحضارة المسيحية ودعم أركانها »[1] وهذا (لامبير Lambert أحد الذين اشتركوا فى رحلة السان سيمونيين إلى مصر يكتب إلى أنفانتان فى ١٧ ديسمبر ١٨٣٣ بأن فرنسا كانت قد بدأت حملة مسيحية صليبيـة جديدة على عهد الجمهورية عام ١٧٩٨ — ويقصد حملة بونابرت على مصر — وأن ذهاب السان سيمونيين الآن (١٨٣٣) إنما معناه تجدد هذه الحملة لبلوغ الغاية ذاتها .

وهكذا نرى كتابات السان سيمونيين أنفسهم تدحض ما ذهب إليه البعض من أن مشروع رحلة السان سيمونيين إلى مصر لتوصل البحرين قد صدر عن رغبات نبيلة وأفكار وآراء سامية .

* * *

الاعداد لتنفيذ المشروع :

وإذ حدد السان سيمونيون هدفهم من الرحيل إلى مصر حتى شرعوا فى الاستعداد لتنفيذ المشروع ، وكانت استعداداتهم فنية هندسية من ناحية وسياسية من ناحية أخرى ، وقد اضطلع بالجانب الفنى المهندس (فورنيل Fournel) الذى أخـذ فى دراسة المشروعات السابقة لتوصيل البحرين وبخاصة الأعمال التى قام بها فى برزخ

---

(١) Lettre d'Enfantin à Arlès Dufour en 13 Janvier 1836, Arsenal 7615, fo. 400 : Oeuvres de St. Simon. T. XI p. 9; D'Allemagne, p. 328.

السويس المهندس لوبير Lepère على عهد الحملة الفرنسية ، كما نشط السان سيمونيون في ضم عدد من المهندسين من خريجي مدرسة الهندسة العليا بمختلف أقسامها .

كما مهد (أنفانتان) لرحيله إلى مصر بإيفاد مجموعات متتابعة من أعوانه لإعداد العدة لاستقباله هو ومرافقيه ، وكانت أولى هـذه المجموعات تلك التي وصلت إلى الإسكندرية آخر أبريل ١٨٣٣ ، وبمجرد وصولها شرعت في الدعاية لمبادىء الجماعة ، وفي ٢٠ مايو من نفس العام وصلت مجموعة ثانية على رأسها (بارو Barrault) عن طريق الآستانة التي لم يستطيعوا البقاء فيها لعدم رضا الحكومة العثمانية عن مبادئهم حتى أبعدتهم عن البلاد[1] ، فجاءوا إلى مصر وبدأوا بخلع ملابسهم الغربية وحلق ذقونهم حتى لا يبدو منظرهم غريباً فتساء معاملتهم كما حدث لهم في الآستانة .

وهكذا تجمع في مصر من السان سيمونيين نحو عشرين شخصاً قبل وصول الأب (انفانتان) ومن معه من فرنسا ، وقد قام (بارو) ومن معه — قبل وصول أنفانتان — ببعض الدراسات الفنية في منطقة برزخ السويس .

أما النشاط السياسي للسان سيمونيين فيتجلى في محاولة جس نبض الحكومة العثمانية وكذلك حكومة انجلترا لمعرفة إلى أي حد يمكن أن تؤيد كل منهما المشروع أو تعارضه ، ولذلك كتب (فورنل) إلى أحد المتصلين بجماعة السان سيمونيين وهو دكتور (بايلي Bailly) يطلب منه أن يتعرف على وجهة نظر انجلترا إزاء مشروع توصيل البحرين وذلك عن طريق ممثلها في الآستانة .

ولم يكن رد دكتور (بايلي) مشجعاً ، لأنه - كما ورد في خطابه إلى (فورنل) في أغسطس ١٨٣٣[2] — خرج من اتصالاته في الآستانة بنتائج مفادها أن انجلترا تخشى أن يترتب على تنفيذ مشروع القناة ازدياد نفوذ (محمد علي) في مصر بحيث يتفوق على غيره من الحكام الآخرين الذين يتولون الحكم في الأقطار العديدة التي تتكون منها الدولة العثمانية ، كما كانت انجلترا ترى أنه من الواجب عليها إبقاء الهند

---

(١) Lettre de Cognat au Père Enfantin en 9 mai 1833, Arsenal 7708 ; Lettre de Barrault à Enfantin en 9 mai 1833, Arsenal 7646 fo. 128, D'Allemagne 375.

(٢) Lettre de Dr. Bailly à Fournel en Août 1833, Arsenal 7647 fo. 186, D'Allemagne pp. 358-9.

بمنأى عن دائرة نشاط فرنسا والنمسا ، وأنه إذا صارت بحار الهند — بعد شق قناة بين البحرين المتوسط والأحمر — فى متناول الأساطيل الفرنسية والنمسوية فإن مركز انجلترا فى الهند سوف يكون حرجاً ، ومن ثم فإن انجلترا — كما يقول (بايلى) — لا توافق على المشروع ، وإنه إذا كان الإنجليز يبحثون فى استخدام طريق الفرات والخليج الفارسى للوصول إلى الهند ، فذلك من أجل البريد لا من أجل التجارة التى يقنعون بنقلها عن طريق الرأس .

السان سيمونيون وفكرة الحياد :

وإلى جانب ذلك بحث السان سيمونيون وسيلة تنفيذ المشروع وتمويله ، وتوصلوا إلى أنه من الأفضل أن يكون التنفيذ جماعياً فدعوا إلى مساهمة الدول حتى لا تحاول واحدة منها — وعلى الأخص انجلترا — الحصول على امتيازات خاصة ، ومن أجل ذلك أعربوا عن أملهم فى أن ينعقد (مؤتمر أوروبى) من ملوك الدول الأوروبية لبحث تنفيذ المشروع(١) .

وقد بلغ من إيمان السان سيمونيين بفكرة (تدويل) مشروع القناة أنهم فكروا فى فصل منطقة برزخ السويس عن مصر وادعى (أنفانتان) أنه لا يوجد ثمة ارتباط بين البرزخ ومصر ما دامت الصحراء تفصلهما عن بعضهما .

الرحلة :

وفى ٢٩ أغسطس ١٨٣٣ غادر الأب (أنفانتان) باريس مع بعض رفاقه إلى ليون ، ومنها إلى مرسيليا انتظاراً لسفينة تقلهم إلى مصر .

وفى أثناء وجوده فى مرسيليا أوفد (أنفانتان) زميله (دوجويه Duguet) إلى مصر لإعداد العدة لاستقبالهم ، وقد زوده (فورنيل) ببعض التعليمات من أهمها الإلمام ببعض المشروعات العلمية والصناعية التى كانت تشغل بال (محمد على) وذلك تمهيداً للمشاركة فيها حتى تثبت أقدامهم فى البلاد . وأخيراً غادر (أنفانتان) ميناء مرسيليا فى صباح الثالث والعشرين من سبتمبر ١٨٣٣ على ظهر السفينة (ولى العهد

---

(١) Lettre de Fournel à Arlès Dufour de Marseille le 3 Sept. 1833, Oeuvres de St. Simon .... T. IX, p. 90.

Prince Hereditaire ، وبعد شهر كامل رست الباخرة به فى ميناء الإسكندرية فى الثالث والعشرين من أكتوبر ١٨٣٣ ، ومعه ذلك النفر من أتباعه المتخصصين فى الهندسة والزراعة والطب والتعليم والفنون ، أولئك الذين عزم (أنفانتان) أن يكون منهم جالية صغيرة يعمل على زيادتها بالتدريج طبقاً للحاجة إلى خدماتهم ، وإذا ما رأى أن هذا الفوج الأول قد أظهر كثيراً من الكفاءة وحقق كثيراً من الفائدة(١) .

ولم يكن (أنفانتان) مطمئناً لترحيب (محمد على) بهم بعد طردهم من فرنسا ومن الدولة العثمانية ولغرابة مبادئهم ، ولذلك بدأ السان سيمونيون بمحاولة توطيد علاقاتهم بأفراد الجالية الفرنسية فى البلاد وفى مقدمتهم (ميمو Mimaut) القنصل و (فردينان دى لسبس) نائبه وقد استطاع الأخير إقناع (محمد على) بتركهم يقيمون فى مصر ووعده بأن يستخدم سلطاته القنصلية فى ترحيلهم عنها إذا ما سببوا اضطراباً للأمن العام(٢) .

وعند ما فاتح السان سيمونيون القنصل الفرنسى بشأن مشروعهم لشق قناة بين البحرين نصحهم بعدم مفاتحة (محمد على) إلا بعد إعداد مذكرة مدروسة دراسة وافية على أن يمهدوا لمشروعهم بالدخول أولا فى خدمة الباشا حتى يستكملوا دراسة المشروع ويحوزوا ثقة الباشا فيسهل عليهم بعد ذلك الحصول على موافقته على المشروع .

دراسات السان سيمونيين التمهيدية لمشروع القناة :

وقبل وصول (أنفانتان) إلى مصر قام بعض أتباعه ممن سبقوه وهم (الريك Alric) و (كولان Colin) بدراسة منطقة السويس فى بداية أكتوبر ١٨٣٢ وفى ١٦ نوفمبر ١٨٣٢ بعث (أنفانتان) بنفر آخر لدراسة منطقة البرزخ تمهيداً للرحلة التى كان يزمع هو القيام بها بنفسه .

وفى ٢٠ يناير ١٨٣٣ قام (أنفانتان) بالرحلة إلى منطقة البرزخ ومعه عدد

---

(١) Lettre d'Enfantin à Colonel Brack : Oeuvres de St. Simon et d'Enfantin, T. IX, p. 140.

(٢) Bridier, L. : Une Famille Française — Les De Lesseps, p. 330.

من أتباعه المهندسين ، فطافوا بفرع دمياط وزاروا المنصورة وزفتى ثم اتجهوا بعد ذلك إلى قلب البرزخ وساروا بمحاذاة بقايا القناة القديمة حتى وصلوا إلى البحيرات المرة . وقامت بعثة السان سيمونيين خلال هذه الرحلة ببعض الأعمال الفنية الهندسية المتصلة بالمشروع فأجروا بعض المقاييس ووضعوا الخطوط الرئيسية لمشروع قناة .

وبينما كان (أنفانتان) وبعض أتباعه يقومون بهذه الدراسات فى برزخ السويس ، كان (فورنل) فى القاهرة لإقناع (محمد على) بالمشروع ، وبفضل تزكية القنصل الفرنسى استقبل (محمد على) (فورنل) فى الساعة التاسعة من مساء اليوم الثالث عشر من يناير ١٨٣٤ وفى خلال الحديث ذكر (محمد على) أنه يبحث تنفيذ مشروع خط حديدى بين القاهرة والسويس وأنه لذلك طلب أحد المهندسين المختصين من انجلترا ، وسأل الباشا (فورنل) عن الوقت الذى يستغرقه إعداد نموذج لمشروع الخط الحديدى فتعهد (فورنل) بإنجازه خلال أربع وعشرين ساعة . وفى مساء الخامس عشر من يناير مثل (فورنل) مرة أخرى أمام (محمد على) وقدم له النموذج الذى أعجب به الباشا ومع ذلك لم يعهد إليه بتنفيذ مشروع الخط الحديدى ، وكان (فورنل) عنى نفسه بذلك ، إذ كان (محمد على) قد طلب مهندساً انجليزياً لهذه المهمة . ورغم هـذه الصدمة فإن همة (فورنل) لم تضعف وحماسته لم تفتر ، فما زال أمامـه المشروع الأكبر — مشروع توصيل البحرين — الذى من أجله حضروا إلى مصر .

وفى خلال الأحاديث التى جرت بين (محمد على) و (فورنل) فى ١٣ و ١٥ يناير حاول (فورنل) إقناع الوالى بتنفيذ مشروع القناة على أساس أن القناة ستكون محايدة ، وذلك لكى يهدىء من مخاوف (محمد على) من هذه الناحية[١] . وقد قام (فورنل) بالاشتراك مع زميله (لامبير) بوضع مذكرة فى ١٧ يناير ١٨٣٤ ألح فيها على (محمد على) بضرورة البدء فى مشروع القناة قبل أى مشروع آخر ، وترجمت هذه المذكرة إلى اللغة التركية ، وعهد إلى مسيو (ميمو) بتقديمها إلى الباشا فقدمها فى ٢٤ يناير ١٨٣٤[٢] .

---

(١) Oeuvres de St. Simon et d'Enfantin, T. IX pp. 197-8.

(٢) D'Allemagne : Ouv. cit., pp. 400-402.

ولكن (محمد على) كان فى ذلك الوقت يبحث عدة مشروعات لكل منها أنصاره الذين يفضلون مشروعهم على غيره ، فهذا (لينان دى بلفون) يدعو لمشروع القناطر ، والسان سيمونيون يطالبون بالقناة ، أما انجلترا فإنها عن طريق ممثلها (جالواى Galloway) كانت تحبذ إنشاء خط حديدى بين القاهرة والسويس ، وعندما عرضت هذه المشروعات على المجلس العالى فى جلساته التى عقدها أيام ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ يناير ١٨٣٤ تقرر تفضيل مشروع القناطر على غيره من المشروعات .

وقد كان هذا القرار صدمة أخرى (لفورنل) ، ولما كان يعتقد أنه ليس من الممكن تنفيذ مشروع القناطر بنجاح لقلة الدراسات الجيولوجية والهيدروغرافية ، فقد عزم على مغادرة مصر والعودة إلى فرنسا. وعندما وصل هذا النبأ إلى أنفانتان وكان لا يزال فى رحلته الاستكشافية فى برزخ السويس — أسرع إلى القاهرة فى ١١ فبراير وحاول ثنى (فورنل) عن عزمه دون جدوى ، فقد صار (فورنل) يعتقد أن الركود سيشمل السان سيمونيين لعدم موافقة (محمد على) على مشروع القناة الذى هو محور نشاطهم . وقد كان لرحيل (فورنل) أبلغ الأثر على نفس الأب (أنفانتان) الذى اعترف بعجزه عن قيادة الأتباع وترك لهم حرية اختيار الطريق الذى يسيرون فيه ، وكان من أثر ذلك أن فضل بعض السان سيمونيين اللحاق (بفورنل) والعودة إلى فرنسا .

ورغم رحيل هؤلاء ، وفشل السان سيمونيين فى الحصول على موافقة (محمد على) على مشروع توصيل البحرين فقد عول الأب (أنفانتان) ، ومن ظل إلى جانبه على المشاركة فى المشروعات الأخرى لعل الفرصة تسنح فيما بعد ويتحقق حلمهم فى تنفيذ مشروع القناة .

* * *

نشاط السان سيمونيين فى مصر

السان سيمونيون ومشروع القناطر :

لقد رأينا كيف فضل (محمد على) مشروع القناطر على مشروع السكة الحديد والقناة ، فقد كان يعتقد أن القناطر لو أنشئت فإن فائدتها سوف تعود على مصر ذاتها ، أما مشروع السكة الحديد ومشروع القناة فإنه على الرغم مما قد يعود به كل منهما على مصر من فائدة إلا أن الدول الأجنبية تسعى إليهما من أجل فائدتها كما تعارض انجلترا فرنسا بمشروع السكة الحديد ، وتعارض فرنسا انجلترا بمشروع القناة وأيقن (محمد على) أنه لو فضل أحد المشروعين على الآخر فإنه لا بد وأن يغضب إحدى الدولتين(١) . ولذلك فإنه بمجرد أن وافق المجلس العالى على مشروع القناطر عهد (محمد على) فى ٣ فبراير ١٨٣٤ إلى (لينان) ببدء العمل فى القناطر واقترح عليه إشراك من يرى فائدة من إشراكه من السان سيمونيين ، وفى ١٢ مايو ١٨٣٤ بدأ العمل رسمياً فى إقامة القناطر .

ولم يكن السان سيمونيون راضين عن تفضيل محمد على لمشروع القناطر على مشروع القناة ؛ إذ كانوا يعتقدون أن مشروع القناة عمل عالمى يعود بالنفع على العالم كله ويؤدى إلى ترابط أقطار العالم وبذلك تتحقق مبادئهم فى الوحدة العالمية ، بينما كانوا يعتبرون مشروع القناطر — رغم فائدته — مشروعاً يتصف بالأنانية لأنه مشروع قومى بحت لا يفيد إلا مصر وحدها (٢) .

ومع هذا فمنذ اعتزم (محمد على) تنفيذ مشروع القناطر وكلف (لينان) بذلك سارع الأب (انفانتان) بوضع خدماته وخدمات زميله (لامبير Lambert) تحت تصرف الباشا للمساهمة فى مشروع القناطر ، فقد اعتقد السان سيمونيون أن الطريق الوحيد لتحقيق هدفهم وتنفيذ مشروع القناة هو المشاركة فى المشروعات

---

(١) Husny, H. : Le Canal de Suez et La Politique Egyptienne (Montpellier 1923) p. 180.

(٢) Lettre d'Enfantin au General Soliman Bey, en 16 ma 1834, Arsenal 7618 fo. 41 Verso : D'Allemagne, p. 401.

الأخرى فى مصر وإثبات كفاءتهم ومقدرتهم حتى تسنح الفرصة لتحقيق حلمهم الكبير ، ومن ثم فإن مشاركتهم فى مشروع القناطر تعتبر خطوة فى سبيل تنفيذ مشروع القناة ، كما أن الأب (أنفانتان) أراد أن يشغل مهندسيه ومن تبعه من العمال فى عمل ما حتى تحين فرصة مشروعهم الأكبر .

ولما كان أمام (لينان) صعوبات ليست بالهينة فقد قبل ما اقترحه عليه (محمد على) من الاستفادة من جهود السان سيمونيين وقد وجد فعلا من بينهم كثيرين من المهندسين الأكفاء . ومنذ أخذ (أنفانتان) على عاتقه المساهمة فى المشروع أخذ يبدى به اهتماماً كبيراً ، فرفع إلى (لينان) فى ٩ مارس ١٨٣٤ برنامجاً مفصلا للخطوات التى يجب اتباعها تمهيداً لتنفيذ المشروع ، فاقترح البدء بمسح المنطقة وتجهيز المواد والمعدات وتمهيد الطرق الضرورية لنقلها ، كما اقترح إقامة مدرسة للهندسة فى منطقة القناطر يلتحق بها عدد من الطلبة لمتابعـــة المران العملى أثناء دراستهم النظرية(١) .

وكان الأب (أنفانتان) والمهندس (لامبير) على رأس قائمة السان سيمونيين الذين أسهموا فى مشروع القناطر ، فقد غادر القاهرة فى ٩ مارس ١٨٣٤ ومنذ وصولهما إلى المنطقة المزمع إقامة القناطر فيها وهما مشغولان بأعمال القياس ، ومسح المنطقة .

وفى أواخر يونيو ١٨٣٤ بدأت وفود من المتطوعين الجدد يصلون إلى منطقة القناطر وكان فى مقدمتهم (لاشيز Lachèze) ، وكان بصحبتهم زوجاتهم ، وبعض النساء حتى لقد فكر (أنفانتان) فى الاستفادة من هؤلاء باستخدامهن فى تعليم البنات الأوربيات فى مدرسة تنشأ لهــذا العرض فى منطقة القناطر . كما استدعى (أنفانتان) زميليه (أوار Hoart) و (برونو Bruneau) ووكانا لا يزالان فى فرنسا ، فكتب إليهما منذ ١٦ مارس ١٨٣٤ يستدعيهما « من أجل مشروع السويس » وكلفهما باصطحاب عدد من المهندسين ، وخاصة أولئك المتخصصين فى

---

(١) Note-Projet du Père Enfantin à Linant, en 9 mars 1834, Arsenal 7618 fo. 29 : D'Allemagne, p. 406.

الأعمال المائية[١]. وقد وصل (أوار) و (برونو) إلى الإسكندرية فى ٢٠ أغسطس ١٨٣٤ وبصحبتهما الطبيب (فورساد Fourçade) وهو جراح بالجيش الفرنسى ، وحصل على إجازة لمدة عام ، وتوالى حضور أعضاء جماعة السان سيمونيين من فرنسا إلى مصر ولحقوا بالأب (أنفانتان) فى منطقة القناطر ، ففى ١٤ ديسمبر ١٨٣٤ وصلت (سوزان دى فوالكان Suzanne de Voilquin)[٢] ومعها المهندس المعمارى (جوندريه Gondret) . ومهندس المناجم (دروو Drouot) .

وقد شارك هؤلاء فى العمل فى مشروع القناطر وأنجز المهندسون منهم الكثير من الخطط والتصميمات ، وكان السان سيمونيون يعيشون فى منطقة القناطر كمتطوعين ، وقد شهد القنصل الروسى (دوهاميل Duhamel) وفود السان سيمونيين يحضرون للاشتراك فى مشروع القناطر . فذكر أنه كان من بينهم كثير من المهندسين المشهورين الذين تلقوا علومهم فى مدرسة الهندسة العليا[٣] .

ويبدو أن (لينان) كان يشعر أن ثمة مؤامرة تدبر لإبعاده عن إدارة مشروع القناطر ، واعتقد أن (لأنفانتان) يداً فى هـذه المؤامرة لـكى يحل هو محل (لينان)[٤] ، ومن الممكن أن تكون شكوك (لينان) صحيحة ، فلعل (أنفانتان) لمس المقدرة على إتمام مشروع القناطر فرأى أن ينقل إدارة المشروع إلى السان سيمونيين وفيهم كثير من المهندسين الأكفاء ، ولعل (أنفانتان) — بالإشراف الرسمى على المشروع وبخاصة فى تنفيذه — يستطيع بعد ذلك إقناع (محمد على) بمشروعاته الأخرى فى مصر ، وفى مقدمتها مشروع القناة بين البحرين ، ويؤيد ذلك ماعبر عنه (أنفانتان) من أن نجاحهم فى مشروع القناطر — رغم عدم إعانهم به — يدعو إلى الاغتباط ، على اعتبار أنه سيكون تحت إمرته جيش من العمال يقدر بالآلاف يستطيع فيما بعد أن يوجههم إلى مشروعاته الأخرى .

---

(١) Lettre d'Enfantin à Hoart et Bruneau en 16 mars 1834, Arsenal 7618 fo. 21 : D'Allemagne p. 406.

(٢) وقد نشر لها فى عام ١٨٦٦ كتاب بعنوان Souvenirs d'une : fille du Peuple, ou La St. Simonienne en Egypte 1834-36.

(٣) Cattaui : Le Regne de Moh. Ali d'après Les Archives Russes en Egypte, T. II, p 158.

(٤) D'Allemagne, R. : Les St. Simoniens, p. 413.

ومهما يكن من أمر اشتراك (أنفانتان) فى المؤامرة ضد (لينان) فإن إحساس الأخير يدل على أن (أنفانتان) كانت له من الصفات والمزايا ما جعل (لينان) يخشى على مركزه فى تنفيذ مشرعات (محمد على) من أن ينافسه فيهـا ، إذ الواقع أن (أنفانتان) كانت له هيبة عظيمة ليس فقط بين زملائه بل كذلك عند كل من يتصل به ، ورغم أنه كان قد ترك الهندسة منذ مدة طويلة مما جعل البعض يعتقد بأنه لم يعد قادراً على إدارة أى مشروع ، إلا أن وجوده كان ضرورياً وفعالا فقد كان العامل الروحى لنشاط الأتباع .

وإزاء هذا الشعور من جانب (لينان) ورغبة من (أنفانتان) فى أن يستمر الوئام بين (لينان) وبقية السان سيمونيين المشتغلين فى منطقة القناطر غادر (أنفانتان) منطقة العمل وعاد إلى القاهرة حيث أقام لدى (سليمان باشا الفرنساوى) وهناك أتيحت له فرصة التفكير فى هدوء فى مشروعاته العديدة المقبلة . وقد صحب (أنفانتان) (سليمان باشا) فى جولة تفتيشية فى الأقاليم فغادرا القاهرة فى ٧ أكتوبر ١٨٣٤ ووصلا إلى دمياط ، وفى أثناء الرحلة كان (أنفانتان) يبدى كثيراً من المقترحات بشأن الإصلاحات التى كان يرى وجوب القيام بها والمنشآت التى تجب إقامتها فى هذه المناطق ، وعند عودتهما إلى القاهرة فى أوائل نوفمبر ١٨٣٤ وجدا فيها المارشال (مارمون Marmont) الذى كان (لويس فيليب) قد أعفاه من منصبه فى الجيش الفرنسى فقام برحلته المشهورة إلى الشرق ، وبقى (أنفانتان) فى القاهرة حتى ١٤ ديسمبر ١٨٣٤ حين عاد لمزاولة نشاطه فى منطقة القناطر .

وبينما الـكل يعمل بهمة ونشاط فى مشروع القناطر وصل إليهم نبأ اعتزام (محمد على) إيقاف العمل فى المشروع لما لمسه من نقص فى الإعداد له وبسبب انتشار وباء الطاعون ، ذلك الوباء الذى فتك بالـكثيرين من أتباع (أنفانتان) وهم فى ميدان العمل .

وقد كان لتوقف (محمد على) عن السير فى إتمام مشروع القناطر أثره على نفس الأب (أنفانتان) الذى عبر عن عدم دهشته لهذا التصرف واتخذه دليلا على عدم مقدرة مصر على النهوض وحدها بمثل هذه المشروعات « فكل شىء يشهد بعدم

مقدرة مصر على تنفيذ مشروع مماثل دون الاستعانة بأوروبا» [١] ، وأيقن (أنفانتان) كذلك أن مشروع القناة لن يخرج إلى حيز الوجود دون معونة الدول الأوروبية .

ورغم انشغال السان سيمونيين فى مشروع القناطر فإنهم لم ينقطعوا عن التفكير فى مشروعهم الأساسى وهو مشروع القناة ، وفى ذلك يقول الأب (أنفانتان) : « وسيظل ماثلا أمام أعيننا البحر المتوسط والبحر الأحمر والبرزخ الذى سوف نشقه » [٢] .

وفى أثناء زيارة المارشال (مارمون) خلال عامى ١٨٣٤ — ١٨٣٥ تحدث مع (محمد على) فى ١٤ يناير ١٨٣٥ بخصوص مشروع القناة ، فطلب (محمد على) أن ترفع له مذكرة عن المشروع فانتهز (أنفانتان) الفرصة وعهد إلى (لامبير) باعداد مذكرة عن مشروع لتوصيل البحرين على نمط المشروع الذى كان قد وضعه المهندس (لوبير) أيام الحملة الفرنسية كما طلب منه كذلك إعداد خريطة لمصر وغير ذلك من البيانات المتصلة بمشروع القناة [٣] .

إلا أننا لا نكاد نسمع شيئاً عن أثر تلك الدراسة ، ولعل هذا يرجع إلى أن (محمد على) وإن كان يشجع الدراسات والأبحاث المتصلة بمشروع القناة ، إلا أنه لم يكن يرى الوقت مناسباً لتنفيذه ، هذا علاوة على ما حل بالسان سيمونيين من كوارث بسبب موت كثير من الأتباع نتيجة تفشى الطاعون وانشغال من تبقى منهم بأعمال أخرى .

السان سيمونيون ونشاطهم التعليمى فى مصر :

ولم تكن مساهمة السان سيمونيين فى مشروع القناطر هى كل ما تمخض عنه نشاطهم فى مصر فى تلك الفترة ، بل كان لهم كذلك نشاط ملموس فى النواحى

(١) Lettre d'Enfantin à Lambert en 7 Août 1835, Arsenal 7615, fo 17, D'Allemagne, p. 415.

(٢) Lettre d'Enfantin à Hoart et Bruneau en 16 Mars 1834, Arsenal 7618 fo. 21 : Oeuvres de St. Simon et d'Enfantin, T. IX, p. 212.

(٣) Lettre d'Enfantin à Lambert en 15 Janvier 1835, Arsenal 7618, fo. 112, D'Allemagne, p. 414.

التعليمية وهو ميدان له أهمية كبرى فى نظرهم حيث كانوا يرون وجوب تعهد تلك النواة التى بذرها (بونابرت) فى مصر عندما أنشأ المجمع العلمى خلال حملته المعروفة .

وعندما كان (محمد على) يفكر فى إقامة القناطر كان يفكر كذلك فى إنشاء مدرسة الهندسة لتخريج مهندسين يستعين بهم فى تنفيذ مشروعاته المختلفة وقد رأينا (أنفانتان) يقترح فى ٩ مارس ١٨٣٤ على (محمد على) إنشاء مدرسة فى منطقة القناطر ، ولما كان (محمد على) قد اختار بعض تلامذة قصر العينى لدراسة هندسة الرى (١٨٣٣) فقد نقلهم بعد عامين إلى منطقة القناطر [١] ، وهكذا تحققت فكرة (أنفانتان) وارتفع عدد تلاميذ المدرسة إلى ستين ، لولا أن هذه المدرسة لم يقدر لها الإستمرار بسبب التوقف فى بناء القناطر ذاتها ، فضمت عام ١٨٣٦ إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق .

وفى ٢٦ أغسطس ١٨٤٣ رفع (أنفانتان) إلى (سليمان باشا الفرنساوى) — وبناء على طلبه — مشروعاً لإعادة تنظيم المدارس والاشراف عليها ، وقد اقترح (انفانتان) فى هذا المشروع إنشاء (مجلس للتعليم العام) و (لجنة استشارية للعلوم والفنون) وقد تحققت أفكار (أنفانتان) إذ أمر (محمد على) بتأليف مجلس عام للنظر فى تنظيم المدارس وكان (لامبير) من بين أعضائه ، وهو المجلس الذى اقترح عام ١٨٣٦ تقسيم التعليم إلى ثلاث مراحل : ابتدائية وتجهيزية وخصوصية ووضع اللوائح لكل مرحلة ، وبعد انتهاء مهمته حل المجلس ثم تكونت لجنة فى عام ١٨٣٦ أيضاً كانت مهمتها البحث باستمرار فى أمور التعليم أى كانت تختص بالشئون الفنية المتصلة بالمدارس ، وكانت لجنة دائمة عرفت باسم (شورى المدارس) أو (مجلس المدارس) [٢] .

وعندما أنشأ (محمد على) مدرسة للمعادن فى عام ١٨٣٤ آلت إدارتها — قبل

---

(١) وعين (محمد بيومى أفندى) أستاذاً عليهم هناك بعد انتهائه من دراسة الهندسة وأشغال القناطر فى فرنسا :

د. أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٣٦١ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى : بناء دولة ص ٩٧ — ٩٨ .

د. أحمد عزت عبد الكريم : المصدر السابق ص ٩٣ — ٩٧ .

ضمها إلى مدرسة المهندسخانة فى عام ١٨٣٦ — إلى (لامبير) الذى كان متخصصاً فى أعمال التعدين والمناجم ، وبعدما أنشئت مدرسة المهندسخانة ببولاق عام ١٨٣٤ وضمت لها بعد ذلك مدرسة المهندسين بالقناطر الخيرية ومدرسة المعادن بمصر القديمة تقدم (أنفانتان ولامبير) بمقترحات بشأن النظام الواجب اتباعه فيها لكى تكون على نمط مدرسة الهندسة العليا بباريس .

وبعد رحيل (أنفانتان) وبعض أتباعه إلى فرنسا فى أواخر عام ١٨٣٦ شارك من بقى من السان سيمونيين فى كثير من المؤسسات التعليمية ، ففى عام ١٨٣٨ طلب من (لامبير) أن يقوم بالتدريس بمدرسة المهندسخانة ببولاق لأربعة من التلاميذ كانوا قد عادوا من فرنسا دون إتمام دراساتهم ، وفى سبتمبر ١٨٣٨ عين هؤلاء بعد تخرجهم مدرسين بالمدرسة (ولامبير) مديراً لها ، ويشاركه فى الإدارة (حكيكيان أفندى) ، وبعد ثلاثة أعوام نقل (حكيكيان) واستقل (لامبير) بإدارة مدرسة المهندسخانة حتى أبريل عام ١٨٤٩ حين خلفه فيها (على مبارك) (١) .

وقد اهتم (لامبير) بالنهوض بمدرسة المهندسخانة وقد نجحت فى تخريج عدد كبير من المهندسين والمدرسين المصريين وكذلك تعريب كثير من الكتب الرياضية ، حتى أنه فى عام ١٨٤١ بعد أن تمت التسوية المصرية العثمانية وظهرت الحاجة إلى إعادة النظر فى النظام التعليمى فى مصر على ضوء حاجات البلاد الجديدة ، قررت اللجنة المشكلة لتنظيم التعليم الإبقاء على مدرسة المهندسخانة لأهمية خريجيها ، واعترفت اللجنة بالتقدم العظيم الذى أحرزته المدرسة فى النهضة العلمية ، وعزت ذلك إلى دقة ناظرها (لامبير) وهمة أساتذتها (٢) .

ولما تولى (إبراهيم) الحكم فى يونيو ١٨٤٨ عقب اعتزال أبيه وشرع فى تنظيم التعليم على أسس جديدة كان ساعده الأيمن فى ذلك (لامبيريك) ناظر مدرسة المهندسخانة . ولم تكن جهود (لامبير) قاصرة على مدرسة المهندسخانة ، بل كان كذلك يدرس الرسم بمدرسة السوارى كما ساهم أيضاً فى عام ١٨٣٦ فى اللجنة التى

---

(١) أمين سامى : التعليم فى مصر ص ٤٧ من الملحقات .

(٢) د . أحمد عزت عبد الكريم : التعليم فى عصر محمد على ص ١٣٠ ، ٣٦٨ .

نيط بها تنظيم مدرسة الطوبجية [١] .

ولم يكن (لامبير) هو الوحيد من السان سيمونيين عندما ساهم بهذا النصيب الكبير فى خدمة المؤسسات التعليمية فى مصر ، فهذا الطبيب (بيرون Perron) أحد أفراد جماعة السان سيمونيين يتولى نظارة مدرسة الطب البشرى منذ عام ١٨٤١ [٢] وقد أنعم عليه برتبة القائمقام فى أواخر عام ١٨٤٥ ؛ وظل فى منصبه حتى استقال عام ١٨٤٦ وعاد إلى فرنسا ، كما اشترك (بيرون) مع (سليمان باشا) و (لامبير) فى لجنة تنظيم التعليم عام ١٨٤١ .

وقد تولى (برونو Brunoau) إدارة مدرسة الطوبجية بطرة من مارس ١٨٤٠ حتى أبريل ١٨٤٧ [٣] وأقامها على النموذج الذى كانت تسير عليه مدرسة الهندسة العسكرية بباريس ، كما تولى (ديشارم Descharmes) إدارة مصلحة الطرق والكبارى ما بين عامى ١٨٣٨ ، ١٨٤٥ .

ومنذ مارس ١٨٣٤ وضع (أوليفييه Olivier) و (توشيه Toché) و (بوفور Beaufort) مشروعاً لتنظيم مزرعة نموذجية لكى تكون نواة لمدرسة زراعية ، وكان الأب (أنفانتان) متحمساً لهذا المشروع ورأى أن يتولى إدارته رجل كفء ولذلك أرسل يستدعى أحد أعوانه المخلصين من فرنسا وهو (بتى Petit) أحد خريجى مدرسة الزراعة فى (روفيل Roville) وقد أوضح (أنفانتان) لزميله (بتى) فى رسالته إليه أنه وإن كان المشروع الرئيسى بالنسبة لهم هو مشروع القناة بين البحرين إلا أنه من أجل الوصول إلى هذا الهدف لا بد من المساهمة فى النشاط القائم فى البلاد فى مختلف النواحى ، ولذلك فإن (أنفانتان) كان يعتبر مشروع المزرعة النموذجية عظيم الأهمية رغم ما قد يبدو من ضآلته [٤] .

---

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم : المصدر السابق ص ٣٨٠ — ٣٨١ ، ٤٠٠ ـ ٤٠٩

(٢) Oeuvres de St. Simon .... T. XII, pp. 13-15

(٣) أمين سامى : التعليم فى مصر ص ٥٢ (من الملحقات) .

(٤) Lettre d'Enfantin à Petit en 31 Mai 1834, Arsenal 7618, fos. 48-50 : D'Allemagne, p. 419.

ولبى (بتى) نداء زعيمه ووصل إلى مصر فى نوفمبر ١٨٣٤ يرافقه زميل له يدعى (بسكو دى دومبال Dusco du Dombale) وفى ٨ ديسمبر ١٨٣٤ قدم هذا الأخير مذكرة حول تنظيم المزرعة النموذجية بين فيها أن الهدف من إنشائها هو إقامة مدرسة زراعية على نمط مدرسة (روفيل) فى فرنسا ، وهدفها تعليم الزراعة لمائة من الفتيان سنوياً ، والعمل على إدخال آلات الزراعة الحديثة للتقليل من نفقات الأعمال الزراعية وتحسين سلالات الحيوانات وتهجين أصناف جديدة والاستفادة من الألبان فى صناعة الجبن وأقلمة دودة الحرير . وطالب (بسكو دى دومبال) فى مذكرته التى رفعت إلى محمد على بمساحة من الأرض تتراوح بين ١٠٠٠ — ١٢٠٠ فدان وعليها المبانى اللازمة ، ومائة من التلاميذ ممن تتراوح أعمارهم بين ١٤ — ١٨ سنة ، وكذلك المدرسين اللازمين لتدريس العلوم المختلفة[1] ، ولم يطلب صرف مرتبات له ولزملائه فى هذه المدرسة بل طالب بالمشاركة فى أرباحها ، وكانت مدرسة الزراعة التى تأسست أولا بنبروه عام ١٨٣٦ ثم انتقلت إلى شبرا فى عام ١٨٣٩ هى نتاج هذه الفكرة .

وبينما كان الأب (أنفانتان) ومعه (لامبير) منهمكين فى مشروع القناطر كان كثير من أتباع (سان سيمون) فى مصر يسمون لشغل بعض المناصب فهذا (كولان Collin) منهمك فى إعداد إحصاء لمصر ، كما تولى (لامى Lamy) إنشاء حظيرة للماشية ، وأصبح (كونيا Cognat) و (شاربان Charpin) طبيبين بالقناطر و (الريك Alric) يقوم بعمل تمثال نصفى (لمحمد على) (كما طلب) كلوت بك) من (ماشيرو Machereau) أن يقوم بالتدريس فى مدرسة أبى زعبل ، وكان (أوربان Urbain) و (جرانال Granal) يقومان بتدريس اللغة الفرنسية بمدرسة المشاة بالخانكة ، وهكذا تغلغل السان سيمونيون فى كثير من نواحى النشاط فى مصر تحقيقاً لأحد الأهداف التى رسموها لأنفسهم قبيل رحيلهم من فرنسا وذلك بالمساهمة فى المشروعات المختلفة حتى تثبت أقدامهم فى البلاد وتتاح لهم فيما بعد فرصة تحقيق مشروعهم الأكبر — مشروع القناة بين البحرين .

وقد كان (أنفانتان) سعيداً بهذا النجاح الذى حققه أتباعه فى مصر ، ومع

---

(١) D'Allemagne, R. : Les St. Simoniens, p. 419.

ذلك لم يكن جميع أفراد جماعة السان سيمونيين فى مصر يقومون بأعمال تدر عليهم معاشهم؛ فقد تتابعت وفودهم حتى ازداد عددهم وصار من الصعب على الأب (أنفانتان) أن يدبر مصدر الرزق لهم جميعاً حتى لقد اضطر كثير منهم إلى العودة إلى فرنسا .

ولم يلبث الطاعون أن تفشى فى يناير ١٨٣٥ وراح ضحيته عدد كبير من جماعة السان سيمونيين فى مصر ، وعندما توفى المهندس (أوار Hoart) فى ١٢ أكتوبر سنة ١٨٣٥ كان لموته أسوأ الأثر فى نفوس زملائه حتى أنهم اعتبروا أن رسالتهم قد وصلت إلى نهايتها بوفاة (أوار) .

وبسبب انتشار الطاعون رحل (أنفانتان) عن القاهرة بصحبة بعض الأتباع ، فغادروها فى ٢٥ فبراير ١٨٣٥ على إحدى المراكب فى النيل واتجهوا جنوباً ، وفى طريقهم زاروا أبيدوس ومعبد دندره ووصلوا إلى الأقصر حيث زاروا الآثار المصرية القديمة ، وهناك تكررت مقابلات (أنفانتان) مع (ميمو) قنصل فرنسا الذى كان قد لجأ هو الآخر ومعه كثير من أعضاء الجالية الفرنسية إلى الصعيد هرباً من الوباء ، وظل (أنفانتان) فى الأقصر حتى غادرها فى ١٦ سبتمبر فوصل إلى القاهرة فى ٢٣ منه عن طريق النيل .

ولم يكن الموت هو المصير الوحيد الذى كان ينتظر أتباع (سان سيمون) فى مصر؛ فهذا (أوربان Urbain) يتخلى عن كاثوليكيته ويعتنق الإسلام منذ ٨ مايو سنة ١٨٣٥ ، وحذا حذوه (ماشيرو Machereau)الذى تسمى باسم (محمد أفندى) وتزوج من سيدة مسلمة أنجب منها أربع فتيات سماهن بأسماء عربية[١] ، وقد كان هذا الحادث موضع سخرية (محمد على) إذ عبر عن شماتته فى جماعة (السان سيمونيين الذين وفدوا إلى مصر « لتحويل المسلمين عن دينهم فإذا باثنين منهم يتحولان إلى الإسلام »[٢] .

وفى ٨ فبراير ١٨٣٦ احتفل من بقى فى مصر من السان سيمونيين بعيد ميلاد

---

(١) Carré : Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte, T. I, p. 267.

(٢) Lettre d'Enfantin à Algae St. Hilaire en 5 Octobre 1835, Arsenal 7827 : D'Allemagne, p. 422.

الأب (أنفانتان) فاجتمع اثنان وعشرون منهم حوله معبرين عن حبهم وولائهم له ، وأمضوا الليل فى حديث ورقص وشراب[١] .

إلا أنه كان لانتشار الطاعون أثره فى تفرق الأتباع ؛ فغادر بعضهم البلاد عائدين إلى فرنسا ، علاوة على من اختطفهم الموت ووصل عددهم إلى خمسة عشر ماتوا — كما يقول (أنفانتان) « فى ساحة الشرف ، فى سبيل العمل الذى كرسوا له حياتهم تاركين لنا — ولى على وجه الخصوص — مهمة وشرف متابعة السير بعزم فى ذلك العمل الذى سقطوا تحت وطأته » .

ولذلك غادر (أنفانتان) القاهرة فى ٢٣ أكتوبر ١٨٣٦ مع لفيف من أعوانه إلى الإسكندرية التى أبحر منها فى الثلاثين من نفس الشهر فوصل مرسيليا فى ٧ يناير ١٨٣٧ تاركا فى القاهرة بعض الأتباع مثل (لامبير) و(برنو) وغيرهما والبعض الآخر فى الإسكندرية . وعندما عاد (أنفانتان) إلى فرنسا لم يقابل بالحماس الذى كان يحلم به عندما غادرها إلى مصر ، وهكذا انفرط عقد السان سيمونيين فى مصر دون أن يقدر لمشروعهم — مشروع القناة بين البحرين — أن يتحقق ، إلا أن فشلهم لم يجعل اليأس يتطرق إلى نفوسهم ، بل استمر نشاطهم وظلوا متمسكين بالمشروع ، وإذا كان لم يقدر للمشروع أن يخرج إلى حيز التنفيذ إلا على يدى (فردينان دى لسبس) فإن التاريخ يسجل للسان سيمونيين فضلا لا ينكر بل يذكر ويقدر .

---

(١) Souvenirs d'une fille du Peuple, ou la St. Simonienne en Egypte, par Suzanne de Voilquin citée dans : D'Allemagne p. 438.

موقف الكويت

من التوسع السعودى فى نجد وسواحل الإحساء

للدكتور جمال زكريا قاسم

أستاذ مساعد التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

سنعنى فى هذه الدراسة بتتبع مراحل التوسع السعودى فى سواحل الإحساء وما ترتب عليها من تهديد لإمارة الكويت . ولما لم يكن للكويت حدوداً مقررة أو متفق عليها فى المراحل الأولى من عمليات التوسع السعودى فقد ترتب على ظهور السعوديين فى السواحل الشمالية من مقاطعة الإحساء تهديداً خطيراً لكيان الإمارة من الناحية الجنوبية ، هذا بالإضافة إلى أنه نجم عن الإغارات السعودية المتكررة اضطرار قبائل كثيرة إلى الاندفاع من ساحل الإحساء إلى الكويت محتمين بحكامها أو ملتجئين إليهم مما ترتب على ذلك مشكلات قبلية حادة بين الكويت والسعودية .

ويستدل مما لدينا من المصادر المحلية التى تعرضت لنشاط السعوديين فى المقاطعات الشرقية للجزيرة العربية أن التحركات السعودية الأولى على سواحل الإحساء ظهرت بشكل واضح فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، وبالتحديد منذ عام ١٧٨٥ حينما وجه السعوديون هجماتهم ضد أسرة بنى خالد ، وهى قبيلة من أقوى القبائل العربية التى كانت تقطن السواحل الشمالية من الخليج العربى فى ذلك الوقت ، وكان سلطانها يمتد من شبه جزيرة قطر جنوباً حتى البصرة شمالا بمحاذاة ساحل الخليج من ناحية ووسط الجزيرة العربية من ناحية أخرى . ولما كانت تنتشر انتشاراً كبيراً فى الصحراء فقد أتاح لها ذلك السيطرة على طرق القوافل التجارية التى تسلك الطريق بين بغداد ونجد[(١)]. ولقد بقيت هذه القبيلة التى ظهرت إلى مجال السيطرة منذ أوائل القرن السادس عشر ، ونمت فى شبه تنظيم سياسى خلال سنوات القرن السابع عشر تتمتع بدرجة كبيرة من القوة خاصة أن امتلاكها لمقاطعة الإحساء مكنت لها قدراً كبيراً من الثروة نتيجة لما تشتهر به الإحساء من واحات خصيبة وكان مما يضيف إلى رخائها الزراعى انتعاشها من الناحية التجارية إذ أن موانى الإحساء كالقطيف والعقير كانت تعد بدايات صالحة لانطلاق القوافل التجارية إلى نجد

---

(١) جاكلين بيرين — اكتشاف جزيرة العرب ص ١٦٥ .

وأواسط الجزيرة العربية .ولذلك كانت الإحساء مطمع أنظار سكان نجد إذا ماحل بيلادهم الجدب وقد أبدى شيوخ بنى خالد فى مناسبات كثيرة عداءهم للحركة الوهابية منذ أن قامت وكانوا على جانب كبير من القوة بحيث كان فى مقدورهم أن ينقلوا المعركة دائماً إلى قلب نجد واستمر وضعهم على ذلك حتى بدأ مركزهم يتعرض للانهيار السريع نتيجة للصراعات الأسرية التى أخذوا يتعرضون لها والتى يرجح أن يكون للسعوديين دخلا كبيراً فى إثارتها . وقد اشتد التحركات السعودية على سواحل الإحساء فى الفترة ما بين ١٧٨٥ و ١٨٩٣ وتميزت بطابع شديد من الإرهاب والقسوة[١] . حقيقة أن الصراع بين الوهابيين وبنى خالد بدأ منذ أوائل النصف الثانى من القرن الثامن عشر ولكنه لم يتضح إلا فى السنوات الأخيرة من ذلك القرن . وقد أمدتنا المصادر المحلية التى تعرضت للتحركات السعودية ببعض التفصيلات الخاصة بذلك الصراع . وقد يكون من المفيد فى هذا الصدد الرجوع إلى كتابات ابن بشر[٢] وحسين بن غنام وسيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب المعروفة بلمع الشهاب .

وفى عام ١٧٩٣ نجح السعوديون فى الإطاحة بنفوذ بنى خالد . ذلك أن أسرة بنى خالد كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الإعياء الداخلى فضلا عن أنها أصبحت غير قادرة نتيجة لعوامل الضعف التى تمكنت منها أن تتصدى للتحركات السعودية المتتالية التى اشتدت فى ضراوتها .

ومما لا شك فيه أن بنى خالد كانوا الحاجز الكبير الذى حفظ الكويت من الخطر الوهابى حتى نهاية القرن الثامن عشر غير أنه بسقوط بنى خالد صار إخضاع السعوديون للكويت بعد عام ١٧٩٣ أمر كثير الاحتمال . وبالفعل شهدت السنوات التالية لسقوط الأسرة هجمات سعودية متكررة على الكويت اشتدت فى عنفها طوال فترة إقامة الوكالة الإنجليزية التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية بالكويت عقب انتقالها من البصرة فى الفترة ما بين سنتى ١٧٩٣ و ١٧٩٥ .

وكان من الطبيعى أن يطالب السعوديون بتسلطهم على ممتلكات بنى خالد ويعنى

---

(١) أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ الكويت ، الجزء الأول ، إصدار لجنة الكويت ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٢) عثمان بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ج ١ ص ١٠٨ وما بعدها .

ذلك أن تصبح الكويت منطقة من مناطق النفوذ السعودى على الساحل الشمالى للخليج . ولكن استمرت إمارة الكويت محتفظة بوضعها المستقبل فى وقت كانت فيه القوة السعودية هى القوة المتسلطة على سواحل الخليج العربى . بل وأكثر من ذلك يمكن أن نذهب — وهذا فى تقديرنا الشخصى — أن سقوط أسرة بنى خالد كان عوناً كبيراً فى انطلاق الكويت نحو مرحلة جديدة من مراحل استقلالها .

ولمناقشة ذلك يمكن أن نركز على ناحيتين هامتين :

الأولى ، علاقة الكويت بأسرة بنى خالد .

والثانية ، العوامل التى أدت إلى احتفاظ الكويت باستقلالها عن السعوديين رغم تداعى نفوذ بنى خالد .

فى تقديرنا أنه يمكن اعتبار سقوط حكومة بنى خالد مبدءاً للعلاقات بين الكويت والسعوديين ولا يمكن اعتبـاره بأية حال بداية خضوع الإمارة للنفوذ السعودى ويمكن أن نوضح هنا حقيقة هامة وهى أنه على الرغم من أن شيوخ الكويت كانوا يقدمون ولاءهم منذ أن تأسست إمارتهم فى النصف الأول من القرن الثامن عشر لشيوخ بنى خالد إلا أن ذلك الولاء لم يكن إلا من الناحية النظرية(١) ، على الرغم مما تتفق عليه المصادر المحلية أن سيطرة بنى خالد كانت تمتد إلى الكويت الذى ينسب تأسيسه إلى أحد زعماء هذه الأسرة ويدعى براك ، بناه فى بداية الأمر على شكل حصن صغير(٢)، وحينما قدم آل صباح من أفلاج نجد استقروا فى هذه المنطقة حيث استولوا على هذا الحصن أو سمح لهم آل خالد بالبقاء فيه وتعميره حيث اتخذوا منه

---

(١) يقرر نيبمور بصدد ذلك أن النزاع كان يدور دائماً بين الكويتيين المتمسكين باستقلالهم وبين شيخ الحسا الطامع فى احتلال الكويت وإذا ماوجه هذا الشيخ جيشه إلى الكويت لإخضاعه هجرة أهله إلى جزيرة فيلكا كما يؤكد أنه على الرغم من أن شيخ الكويت كان يتبع شيخ الإحساء إلا أنه كان يمارس استقلاله فى أحيان كثيرة .

Of. Carsten Neibuhr, Travels Through Arabia & Other Countries in the East, Vol. II, p. 103 ff.

أنظر أيضاً : جاكلين بيرن : اكتشاف جزيرة العرب — ص ١٦٤ .

(٢) عبد الله حاتم : من هنا بدأت الكويت .

منطلقاً لإنشاء إمارتهم(١) . وعلى الرغم من أن آل صباح تمكنوا من ممارسة نفوذهم المستقل فى مستقرهم الجديد إلا أنهم كانوا فى المراحل الأولى من بدء استقرارهم يرتبطون بشكل أو بآخر بنوع من التبعية لحكام بنى خالد ، ولذلك كان من المتوقع حينما داهمت بنى خالد الغزوات السعودية فى الفترة من ١٧٨٥ إلى ١٧٩٥ أن يبادر آل صباح لنجدتهم لما كان يقضى به العرف أن يتقدم التابع لنجدة متبوعه ، ولكن الشيخ عبد الله بن صباح كان متردداً بين أمرين :

الأول ، تقديم العون لبنى خالد ومعنى ذلك أن يستمر على ولائه لهم .

والثانى ، مساعدة السعوديين فى إسقاط الأسرة ، ومما لا شك فيه أنه كان يقدر أن الأمر الثانى سيترتب عليه انطلاق الكويت فى إحدى المراحل الهامة لتحقيق استقلالها وتخلصها من تبعيتها لبنى خالد ، إلا أن الشيخ عبد الله كان يدرك فى نفس الوقت قوة الضغط السعودى خاصة فى هذه المرحلة التى اندفع فيها السعوديون بشكل تعصبى بالغ بهدف نشر الدعوة الوهابية فى سواحل الخليج العربى وما قد يترتب على ذلك بالضرورة من تعرض إمارته لخطر مجاورتها لنفوذ السعوديين فى الإحساء ، وبالفعل بدأت الكويت تتعرض بشكل واضح منذ عام ١٧٩٣ لمناوشات سعودية خاصة حينما قدم القائد السعودى إبراهيم بن عفيصان بجماعة من قبائل الخرج والعارض والسدير واستحوذ على قدر كبير من الأسلاب ، ولذلك حرص الشيخ عبد الله أن يبدو فى مسلكه وقوفه على الحياد فى الصراع الدائر ولكن من المؤكد أنه كان يتعاطف مع القوتين المتشابكتين ، وهما العثمانيين وبنى خالد ، فى صراعهما ضد السعوديين . وكان تقدير شيخ الكويت أن مشيخته تتمتع باستقلال ذاتى فى ظل العثمانيين وبنى خالد ولكنه لا يضمن أن تستمر إمارته متمتعة بذلك الاستقلال فى ظل السيطرة السعودية على أنه من ناحية أخرى كان حريصاً على ألا يظهر من تقديم الكويت عونها للعثمانيين وبنى خالد تأكيداً لتبعيتها لهاتين القوتين ولذلك رأى أن يكتفى بتقديم المساعدات لشيخ المنتفق الذى كلف من قبل والى بغداد بإعداد قوات

---

(١) راجع فى ذلك عثمان بن سند : سبائك المسجد ص ١٨ .

والقناعى : صفحات من تاريخ الكويت ص ١٠/١٢ وبشىء من التفصيل يمكن الرجوع إلى مقالة الأب انستاس الكرملى عن الكويت فى مجلة المشرق — العدد العاشر ص ٤٥ . لسنة ١٩٥٢ .

كبيرة لمقاتلة السعوديين بالتحالف مع شيوخ بنى خالد وبالفعل وضع الشيخ عبد الله جميع إمكانيات الكويت البحرية فى خدمة العمليات الحربية واستخدمت السفن الكويتية لنقل قسم كبير من قوات الشيخ ثوينى إلى الإحساء ، وإن لم تكن النتيجة طيبة على أية حال إذ تفرقت هذه القوات وقتل ثوينى فى إحدى المعارك الطاحنة التى نشبت بينه وبين السعوديين(١) وعقب ذلك نجح السعوديون فى الاستيلاء على الإحساء وتأكيد نفوذهم فى القاطعات الشرقية للجزيرة العربية وترتب على ذلك أن أصبحت الكويت ملامسة للقوة السعودية التى أخذت تتاخمها من الجنوب . وعلى الرغم من أن الكويت استفادت من سقوط أسرة بنى خالد فى التخلص من الارتباط الذى كان قائماً بينها وبين هذه الأسرة فى عهد الشيخ صباح الأول إلا أن شيوخ الكويت أخذوا يتعرضون لهجمات سعودية عنيفة(٢) .

وفى تقديرنا أن وجود الوكالة البريطانية فى الكويت فى الفترة من ١٧٩٣ إلى ١٧٩٥ كان له أثر كبير فى حماية الكويت من السقوط فى قبضة السعوديين . وقد انتقلت الوكالة من البصرة إلى الكويت نتيجة الصعوبات والعقبات التى وضعتها السلطات العثمانية فى وجه الوكالة البريطانية(٣) .

ويمكن التركيز بصدد ذلك أن حادثة انتقال الوكالة إلى الكويت كانت تؤكد فى حد ذاتها استقلال الكويت عن الدولة العثمانية . وكان القائم بأعمال الوكالة آنذاك هو المستر مانيستى Manisty الذى رأى حماية للوكالة من الضغط السعودى أن يبقى طراداً صغيراً فى ميناء الكويت ، كما وضعت فرقة حرس من الهنود يقودها ضابط هندى على الشاطىء . والجدير بالذكر أن الوثائق الرسمية البريطانية قد حرصت على أن ينفى نفياً قاطعاً قيام الوكالة البريطانية بأى دور فى صد السعودية عن الكويت تمشياً مع السياسة البريطانية العامة التى كانت تقرر عدم التدخل فى الصراعات الداخلية فى الخليج العربى . وأن الوكالة كانت حريصة على أن تقف موقف الحياد فى

---

(١) حسين بن غنام : روضة الأفكار والأفهام جـ ٢ ص ١٦٥ وما بعدها .

(٢) ج. لولا يارج : دليل الخليج جـ ٣ ص ١٠٠٨ الدوحة ١٩٦٧ .

(٣) Kelly, Britain and the Persian gulf, London 1928.
Cf. Chapter I, the Persian Gulf in Late Eighteenth

الصراع بين السعوديين والـكويت خوفاً على بريدها الصحراوى من أن يتعرض لانتقام السعوديين . . . وهذه الآراء وغيرها نجدها فى كتاب المستر Brydges عن الوهابيين والذى أكد فيه أكثر من مرة أن أهالى الـكويت هم الذين دافعوا عن الإمارة وأن شيخها الوقور هو الذى نجح بعدله وسماحته من أن يجنب إمارته الخضوع للسعوديين(١) . ولـكننا مع ذلك نجد بعض المصادر الأخرى تؤكد على حدوث مساعدة انجليزية لـلكويت ضد السعوديين وتستند فى ذلك على ماذكره أحد الموظفين فى الوكالة البريطانية ويدعى رينود Reinaud من أن المستر مانيستى القائم بأعمال الوكالة البريطانية فى الـكويت أصدر أوامره خلال عمليات الغزو السعودى للـكويت ١٧٩٥ بإنزال مدفعين من الطراد الإنجليزى وطلب من الجنود الهنود الاشتراك مع أهالى الـكويت فى صد السعوديين عن الإمارة ، وكان رد الفعل المتوقع مهاجمة السعوديين لبريد بريطانيا الصحراوى مما كان سبباً فى رحلة رينود إلى الدرعية حينما كلف من مانيستى بمقابلة الأمير السعودى فى عاصمته . وقد اشتهر رينود بأنه كان أول أوربى يزور عاصمة السعوديين الأولى .

وتتفق آراء بعض الباحثين على الأخذ بالرواية الثانية لأن الوكالة البريطانية كانت بطبيعة الحال تخشى على أموالها المودعة بالـكويت فيما لو حدث غزو وهابى ، والتى كانت ستصبح غنيمة مشروعة فى عرف الوهابين باعتبارها من «أموال الـكفر» وفضلا عن ذلك فقد كان التزاماً أدبياً من الوكالة البريطانية أن تعبر عن اعترافها بجميل الشيخ عبد الله حينما أفسح لها مكاناً فى بلاده .

وعلى الرغم من أن السعوديين استمروا فى مواصلة عملياتهم الانتقامية ضد الـكويت ابتداء من عام ١٧٩٥ إلا أن هذه المناوشات لم تؤد إلى نتيجة إيجابية أخضعوها لسلطتهم فى الإحساء إلى تحول طريق تجارة الهند إلى أوسط شبه الجزيرة واستطاعت الإمارة خلال السنوات التالية أن تحرز انتصارات اقتصادية هامة ضد السعوديين حينما أدت المشاكل والحروب المستمرة بين السعوديين والقبائل التى

---

(١) Brydges, sir Harford Jones An Account of His Majesty's mission to the court of Persia 1809-1808, To which is appended a brief History of the Wahanby, Vol. 2, p. 12.

أخضعوها لسلطتهم فى الأحساء إلى تحول طريق تجارة الهند إلى أواسط شبه الجزيرة العربية[1] عن مجراه المعتاد مروراً بالإحساء إلى البصرة والكويت ، إذ أصبح هذان الميناءين يستخدمان بدلا من موانى القطيف والعقير مدخلا لشبه الجزيرة العربية مما أثار السوريون وجعلهم ينظرون بقلق بالغ إلى منافسة الكويت لموانى الاحساء بل ومطالبتهم بنصيب من الأموال ، وبالفعل أعدوا حملة كبيرة للاغارة على الكويت فى عام ١٨٠٨ ولكن أهالى الكويت نجحوا فى مقاومة الحصار الذى فرضه السعوديون عليهم وتمكنت الإمارة أن تبقى بمنأى عن النفوذ السعودى الذى بلغ درجة كبيرة من الانتعاش فى تلك الفترة وإن استمر الخطر السعودى مع ذلك جاثماً عليها . وهذا يفسر لنا شدة ترحيب شيخ الكويت بالتقدم الذى أحرزته القوات المصرية التى زحفت على نجد وأسقطت الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى فى عام ١٨١٨ ، بل إن بعض المصادر تؤكد مساعدة الشيخ جابر حاكم الكويت لابراهيم باشا القائد المصرى أثناء حصاره الدرعية . ولكن تقدم القوات المصرية بعد إخضاعها نجد صوب سواحل الاحساء أدى بالضرورة إلى قيام علاقات بين مصر والكويت .

وتؤكد المصادر الرسمية التى تناولناها أنه فى عام ١٨٣٨ حينما وصلت القوات المصرية بقيادة خورشيد باشا إلى سواحل الإحساء أرسلت وكيلا عنها ليقيم فى الكويت على أنه وكيل لشراء الإمدادات اللازمة للقوات المصرية ، ولاشك أن خورشيد باشا كان فى حاجة شديدة إلى الاستعانة بأسطول الكويت التجارى الذى كان — كما تردد فى أكثر من مصدر — أسطولا كبيراً ومجهزاً تجهيزاً طيباً ، وإن لم يثبت لنا مع ذلك استفادة القوات المصرية بالأسطول الكويتى بدرجة كبيرة باستثناء شحنة وحيدة من الذخيرة والعتاد وصلت إلى القوات المصرية خلال احتلالها للاحساء حملتها التى القطيف سفينة كويتية من ميناء الحديدة على ساحل البحر الأحمر[2] .

على أنه لم يلبث أن اتضح الهدف الحقيقى من إقامة الوكيل المصرى بالكويت

(١) كانت طرق القوافل وسيلة من الوسائل الهامة لنقل البضائع من الهند إلى أوربا . حيث كانت تمر من الخليج إلى أواسط الجزيرة العربية ومنها إلى حلب وقد أمدنا رحالة القرن الثامن عشر بوصف تفصيلى لهذا الطريق الذى كان يعرف بالطريق الصحراوى العظيم. انظر : أبو حاكم : تاريخ الكويت الجزء الأول ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٢) ج.ج. لوريمار : دليل الخليج .. المجلد الثالث ص ١٥١٥ الدوحة ١٩٦٧ .

وهو أن يكون مبعوثاً سياسياً وجامعاً للأخبار المتعلقة بنجاح خطة خورشيد باشا قائد القوات المصرية فى انتزاع العراق من الدولة العثمانية وذلك بإعداد حملة لغزو العراق من الجنوب . وكان شيخ الكويت يعامل المندوب المصرى معاملة ممتازة إذ كان يمنحه مقعد الشرف دائماً فى كل مجالسه .

وتذكر الوثائق البريطانية أن الشيخ جابر حاكم الكويت الذى عاصر تقدم القوات المصرية كان صديقاً للحكومة البريطانية ، ولكن حدث خلال إقامة الوكيل المصرى أن عامل مسئولا بريطانياً وهو الليفتنانت أدموندز معاملة تجافى اللياقة وذلك وجوده بالكويت للمفاوضة بشأن إنشاء خط بريدى عبر صحراء نجد ، بين الكويت إلى البحر المتوسط . وتضيف المصادر البريطانية أن حكومة الهند لم تجد مع ذلك ثمة ما يلزم لمعاقبة الشيخ على تصرفه هذا ، مبررة أن الأمر لم يصدر عن نوايا سيئة ولكنه يهدف خداع الوكيل المصرى . وإن كنا لا نتفق مع هذا التبرير إذ أن شيخ الكويت لم يختلف عن بقية أمراء ورؤساء الخليج فى شدة ترحيبه بالتقدم المصرى صوب سواحل الخليج تخلصاً من الضغط البريطانى من ناحية وتعاطفاً مع القوات المصرية التى حققت انتصارات كبيرة فى أواسط الجزيرة العربية ، والتى كانت تهدف فى تقديرنا تحقيق الوحدة بين إمارات الخليج العربى[1] . وأغلب الظن أن الحكومة البريطانية لم تر ما يلزم لإيجاد أسباب لتوتر العلاقات بينها وبين الكويت خاصة عقب انسحاب القوات المصرية من الخليج وشبه الجزيرة العربية فى عام ١٨٤٠/١٨٤١ ، ولذلك آثرت ألا تقوم بعمل من شأنه إحداث جفوة فى العلاقات القائمة بينها وبين الكويت .

وعقب انسحاب القوات المصرية من نجد كانت الفرصة مواتية لكى يقفز إلى الحكم السعودى عبد الله بن ثنيان الذى أطاح بالحاكم السعودى السابق خالد بن سعود مستغلا كراهية الأسرة السعودية له لقبوله حكم بلاده تحت الحكم المصرى . وقد أعقبه فى الحكم فيصل بن تركى ١٨٤٢/١٨٦٦ وفى عهده حققت الإمارة السعودية الثانية

---

(١) جمال زكريا : اقاسم الخليج العربى ص ٦٥ ، القاهرة ١٩٦٧ .

أقصى توسعها فى منطقة الخليج العربى خاصة حينما أخضعت الإحساء واتخذت من الهفوف قاعدة للاغارة على بقية الإمارات العربية ، فأجبرت البحرين على دفع الجزية واستسلم حاكم قطر وقبل بدوره . ومنع الزكاة للسعوديين ، كما نمت القوة البحرية السعودية ووصلت إلى درجة كبيرة من التفوق إذ قدر أسطول السعوديين فى ذلك الوقت بثلثمائة سفينة حربية(١) . ولكن مما يستلفت النظر أن موجة المد السعودى رغم اشتدادها لم تصل إلى إمارة الكويت إذ نجح حكامها إلى حد كبير فى الاحتفاظ بعلاقاتهم الودية مع السعوديين حتى أن هذه الإمارة لم تدفع الزكاة السنوية لهم على الرغم من شدة سطوتهم . والواقع أننا لا نجد تعليلا مقبولا لذلك . ومما يزيد الموقف غموضاً أن الكويت كانت تشكل مغنما عليها للسعوديين خاصة وأنها لم تكن قد ارتبطت حتى ذلك الوقت بمعاهدة مع بريطانيا على غرار غيرها من إمارات الخليج الأخرى التى اضطر السعوديون إلى تخفيف ضغطهم عليها عقب التصريح الذى انتزعه الانجليز من الإمام فيصل بن تركى فى عام ١٨٦٦ بعدم الاعتداء على الإمارات التى تربطها ببريطانيا معاهدات خاصة ، بل وأكثر من ذلك كان شيوخ الكويت يتحصلون بانتظام على نصيبهم من تجارة القوافل المارة بين الكويت ونجد كما كانت مواسم الحج تحدث انتعاشاً كبيراً فى الإمارة .

وعلى الرغم مما تذهب إليه بعض المصادر من أن حكام الكويت استمروا منذ انسحاب القوات المصرية من الجزيرة العربية حتى عهد مبارك بن الصباح سنة ١٨٩٦ لا يبدون أى اهتمام بالأوضاع القائمة فى نجد طالما كانوا يتحصلون بانتظام على نصيبهم من التجارة العابرة إلا أننا نخالف هذا الرأى ونؤكد على اهتمام حكام الكويت بما كان يجرى من أحداث فى نجد خاصة خلال فترة الصراع الأسرى التى أعقبت وفاة الإمام فيصل بن تركى فى عام ١٨٦٦ . إذ توقفت خلال هذه الفترة العلاقة بين حاكم الكويت وبين عبد الله بن فيصل الذى كان أخوه الأصغر سعود ينافسه فى الحكم وتمكن بالفعل من انتزاع الإمارة لنفسه . ومن ذلك يمكن أن نذهب فى الرأى أن اتجاه شيخ الكويت لتقديم المساعدة لقوات مدحت باشا عند احتلالها

---

(١) راجع فى ذلك تقرير الكولونيل بلى إلى الرياض فى عام ١٨٦٦ . نقلا عن :
Aitchicon, a Collection of Treaties, Engagements and Sands relating to India & Neighbouring Countries, Vol. XI, Persian Gulf, p. 44.

للاحساء لم يكن مجرد طاعة للدولة العثمانية ، وإنما كان ذلك يتفق مع مصلحة الكويت وأمنها فى معاونة شيخ الكويت حليفه الأمير عبد الله ضد أخيه سعود خاصة وأن مدحت باشا خلال المراحل الأولى من حملته على الإحساء كان حريصاً على إعلان الأمير عبد الله بالولاية على نجد[1]، ومن ناحية أخرى قدر شيخ الكويت أن مساعدته للحملة العثمانية ستؤدى إلى تخلص الكويت من سيطرة الأمير سعود على السواحل المتاخمة لإمارته من الجنوب ، ومما يؤكد ذلك أن الكويت أصبحت بالفعل هدفاً لإغارة الأمير سعود ففى عام ١٨٧٢ هدد الأمير سعود مدينة الكويت ولكن الشيخ استطاع رد الهجوم بعد أن استدرج أنصاره بعيداً أو تمكن من أن يرغمه على الفرار . وحوالى عام ١٨٨٤ وكان واضحاً أن شيخ الكويت يناصر أمراء شمر من آل الرشيد الذين بدءوا صراعهم ضد السعوديين[2] .

وفى خلال الحكم العثمانى للأحساء ١٨٧١ — ١٩١٣ نمت إمارة الكويت وانطلقت فى التوسع جنوباً على حساب الحكم العثمانى الذى تميز بالضعف العام[3] ، وفى عهد الشيخ مبارك بن الصباح الذى ولى الحكم فى الفترة من ١٨٩٦ إلى ١٩١٥ استطاعت إمارة الكويت أن تنتهز فرصة الأوضاع المضطربة فى نجد لتحقيق نجاح ملحوظ من التوسع على حساب الصراع الذى كان قائماً فى هذه الفترة بين آل رشيد وآل سعود . وتفصيل ذلك أن الشيخ مبارك عمل على احتضان القضية السعودية فى مراحلها الأولى[4] ، وكان يهدف من ذلك الاستعانة بالأسرة السعودية فى توسيع

(١) انظر إعلان من مدحت باشا موجه إلى أهالى نجد فى ٢٠ إبريل ١٨٧١ .
Cf. Essau to Pelly 197/7/1871.
Enclosure from Assistant Resident at Bahrei to the Resident in the Persian Gulf.
India Office Political & Secret Department, Letters from the Persian Gulf.

(٢) ج.ج. لوريمر : دليل الخليج ج ٣ ص ١٥٢٣ .

(٣) عرضت لنا الرحالة آن بلنت فى رحلتها إلى نجد التى قامت بها فى عام ١٨٨٠ صورة الحكم الراهن الذى تميز به الحكم العثمانى فى ساحل نجد .
Cf. Blunt, Lady Anne, Apligrimage to Nejd, Vol. II, 265-268, London, 1881.

(٤) حافظ وهبه : شبه جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٢٥٨ القاهرة ١٩٥٦ .

إمارته على حساب الدولة العثمانية وآل رشيد في نجد ولكن ما كاد الأمير عبد العزيز ينجح في استرداد الرياض ١٩٠١ حتى أدرك جيداً أطماع مبارك مما كان له أثر كبير في توتر العلاقات بينهما . وقد وصل هذا التوتر إلى درجة كبيرة هددت بانفجار الموقف بين السعودية والكويت في الأيام الأخيرة من حكم الشيخ مبارك .

ويمكن تتبع العلاقات بين الكويت ونجد منذ سقوط الأسرة السعودية عقب معركة المليداء سنة ١٨٩١ والتي بدأ في أعقابها أن الحكم في نجد قد استقر لآل رشيد ولذلك عندما تولى الشيخ مبارك حكم الكويت في عام ١٨٩٦ رأى أن يستعين بمن تبقى من أفراد الأسرة السعودية لتحقيق توسعاته في نجد على حساب آل رشيد وعلى هذا النحو نصل إلى مرحلة هامة من المراحل التي مرت بها العلاقات بين الكويت ونجد وهي المرحلة التي تميزت بمحاولة الكويت التوسع في أواسط الجزيرة العربية ولكنها ووجهت بآل رشيد ومن ورائهم الدولة العثمانية . وقد أدت الأوضاع القلقة بين الكويت وآل رشيد في نجد إلى ملحمة من أقوى الملاحم العسكرية التي وقعت بين القوى المحلية في نجد والخليج العربي وهو معركة الصريف في عام ١٩٠١[١] .

ويتفق الرواة على أن أسباب هذه المعركة ترجع إلى اتجاه الشيخ مبارك إلى تحقيق رغبته في التوسع في نجد في الوقت الذي بدأت فيه الكويت تعاني من ضائقة التدهور الاقتصادي الذي طرأ عليها نتيجة إغارات قبائل شمر المستمرة وتهديدهم طرق القوافل التجارية فضلا عن قطع طريق الحج إلى مكة . ووضح أن السبب في تدهور العلاقات بين الكويت ونجد حقد آل رشيد على الشيخ مبارك احتضانه من تبقى من زعماء الأسرة السعودية فضلا عن التحريضات التي كان يلقاها آل رشيد من الدولة العثمانية التي ظهر بالتالي حقدها على الشيخ مبارك لارتباطه بمعاهدة مع الإنجليز سنة ١٨٩٩ وعدم إعلان ولائه صراحة لها . وقد وجد الشيخ مبارك مؤيدين له من بعض القوى المحلية في الخليج كالشيخ سعدون شيخ المنتفق ، نظراً للعداوة التقليدية بينه وبين قبائل شمر ، كما لقي الشيخ مبارك تأييداً من أمراء بريدة

---

(١) British Admirality, Hand Book of Arabia, Vol. I, p. 29, London, 1916.

وعنيزة فى القصيم آل سليم وآل مهنا ، إلى جانب قبائل مطير والعجمان القاطنية فى الإحساء هذا بالإضافة إلى المساعدات البحرية التى أسداها إليه صديقه الشيخ خزعل خان شيخ المحمرة . ولذلك تمكن مبارك أن يحرز انتصارات ملحوظة فى التحركات الأولى من ذلك سقوط مقاطعة العارض التى أسند إدارتها للأمير عبد العزيز ابن سعود الذى كان يرافقه فى حملته ، كما نجحت القوات الكويتية وخلفائها من القوات الأخرى إسقاط المضيم ، ولكن عند بئر صغير على مقربة منها نشبت معركة بين الفريقين انتهت بهزيمة الكويت هزيمة أليمة وأصبح الطريق أمام آل رشيد مفتوحاً لإسقاط الكويت خاصة بعد أن أشيع مقتل الشيخ مبارك فى المعركة . ولم ينقذ الكويت من المصير الذى كان من المؤكد أن تنساق فيه إلا مراوغة مبارك السياسية الذى سارع بالذهاب إلى الفاو ليبرق إلى الدولة العثمانية بولائه لها ، وأجابته الدولة العثمانية على شعوره الموالى بإصدارها فرمان أكدت فيه اعتباره قائمقاماً رسمياً على قضاء الكويت[1] . ولم يكتف الشيخ مبارك بذلك بل إنه اضطر إزاء ضغط عبد العزيز آل رشيد وحصاره لإمارته أن يطلب المساعدة من البحرية البريطانية التى كانت ترقب تطور الأوضاع على مقربة من ميناء الكويت[2] وعلى الفور هرعت ثلاثة بوارج بريطانية إلى الميناء لنجدة سكان الكويت مما اضطر قوات آل رشيد على أثر وصولها إلى التراجع عن غزو الكويت[3] .

وعلى الرغم من نجاح الأمير عبد العزيز بن سعود فى العام التالى من معركة الصريف من استرداد الرياض فإن خطر آل رشيد ظل ماثلا أمام الكويت وهذا

---

(١) وضح أن الشيخ مبارك قد ارتبط فى عام ١٩١٠ بولاء مزدوج للدولة العثمانية وبريطانيا وقد اتفقت الدولتان فى ذلك الوقت على المحافظة على الوضع الراهن فى الكويت راجع فى ذلك :

Télégramme de sublime porté au représentant ottoman à Londres 919/1901 cf. Gooch and Temperly, British Documents on the Origins of the War, vol. X, Part II, p. 49, see also Memorandum respecting Koweit, p. 7 ff., F.O. 78-5174.

(٢) Rouire, La question du Golfe Persique, Le règlement de Mascate et de Koweit, pp. 370-371.

(٣) Cf. Memorandum Respecting Koweit, pp. 14-16, Foreign Office 78-5174.

يفسر لنا حرص الشيخ مبارك على تقديم مساعدات فعالة للأمير عبد العزيز بن سعود ومعاونته فى توطيد دعائم حكمه وتزويده بالخطط العسكرية التى تعينه فى التخلص من غريمه ابن الرشيد . وقد استمرت المساعدات الكويتية تصل إلى الأمير عبد العزيز فى نجد ، سواء كانت مساعدات كويتية خالصة أو مساعدات بريطانية كانت تصل إلى عبد العزيز عن طريق الكويت ، حتى مقتل الأمير عبد العزيز بن الرشيد فى روضة المهنا فى عام ١٩٠٦ .

ويتضح لديبا من مراقبة تطور الأوضاع بين الكويت ونجد أن المساعدات التى كانت تقدمها الكويت لآل سعود كانت تهدف بها أساساً استغلال التنافس بين آل سعود وآل رشيد لتحقيق قدر من التوسع الإقليمى فى أواسط نجد على حساب الطرفين المتصارعين . وفى عام ١٩٠٤ دخل العثمانيون كعنصر هام فى هذا الصراع وذلك بمساندتهم لحلفائهم من آل رشيد[٣] . ويستدل من الروايات المختلفة المتعلقة بتاريخ نجد إرسال الدولة العثمانية قوة عسكرية قامت من البصرة متجهة إلى أواسط نجد بهدف معاونة آل رشيد بيد أن هذه القوة لم تلبث أن ووجهت بهزيمة شنيعة على يد ابن سعود وحلفائه فى التصميم ، فأعد العثمانيون حملة أخرى فى العام التالى ١٩٠٥ وهنا وجد شيخ الكويت أن الفرصة سانحة ليمرض وساطته بين الأطراف المتنازعة وبالفعل عقد اجتماع هام فى صفوان أعقبه اجتماع آخر قرب آبار الكاشانية فى المنطقة بين الكويت والبصرة فى عام ١٩٠٥ حيث اجتمع عبد الرحمن بن سعود بمخلص باشا والى البصرة وبحضور الشيخ مبارك أمير الكويت . وفى هذين الاجتماعين بحثت عدة اقتراحات من قبل والى البصرة كانت تهدف إلى إبقاء القصيم منطقة عازلة بين آل سعود وآل رشيد على أن يكون فيها للدولة العثمانية حامية عسكرية فى كل بريدة وعنيزة حتى يتم إقرار الصلح النهائى بين حائل والرياض .

---

(١) كانت الحكومة البريطانية تراقب تدخل الدولة العثمانية فى الصراع بين آل رشيد وآل سعود وقد بادرت بتعيين أول وكيل سياسى لها فى الكويت وهو الكابتن نوكس لمراقبة الأوضاع فى أواسط الجزيرة العربيه ولن كانت تحرص على ألا يسترعى وجود هذا الوكيل انتباه السلطات العثمانية .

Cf. Letter from Curzon to John Fodrick 191-1-1905, India Office Political and External Files 11-3-546, Doc. No. 18.

وعلى الرغم من موافقة الأطراف المعنية على هذه الاقتراحات إلا أنها لم توضع قط موضع التنفيذ ويرجع ذلك إلى اضطرار الدولة العثمانية سحب حامياتها العسكرية من أواسط نجد لمواجهة متطلبات الموقف العسكرى فى اليمن الناجم عن الثورة التى قامت فى عام ١٩٠٤ . وهكذا أصبح الموقف قائماً دون حل تقريباً وإن كان قد ظهر من خلال ذلك شدة استياء الأمير عبد العزيز بن سعود من شيخ الكويت الذى لم يساعده فى موقفه . والثابت لدينا أنه على الرغم من أن شيخ الكويت قد عرض الوساطة على كل من الدولة العثمانية وآل سعود وآل رشيد إلا أنه رفض القيام بدور إيجابى لصالح حليفه ابن السعود ، وقد أحدث ذلك استياء من قبل الأمير عبد العزيز عبر عنه بإرسال ممثلين من قبله صحبة القوافل النجدية التى تكتال من الكويت بهدف استيفاء الرسوم المقررة على التجارة قبل مغادرتها الكويت ، وانسيابها فى صحراء نجد. وقد قام بهذا التصرف دون أن يشاور شيخ الكويت بشأنه مما كان سبباً لاستياء الشيخ مبارك الذى عد هذا التصرف نكراناً لجميله واعتداءاً على سلطته . ورداً على ذلك أخذ مبارك يبدى تقارباً ملحوظاً مع الأمير عبد العزيز الرشيد بل وطلب منه فى إحدى الرسائل التى كان يبعث بها إليه أن يرسل من قبله مبعوثاً لكى يتفاوض معه فى عقد معاهدة من شأنها التضييق على الأمير عبد العزيز ابن سعود والوقوف ضد خططه التوسعية فى نجد . وبالفعل أمكن فى عام ١٩٠٥ الوصول إلى اتفاقية سرية بين الطرفين نصت على أن يلتزم الشيخ مبارك جانب الحياد التام فى حالة نشوب الحرب بين آل رشيد وآل سعود ، ووضح أن الشيخ مبارك كان يرمى من وراء تشجيعه آل رشيد تحقيق أهداف ثلاثة :

أولها — تقليل نفوذ ابن سعود فى نجد الذى أصبح يشكل خطرا على الكويت.

وثانيهما — إحباط مساعى خصمه العنيد يوسف الإبراهيم الذى كان يقلقه وينازعه فى الحكم وذلك بتأييده لقضية أبناء أخوة الشيخ مبارك . والذى كانت تربطه روابط صداقة بآل رشيد .

وثالثهما — استحواذه على رضا الدولة العثمانية حينما تعلم بعصافاته لحليفها ابن الرشيد[1] .

---

(١) حسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسى ، ج ٣ ؛ ص ١٨٦ بيروت ١٩٦٢ .

وعلى أثر توقيع تلك الاتفاقية التى بدأ منها انحيازاً واضحاً من قبل الكويت لآل رشيد ، أخذت الكويت تقدم مساعدة فعالة لآل رشيد من ذلك تشجيع الشيخ مبارك البدو ، الذى كان يملك عليهم تأثيراً خاصاً ، فى الاعتداء على القبائل التابعة لابن سعود وبثه الدعاية بين أعراب نجد مشجعاً أياهم على التمرد على سلطة عبد العزيز بن سعود .

ولكن قوة عبد العزيز بن سعود الصاعدة فى أواسط نجد مكنته من التصدى لآل رشيد وإحاقة الهزيمة بهم فى العام التالى ١٩٠٦ وقتل الأمير عبد العزيز ابن الرشيد فى روضة المنا(١) . وأصبح الموقف يحتم على الكويت أن تساند بكل قوتها قضية آل رشيد أكثر من أى وقت مضى خاصة بعد أن تداعت قوتهم فى نجد ومات حليفهم يوسف الإبراهيمى الذى عرف بعدائه الشديد لمبارك .

وغداة وصول متعب بن الرشيد إلى الحكم أرسل إليه مبارك يهنئه بالإمارة ، ويعزيه فى وفاة والده ويقرر أن حائل والكويت شقيقتان ومصلحة البلدين واحدة ويطلب منه التعاون معه فى تخليص نجد من سلطة السعوديين التى تخشاها الكويت بقدر ما تخشاها حائل . بيد أن هناك إجماع بين المصادر التى تناولناها أن الشيخ مبارك كتب إلى عبد العزيز بن سعود فى نفس الوقت يؤكد له أنه مستعد لتقديم المساعدة له للقضاء على حكم آل رشيد ويهنئه بالانتصار عليهم فى روضة المنا . وتضيف هذه المصادر أنه حدث خطأ فى تبادل هذه المراسلات مما كان سبباً لإحراج مركز مبارك .

ومع ذلك فقد بدأ فى عام ١٩٠٦ محاولة الشيخ مبارك أن يجعل من نفسه محكماً فى النزاع بين آل سعود وآل رشيد وذلك بإعداده مشروعاً خيالياً لتقسيم وسط الجزيرة العربية بحيث يصبح جبل شمر وما حوله ملكاً لآل رشيد ومعظم أجزاء نجد الجنوبية لآل سعود بينما يستولى لنفسه على القصيم وممتلكات السعوديين

---

(١) Philip Graves, The Life of Sir Percy Cox, p. 105 ff., London, 1951.

فى كل من وشم والسدير والدواسر . وظهر أن إمارة الكويت — بذكاء شيخها ودهائه الذى وصفه البعض بأنه يقرب من دهاء ريشيلية — أصبحت بالفعل القوة المسيطرة على الموقف فى المقاطعات المتأخمة لها فى أواسط الجزيرة العربية ، وأخذت قوافل الحج تنساب من الكويت إلى مكة بسلام بعد أن كانت قد انقطعت منذ عدة سنوات نتيجة طبيعية للحروب المتواصلة فى نجد . وقد قدر الخارجين للحج فى عام ١٩٠٦ بأكثر من ألف نسمة(١) .

على أن مشروع التقسيم الذى كان يدور فى مخيلة مبارك لم يلبث أن قضى عليه الأمير عبد العزيز بن سعود قضاءاً مبرماً حينما سارع بوضع الشيخ أمام أمر واقع وذلك باستيلائه على القصيم وإعلانها مقاطعة تابعة له . وكان سقوط القصيم يعنى خضوع أواسط نجد للسلطة السعودية كما كان يعنى فى نفس الوقت أن الطريق قد أصبح مفتوحاً لتوسعات سعودية فى شرق الجزيرة العربية وأصبحت ضرورات الموقف تحتم على الشيخ مبارك أن يعود مرة أخرى إلى أساليب المراوغة التى اشتهر بها وذلك بإظهار صداقته للأمير عبد العزيز الذى بدأ نجمه يبزغ إلى مجال القوة والسيادة فى أواسط الجزيرة العربية . وبالفعل أبدى الشيخ مبارك فى ذلك الوقت تقارباً ملحوظاً مع الأمير عبد العزيز حينما حاول أن يظهر بطريقة عملية أنه لا يزال عوناً له فى تخليصه من مشاكله ، وقد بذل فى هذا الموقف بالذات جهوداً ملحوظة فى الوساطة فى النزاع الذى نشب بين الأمير عبد العزيز وبين أقاربه من العرائف حينما قام هؤلاء بثورة أسرية تزعمها بعض المطالبين بالحكم للفرع الأكبر من أحفاد عمه سعود فى مقاطعتى الخرج والحريق ١٩١٠/١٩١١(٢) .

وفى عام ١٩١٣ كان مركز عبد العزيز قد أصبح قوياً بدرجة تمكنه من فتح الإحساء فانتهز فى ذلك فرصة انشغال الدولة العثمانية فى حروبها فى البلقان واضطرت الدولة العثمانية إلى التفاوض معه . ولكن الشيخ مبارك كان قلقاً

---

(١) لوريمار : دليل الخليج ج ٣ ص ص ١٥٦٣ — الدوحة ١٩٦٧ .

(٢) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ إلى ١٩١٤ ص ٣٠٩ — القاهرة ١٩٦٧ .

لاستيلاء عبد العزيز على الإحساء معتقداً أن أطماع الأمير لن تتوقف عند حد وقد أبدى استياءه وشدة لومه للدولة العثمانية التى تخلت عن الإحساء دون مقاومة[١] ، وعدم إطلاعه على نتيجة المباحثات التى دارت بينها وبين بريطانيا فى لندن والتى تناولت الـكويت وغيرها العربى من إمارات الخليج العربى[٢] .

ومرة أخرى يحاول الشيخ مبارك أن يظهر بمظهر الوسيط الذى يمكن أن يسوى عن طريقه النزاع بين عبد العزيز والدولة العثمانية بشأن الإحساء ، ولا شك أنه تشبث فى القيام بذلك الدور حتى يضمن تسوية الأمور بالشكل الذى يروقه . بيد أنه — الأمير عبد العزيز — لم يخف عليه ما كان يقصده الشيخ مبارك من إصراره على أن يكون اجتماع التوفيق فى الـكويت ، وهو ألا يكون للأمير عبد العزيز الرأى البات سيما إذ أجمع مع مبارك فى مجلس واحد ولذلك رفض عبد العزيز الحضور إلى الـكويت مفضلا أن يعقد الاجتماع فى الصبحة وهى قرية تقع بين الـكويت والإحساء[٣] .

وكان يرأس الوفد العثمانى السيد طالب بك نقيب الأشراف فى البصرة وقد وصل الوفد أولا إلى الـكويت حيث أمضى وقتاً فى ضيافة مبارك ثم انتقل إلى الصبيحة وقد أوفد مبارك ابنه جابر لمقابلة الوفد السعودى بيد أن الشيخ مبارك لم ينجح هذه المرة فى سياسته ذات الوجهين التى حاول اتباعها بالنسبة للدولة العثمانية والأمير عبد العزيز إذ فطن الفريقان إلى حقيقة ما يرمى إليه مبارك الذى أرسل كتاباً إلى الأمير عبد العزيز برفقة ابنه جابر يؤكد له ضعف الدولة العثمانية ويحذره من الانصياع لمطالب الوفد العثمانى فى الوقت الذى كان يؤكد فيه للوفد العثمانى

---

(١) صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى — ص ٢٠٠ — القاهرة سنة ١٩٦٦ .

Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East, vol. I, p. 269 ff., Gooch and Temperby.

وكذلك :

British Documents on the Origins of the War (1871-1914), vol. X, Part II, [illegible] ff.

(٣) حسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الـكويت السياسى ج ٣ ؛ ص ٢ ٣ — بيروت ١٩٦٢ .

ضعف عبد العزيز ، وعدم مقدرته على مواجهة الدولة العثمانية فضلا عن التهوين من شأنه .

ولذلك أصبح واضحاً من التسوية التي تمت بين عبد العزيز والدولة العثمانية أن الكويت خسرت معركة الصبيحية السياسية بعد أن أصبح النفوذ السعودي حقيقة معترف بها رسمياً في الإحساء . ذلك أن اتفاقية الصبيحية عام ١٩١٤ نصت على إلحاق منطقة الحسا بإمارة نجد واعتبار الاثنتان ولاية واحدة من ولايات الدولة العثمانية على أن يكون الأمير عبد العزز والياً وقائداً عاماً واسع الصلاحيات مع احتفاظه بحق إنشاء قوات عسكرية بهدف حفظ الأمن داخل الولاية . وفي هذه المناسبة أغدقت الدولة العثمانية على الأمير لقب باشا ، وقدم ناظر الحربية أنور باشا وساماً إلى الأمير عبد العزيز مشفوعاً بتهنئة رقيقة على إخلاصه للدولة[1] .

وتذكر المصادر السعودية أن الأمير عبد العزيز لم يقدم على التفاهم مع الدولة الثمانية إلا تفادياً للمشاحنات وليقطع على الانجليز أية محاولة للسيطرة على الإحساء لأن الدولة العثمانية خلال مباحثاتها مع الانجليز في ذلك الوقت كان لا يمكن أن تتنازل عن الإحساء[2] . أما الدوائر العثمانية فقد رحبت بعقد تسوية مع الأمير عبد العزيز لأن من شأن هذه التسوية تجنيب الأمير الارتباط بأية معاهدة مع الانجليز ، وإن كانت ظروف الحرب العالمية الأولى التي اندلعت في ذلك الوقت مكنت للأمير عبد العزيز تجاهل ارتباطة بالدولة العثمانية وينحاز إلى جانب الانجليز .

وعلى الرغم من أن الشيخ مبارك قد اضطر إلى أن يبعث إلى الأمير عبد العزيز يهنئه بتوصله إلى اتفاق مع الدولة العثمانية إلا أنه في نفس الوقت كان يتحين الفرصة للايقاع بالنفوذ السعودي الذي عده يشكل خطراً على إمارته . وأخذ الشيخ ينحاز أكثر من أي وقت مضى إلى آل رشيد وظهر ذلك واضحاً خلال المعركة التي

---

(١) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي : دراسة لتاريخ الإمارات العربية ص ٣١١ القاهرة ١٩٦٧ .

(٢) صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها ج ٢ ص ١٥٨/١٥٩ — بيروت ١٩٥٧ .

نشبت بين الأميرين وعرفت باسم موقعة أجراب ١٩١٥ . ولكن نتيجة المعركة أقرب ما تكون إلى التعادل بين الطرفين المتصارعين . وكان من سوء حظ مبارك أن انكشفت سياسته ذات الوجهين التى كان يتبعها حينما وقعت فى أيدى آل رشيد حافظة أوراق ابن سعود والتى يحتمل كثيراً أن يكون قد تعمد وقوعها فى أيدى أعدائه ، وكان بها رسالة من الشيخ مبارك يحرضه فيها على آل رشيد وفى نفس الوقت الذى كان يحرض فيه آل رشيد على ابن سعود[١] وكان من نتيجة ذلك أن أرسل الأمير متعب بن الرشيد قلة من جنوده أغارت على أطراف الكويت . كما توترت العلاقات أيضاً فى أعقاب معركة أجراب بين الكويت وابن سعود وظهر ذلك واضحاً حينما انتهزت قبيلة العجمان فرصة ضعف عبد العزيز وحاولت استرجاع ما كان لها من نفوذ على الإحساء ذلك النفوذ الذى كانت تتمتع به خلال الحكم العثمانى الواهن .

وقد خشى عبد العزيز من مواجهة ثورة العجمان خوفاً من التجائهم إلى الكويت وبذلك يتيح الفرصة لمبارك أن يستعين بهم عليه ولذلك لم يتقدم لقمع ثورة العجمان إلا بعد أن انتزع وعوداً مؤكدة من الشيخ مبارك بألا يمنحهم حق اللجوء أو الاحتماء به فى حالة وصولهم إلى إمارته .

وكان من حسن حظ الأمير عبد العزيز تأييد الحكومة البريطانية له فى سياسته التى كانت تهدف إلى تقويته على خصومه من آل رشيد لكى تخفف من حالات الضغط التى كان يقوم بها القبائل الموالية للشريف حسين وحتى تشغله عن هذا الاتجاه طلبت من الشيخ مبارك أن يمد الأمير عبد العزيز بقوة تساعده على قهر قبائل العجمان كيما يتفرغ لآل رشيد[٢] ، واضطر الشيخ مبارك أن يقدم بالفعل مساعدته لعبد العزيز لقهر ثورة العجمان ويبدو أنه فعل ذلك بعد أن قدمت له الحكومة البريطانية وعوداً خاصة بحماية إمارته من أى ضغط يقع عليها من قبل المقاطعات الخاضعة لعبد العزيز فى الإحساء . وإن كان الشيخ مبارك — فيما هو ثابت

---

(١) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ج ٢ ص ١٨٢ — بغداد ١٣٦ .

(٢) Philby, Sa'udi Arabia, p. 274.

لدينا — لم يكن مخلصاً فى تقديم المساعدة ويمكن أن نستدل على ذلك من التعليمات التى زود بها قائد جيشه الشيخ سالم بعدم معاونة عبد العزيز ضد العجمان فى حالة انتصارهم عليه إذا غلبهم ابن سعود فنحن معه وإذا هم غلبوه فلا تساعدهم فى حالة انتصارهم عليه «إذا غلبهم ابن سعود فنحن معهم وإذا هم غلبوه فلا تساعدهم عليه» .

وحينما انتصر عبد العزيز على العجمان أفسح لهم مبارك مكاناً فى بلاده فوردها قسم كبير منهم وأخذوا يبيعون ما نهبوه من الإحساء فى أسواق الكويت[١] ، مما جعل عبد العزيز يتذرع بمطاردته العجمان لغزو الكويت . ولم ينقذ الإمارة من الهجوم السعودى ألا تدخل الحكومة البريطانية وموت الشيخ مبارك فى أواخر ذلك العام ١٩١٥[٢] .

ووضح التدخل البريطانى لحماية الكويت وغيرها من إمارات الخليج من التوسع السعودى بعقد بريطانيا اتفاقية دارين ١٩١٥ مع الأمير عبد العزيز آل سعود وقد اعترفت فى هذه المعاهدة بتبعية نجد والإحساء والقطيف والجبيل وملحقاتها والموانى التابعة لها على ساحل الخليج للأمير عبد العزيز وباعتباره حاكما مستقلا على هذه الأراضى ورئيساً مطلقاً على جميع القبائل الموجودة بها وتعترف لأبنائه وأعقابه من بعده بذلك بشرط ألا يكون أى منهم ضد المواد التى نصت عليها الاتفاقية وقد تعهد ابن سعود من جانبه بألا يتداخل فى أراضى الكويت والبحرين وإمارات الساحل العمانى التى تربطها ببريطانيا معاهدات خاصة . والجدير بالذكر أن عبد العزيز استمر ملتزماً بشروط هذه الاتفاقية ومحافظاً على العلاقات السلمية خلال سنى الحرب العالمية الأولى . ولكن لم يلبث أن حدث خرق صريح من جانبه لهذه الشروط فى أعقاب الحرب العالمية الأولى إذ انتهز فرصة امتناع الحكومة البريطانية عن دفع الإعانة السنوية التى كانت تدفعها له توفيراً لنفقاتها مما كان سبباً

---

(١) حافظ وهبة : شبه جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ١٥٨ — القاهرة سنة ١٩٥٦ .

(٢) حلل عبد العزيز الرشيد فى كتابه تاريخ الكويت أسباب العداء بين ابن سعود والشيخ مبارك ج ٢ ص ١٨٠ — طبعة بيروت .

فى استئناف نشاطه على سواحل الخليج متعللا بحاجته إلى المال . وكانت لا بد من اصطدامه بالكويت وبغيرها من إمارات الخليج . ذلك أن الأمير عبد العزيز على الرغم من سلطته أصبحت مؤكد على الإحساء وبدأ يتخذ من موانيها منفذاً طبيعياً لإمارته إلا أنه لم يلبث أن اتضح لديه أن إمارة الكويت تنافس موانى الإحساء منافسة اقتصادية بعيدة المدى كما تأكد لديه أيضاً أن جميع القبائل النجدية تؤثر فى معاملاتها التجارية الكويت على الموانى الأخرى التى خضعت للادارة السعودية فى سواحل الإحساء . وقدر عبد العزيز مدى الخسارة المادية التى تلحق به لعدم تمكنه من الاستفادة عوانى الجبيل والقطيف وغيرها ولذلك بذل عدة محاولات لإجبار البدو التابعين له على الاكتيال من موانى الإحساء بيد أنه لم يجد ترحيباً منهم فى ذلك . ولم يلبث أن أدرك أن نتيجة هذا التضييق الشديد هو تعرضه لأزمة اقتصادية لا تقل عن الأزمة التى يمكن أن تتعرض لها الكويت ولذلك أبدى استعداده أن تستمر الكويت فى التعامل مع نجد بشرط استيفاء الرسوم الجمركية على الأموال التى تخرج منها إلى نجد لحسابه الخاص ولكن حكام الكويت رفضوا أن يكونوا مخلصين أو جباة ضرائب لعبد العزيز(١).

ومما ساعد على استمرار التوتر فى العلاقات بين نجد والكويت هجرات العجمان المتوالية إلى الكويت ولجوئهم إلى حكامها ناشدين الأمن من تعقب قوات عبد الله ابن جلوى لهم . ولم يلبث أن انفجر الموقف بين نجد والكويت حينما برزت إلى الوجود مشكلة الحدود بين البلدين وظهر ذلك واضحاً خلال عهد الشيخ سالم بإمارة الكويت الذى بات فى يقينه أن تحركات ابن سعود المستمرة على أطراف الكويت الجنوبية إنما يستهدف بها القضاء على الاتفاقية الانجليزية التركية الموقعة فى يوليو سنة ١٩١٣ والتى أصرت الحكومة البريطانية رغم هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى أن تعتبره متحملا التزاماتها باعتباره وريثاً فى ولاية نجد وسواحلها . ولذلك أخذ الشيخ سالم يشدد أحكام الإدارة المباشرة بل والصارمة فى كثير من الأحيان على إمارته تفادياً لحالة التهديد التى أخذ الكويت تتعرض

---

(١) راجع مشكلة المسابلة بين نجد والكويت فى مؤلف أمين الريحانى : ملوك العرب ، أو رحلته فى البلاد العربية ج ٢ ص ١٦٢ ١٦٤ — بيروت ١٩٢٩ .

لها من قبل القبائل التابعة لابن سعود ، كما عمل سالم فى نفس الوقت على تطبيق إدارته على القبائل القاطنة فى الجنوب بين الإحساء والكويت .

وكان الشيخ سالم على درجة كبيرة من القلق خشية طموح عبد العزيز وتابعه فى ذلك الوقت فيصل الدويش وخاصة بعد أن بلغته أنباء المعركة التى دارت بين عبد العزيز وقوات الشرافة فى تربه سنة ١٩١٩ ولذلك عزم على تثبيت الحدود بين الكويت والحسا[١] وكان يرى أن تنتهى حدود الكويت الجنوبية عند نقطة تبعد من قلب الإمارة بنحو مائة وخمسين ميلا ومن هذه النقطة تأخذ خطاً مستقيما نحو الشرق أى بمحاذاة ساحل الخليج الغربى بحيث تنتهى عند دوحة البلبول وكانت هذه المنطقة تتميز بغزارة مياهها وصلاحيتها لمرسى السفن وقربها من مناصات اللؤلؤ ولذلك كانت كثيراً ما تفد إليها العشائر الكويتية لرى ماشيتها . ورأى سالم تثبيتاً لحقوق الكويت تشييد قلعة ويتخذ من دوحة البلبول ميناءاً صغيراً ينافس به ميناء الجبال ، ولما بلغ الأمير عند العزيز مايقوم به الشيخ سالم أمر تابعه ابن شقير بالإستيلاء على جربا العليا ، وهى مكان يقع إلى الشمال الغربى من دوحة البلبول وبالفعل بدأت جماعات من الإخوان تصل إلى المنطقة وشرعوا فى تأسيس بعض الهجر فيها ومعنى وصول السعوديون إلى جربا العليا وهو وضوح الرغبة للتعدى على القاطمات الأساسية لإمارة الكويت . ولذلك كان لا مفر أمام سالم من الاستنجاد بالانجليز وبالفعل قدم الانجليز العون إلى الكويت حينما وجهوا إنذاراً للأمير عبد العزيز عن طريق الأجور مور المعتمد السياسى فى الكويت وقد جاء فى ذلك الإنذار أن الحكومة البريطانية لا تعترف بممتلكات الأمير عبد العزيز إلا فى داخلية الحدود المقررة لولاية نجد فى نطاق الاتفاق الانجليزى التركى السابق توقيعه بينها وبين الدولة العثمانية فى يولية ١٩١٣ . وإن عليه الالتزام بهذا الاتفاق والجدير بالذكر

(١) لم يلق موضوع الحدود الشمالية الشرقية للجزيرة العربية اهتماماً من الدارسين بعكس ما لقيته الحدود الجنوبية الشرقية التى أفرد لها كلى Kelly دراسة خاصة بعنوان :
The Eastern Arabian Frontiers, London, 1965.

ولعل إثارة المشكلة الخاصة بالبوريمى كانت دافعاً لمزيد من الدراسات وإعلان كل من الحكومة السعودية والحكومة البريطانية رأيهما بشأن هذه المشكلة .

أنه على الرغم من أن الحكومة البريطانية كانت تبدى شدة اهتمامها على أن تظل الشروط الواردة فى الاتفاق الانجليزى التركى نافذة من قبل الأمير عبد العزيز ، وكانت تحرص فى مناسبات كثيرة على تذكيره بتلك الاتفاقية إلا أنها من ناحية أخرى كانت تتعمد تجاهلها بالنسبة لعلاقتها مع شيوخ الكويت متعللة بأن هذه الاتفاقية قد ألغيت بمقتضى المادة السادسة من اتفاقية دارين الموقعة بين بريطانيا والأمير عبد العزيز فى عام ١٩١٥ .

وليس لدينا من تحليل لهذه الملاحظة غير أن بريطانيا كانت تقصد من وراء ذلك وضع حد للتوسع السعودى فى سواحل الخليج فى نفس الوقت الذى لا تتيح فيه لإمارة الكويت التمسك بالحدود المقررة لها فى تلك الاتفاقية وبذلك تعطى لنفسها الحرية الكافية فى وضع ما تراه من تسويات على حساب إمارة على أخرى كما حدث بالفعل فى تخطيطها للحدود المشتركة بين الكويت ونجد والعراق وبهذه المناسبة قدمت الحكومة البريطانية تبليغاً إلى الشيخ سالم فى ٩ يوليه ١٩٢٠ بإبطال اتفاقية ١٩١٣ ورد سالم على هذا التبليغ بإعلان استنكاره لإبطال مفعول الاتفاقية التى كانت تطالب بها إمارة الكويت .

وعلى أثر اشتداد غارات السعوديين على الكويت أبدى الأمير عبد العزيز فى مقابلة تمت بينه وبين السير برسى كوكس المندوب السامى فى العراق[١] أن تساعده الحكومة البريطانية فى ضم الكويت إلى مقاطعاته مشيراً إلى الاقتراح الذى سبق أن أدلى به فيلبى قبل ذلك بعدة سنوات . ولكن الحكومة البريطانية رفضت هذا الاقتراح كلية ولا يعرف السبب الحقيقى لذلك الرفض وإن كان البعض يعلله باحتمال وجود النفط بالكويت ورغبة الحكومة البريطانية أن تتمتع بالامتيازات التى تعهدت الكويت بها . وفضلا عن ذلك فإن السياسة العامة للحكومة البريطانية كانت تفضل وجود وحدات سياسية صغيرة لأن وجود هذه الوحدات أدعى إلى بقائها مسيطرة عليها لأطول فترة ممكنة .

ولم تلبث أن تصاعدت الأزمة الكويتية النجدية بقيام غارة واسعة النطاق قام

---

(١) راجع مقابلة العقير بن السير برسى كوكس وعبد العزيز بن سعود فى حسين خلف تاريخ الكويت السياسى — ج ٣ ٢٥٧ .

بها الأخوان على قرية الجهرة ومحاصرة الشيخ سالم فى القصر الأحمر(١) . وعرض فيصل الدويش شروط الصلح بعد اتهامه أهالى الكويت بمروقهم عن الإسلام ومطالباً بضرورة هدم المستشفى الأمريكى وإخراج القنصل البريطانى من الكويت إلى جانب ترحيل الشيعة من الكويت .

ورد سالم مستنكراً الشرط الأول ومبدياً استعداده لإزالة ما يمكن من فساد بينما رفض الشروط الأخرى . ولا شك أن سالماً اعتمد فى رفض شروط الدويش على موقف الحكومة البريطانية المؤيدة له ، ذلك أن الاتصالات الرسمية دارت بين المعتمد البريطانى فى الكويت وبين المندوب السامى فى بغداد والمقيم السياسى فى الخليج وتعدت هذه الاتصالات حكومتى الهند ولندن التى اتفقتا على إرسال قوات بحرية وجوية بهدف حماية الكويت . وبالفعل أبلغ الدويش بأن الحكومة البريطانية باسطة حمايتها على الكويت وأن الذين يحاولون الهجوم عليها يعرضون أنفسهم لقذف الطائرات والسفن الحربية البريطانية(٢) .

وليس هناك شك فى أن غزو الدويش كانت بناء على وامر من عبد العزيز آل سعود ويفهم ذلك من رد الدويش على الإنذار البريطانى من أن التحركات التى يقوم بها إغاهى بتكليف ابن سعود . ومع ذلك فقد اضطر الدويش إلى الإنسحاب إزاء الموقف الصارم الذى وقفته الحكومة البريطانية حماية الكويت(٣) .

وحاول المعتمد السياسى البريطانى فى الكويت ، منتهزاً فرصة الاضطرابات التى وقعت بين نجد والكويت تسويه الحدود فيما بينهما ، إلا أن الكويت أصرت

---

(١) سيف مرزوق الشملان — من تاريخ الكويت ص ١٨٦ وكذلك عبد العزيز الرشيد تاريخ الكويت — الجزء الثانى ص ٢١٦ .

(٢) صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية ماضيها وحاضرها ج ٢ ص ٢٢٩ بيروت ١٩٥٧ .

(٣) راشد عبد الله الفرحان — مختصر تاريخ الكويت وعلاقته بالحكومة البريطانية والدول العربيه — ص ٩٢ — القاهرة ١٩٦٠ .

على الاعتراف بحدودها من جزيرة العمار جنوباً قرب انطاع وإلى جهرة واللياية واللصانة الى حكر الباطن وشمالاإلى جبل سنام وسنام وسكوان وأم القصر وأن يكون كل من حاكم نجد والكويت مسئولا مسئولية مباشرة عما يجرى فى حدوده من تعديات البدو القاطنين ، وأن يكون للعشائر البادية الحرية التامة فى الانضمام الى تبعية أى حاكم يرونه أقدر من غيره على حمايتهم وأن تكون هناك ضمانات كافية لحرية التجارة ، وإذا حدث نزاع بين البدو فالفصل فيه من سلطة الحاكمين إلا إذا عجزا عن التوفيق فيرجع الأمر إلى وكلاء الحكومه البريطانية .

على أن وفاة الشيخ سالم ، والذى عرف بعدائه لعبد العزيز بن سعود ، أدى إلى توقف ابن سعود عن معاداته للكويت ، ولكنه لم يلبث أن وجه إليها ضربة اقتصادية بالغة الخطورة حينما عاد إلى تشديد عمليات الحصر الاقتصادى عن التعامل مع الكويت وقصر المعاملات التجارية على جمارك جبيل والعقير وتعلل ابن سعود بعدم استفادته من الضرائب التى ينبغى أن تفرض على رعاياه الذين يتعاملون مع الكويت فى الوقت الذى هو فى أشد الحاجة إلى أموال يستعين بها فى تثبيت مركزه فى الحكم . وفى عام ١٩٢٢ كانت الفرصة مناسبة كى تدخل بريطانيا لتضع تسوية بين الكويت ونجد والعراق وقد تم ذلك بموجب مؤتمر العقير . ويهمنا من ذلك المؤتمر التسوية التى توصلت إليها بريطانيا بالنسبة للكويت وقد شملت ما يأتى :

أولا — تعيين الحدود الجنوبية لإمارة الكويت .

ثانياً — تعيين حدود الإقليم المحايد فى الجنوب بين حدود الكويت الجنوبية وحدود الإحساء الشمالية .

ثالثاً — الاتفاق على أن يمارس كل من حاكمى نجد والكويت حقوقاً متساوية ، وفى حالة اكتشاف البترول يقتسم دخله مناصفة ويتم التقاضى بواسطة مجالس عرفية مختلطة يقوم كل حاكم بتعيين عدد من أعضائها .

لم تظهر الحكومة ارتياحاً للقرارات التى فرضها مؤتمر العقير ، وأكد الشيخ أحمد الجابر أن الكويت فقدت أكثر من ثلثى المقاطعات التى كانت تطالب بها ،

كما فقدت عدداً كثيراً من قبائلها[١] ومع ذلك فقد اضطرت الكويت أن توقع على هذه المعاهدة التى لم تكن فى حقيقتها إلا واحدة من التسويات التى فرضتها بريطانيا على العالم العربى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى[٢] . ومما يزيد من قوة اعتراض الكويت على الحدود التى التزمت بها بموجب قرارات مؤتمر العقير أن المعتمد السياسى البريطانى فى الكويت هو الذى كان يمثل الكويت فى هذه المحادثات[٣] ، وفيما يبـــدو أن الكويت اضطرت إلى التوقيع على هذه المعاهدة إزاء تجدد الغزوات السعودية على حدود الكويت . ولا شك أن توتر هذه العلاقات وشعور شيخ الكويت بالحاجة إلى تأييد بريطانيا قد أدى إلى أن تحتفظ الحكومة البريطانية بنفوذها فى الكويت وأن تكتسب فيها امتيازات جديدة كما حدث فى أكتوبر ١٩٢٥ حينما وافق شيخ الكويت على أنه يكون القضاء فى شئون الرعايا الانجليز وسائر الأجانب غير المسلمين وفقاً للنظام البريطانى وأن تختص به القنصلية البريطانية[٤] .

أما اتفاقية العقير فقد تضمنت فى الجزء الخاص بنجد والكويت على تخطيط الحدود بينهما فنصت على أن تبتدىء حدود نجد والكويت من ملتقى وادى العوجا بالباطن على أن تكون الرقعى (وهى مورد ماء) تابعة لنجد ومن هذه النقطة تمتد على خط مستقيم إلى حيث تلتقى بخط ٢٩ من خطوط العرض وبنصف الدائرة الحمراء المشار إليها بالمادة الخامسة من الاتفاقية الانجليزية التركية المؤرخة فى يوليه

---

(١) من أهم هذه القبائل قبيلة العوازم التى كانت تتبع بادية الكويت ثم اقتطعها الأمير عبد العزيز وفى الكويت جماعات متحضرة من هذه القبيلة .

أنظر — مجلة الكويت — المجلد الأول ص ١٥٧ محرم ١٣٤٧ هـ .

(٢) انظر دراستنا عن المؤتمرات السياسية للحرب العالمية الأولى على إمارات الخليج العربى — مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية — العدد ١٥/١٩٦٩ .

(٣) Philby, Sa'udi Arabia, p. 284, see also John Marlowe, The Persian Gulf in the 20th Century, p. 75 ff., London, 1965.

(٤) ألغى هذا الامتياز عام ١٩٦٠ انظر دليل الكويت — القسم الأول — الكويت بين الماضى والحاضر ص ١٩٦١ .

١٩١٣ . وكان متفقا على أن هذه الدائرة الحمراء مركزها قلب مدينة الكويت ونصف قطرها أربعون ميلا ، وهذا الخط يستمر إلى الجانب من نصف الدائرة حتى يصل إلى النقطة التى تنتهى عند الساحل جنوب رأس ، وهذا الحد الجنوبى يكون للكويت دون منازع .

أما بقعة الأرض المحددة شمالا بهذا الخط والتى يحدها غرباً ضلع من الأرض يسمى الشق وشرقا وجنوبا خط يمر غربا بشرق من الشق إلى عين العبد ومنها إلى الساحل شمالا إلى رأس المشعاب فهذه الأراضى تعتبر مشتركة بين حكومة نجد والكويت لهما فيها الحقوق المتساوية إلى أن يتفق اتفاقا آخر بين نجد والكويت بخصوصها بمصادقة الحكومة البريطانية[1] .

وعلى الرغم من أن اتفاقية العقير كان يهدف بها أساساً إقرار الأوضاع بين كل من الكويت ونجد والعراق إلا أن السنوات التالية لتوقيع هذه الاتفاقية شهدت استمرار الإغارات على حدود الكويت وكان مبعثها هذه المرة غارات من قبل الإخوان . ولا يستدل من المصادر التى تناولنا أن عبد العزيز كان له دخل فى هذه الإغارات الجديدة وإنما الثابت لدينا أن حركة الإخوان مرت بدورين رئيسيين الدور الأول ، استغلهم فيه عبد العزيز لتوسيع ملكه وكانوا فى هذا الدور يعملون لحسابه . أما الدور الثانى ، والذى يمكن أن نحدده بمؤتمر العقير فيسجل انقلاب الإخوان على الأمير عبد العزيز بعد أن توسع فى ملكه ووجدهم يعارضون اصلاحاته والتطورات التى أخذ يدخلها على الدعوة الوهابية استجابة لمتطلبات الدولة الحديثة .

وقد اعتقد الإخوان أنهم جند عبد العزيز وأنه لا يستطيع أن يتحرك بدونهم[2]

---

(١) راجع النص الكامل لاتفاقية العقير الخاصة بتعيين الحدود بين الكويت ونجد فى كتاب عبد الله الفرحان مختصر تاريخ الكويت وعلاقته بالحكومة البريطانية وبالدول العربية ص ١٣٤ — القاهرة ١٩٦٠ .

(٢) يمكن الرجوع إلى حركات الإخوان على الكويت — إصدار عبد العزيز الرشيد الجزء العاشر من المجلد الثانى محرم ١٣٨٤ — ص ٢٧ — ٢٨ .

وفى العام التالى لتوقيع اتفاقية العقير (١٩٢٣) تزعم فيصل الدويش غارة من الإحساء إلى الحدود الجنوبية للكويت . ولم يجد الشيخ أحمد الجابر بعد أن وصلت قواته متأخرة وبعد أن حدث اعتداء على المقاطعات الجنوبية إلا أن يبعث لعبد العزيز يشكو إليه تلك الأعمال العدوانية بعد أن أحدثت هذه الإغارات رد فعل شديد على سكان الكويت الذين بادروا إلى إعادة بناء السور وترميمه بهدف حماية إمارتهم من خطر الإغارات .

ورد الأمير عبد العزيز على الشيخ أحمد الجابر يعتذر له عن هذا الهجوم كما أكد للمعتمد السياسى البريطانى فى الكويت أن هـــذه الغارة قام بها جماعة من الإخوان الخارجين عليه ، وأنهم فى تحركاتهم يخالفون أوامره وأنه غير مسئول عن أعمالهم . وقد أكد ديكسون فيما بعد أن الإخوان كانوا فى توسعاتهم يتصرفون ضد رغبات الأمير عبد العزيز بل وبتحد لأوامره . وفى عام ١٩٢٨ أكدت البعثة التى أوفدها الشيخ الكويت إلى ابن سعود بعد غارة عنيفة تعرضت لها الإمارة أسف الأمير ابن سعود ورغبته الجادة فى رد الأسلاب التى استولى عليها الإخوان إلى الكويت . وأبلغ الأمير عبد العزيز البعثة الكويتية أنه أصدر أوامره بإعداد قوة عهد بقيادتها إلى أحد أبناء عبد الله بن جلوى حاكم الإحساء ضد الإخوان بهدف استعادة الأسلاب إلى شيخ الكويت . غير أنه فى العام التالى ١٩٢٩) بدأت قبائل العجمان تحرز تقدماً واسع النطاق ، وذلك بإغاراتها على قبائل المتفق القاطنة فى شمال الكويت واتجاهها إلى التقارب مع الكويت ضد عبد العزيز بن سعود . ولا شك أن الكويت كانت تأمل بتحالفها مع هذه القبائل الثائرة على الحكم السعودى فى الإحساء الحصول على مكاسب إقليمية وقبلية ، أو على الأقل تقويض اتفاقية العقير التى لم تخرج منها الكويت بكسب يذكر . ومما يوضح لنا أن شيوخ الكويت كانوا راضين عن العلاقات الودية بينهم وبين العجمان تغاضى حكام الإمارة عن عمليات التعامل التجارى الذى كان يقوم به تجار الكويت مع هذه القبائل مما كان مبعثاً لاستياء الأمير عبد العزيز ولتدخل المعتمد البريطانى فى الكويت . ولم يجد الشيخ أحمد الجابر مفراً إزاء ذلك إلا أن يعود إلى تأكيد تعهداته قبل بريطانيا بعدم التقارب مع القبائل المعادية لابن سعود . ولم يلبث بعد ذلك أن وصل فيصل الدويش إلى شمال الإحساء ودعى الشيخ أحمد الجبر للانضمام لحركة ضد ابن سعود ولا شك أن زعيم

الإخوان كان يقدر جيداً استياء شيوخ الـكويت من اتفاقية العقير ولذلك رأى أن يستعين بهم لتوسيع نطاق ثورته ضد ابن سعود . ومما يؤكد لنا ذلك أنه دعى بالفعل الشيخ أحمد الجابر إلى الانضمام إليه فى ثورته بهدف استرداد المقاطعات الـكويتية التى انتزعت من الـكويت بمقتضى قرارات مؤتمر العقير ، كما أتبع خطابه هذا بطلب صريح وهو أن يسمح له شيخ الـكويت بالتمركز بقواته فى الصبيحية ويأتى إلى الـكويت ليشرح خططه على أن تقدم له الـكويت ما تحتاجه من مدد ومؤن[1] .

ولا شك أن عروض الدويش قد أحدثت ارتياحاً فى الـكويت ووجد الـكثيرون من أهالى الـكويت أن الفرصة سانحة للتخلص من قيود اتفاقية العقير ، والعودة بالحدود الطبيعية للـكويت . ولـكن الحـكومة البريطانية سارعت بإصدار تعليماتها إلى الشيخ أحمد الجابر ألا يستجيب لهذا العرض وأن يمنع الدويش وأتباعه من عبور الحدود بين الإحساء والـكويت . ويقرر ديكسون الذى عاصر تلك الأحداث أن الشيخ أحمد استمر على وعوده لبريطانيا على الرغم من قوة الإغراءات التى قدمها إليه الدويش فى أن ينتزع من السعوديين ممتلـكاته المسلوبة فى الجنوب ، واسترداد زعامته على العوازم وعجمان ومطير وقد طلبت الحـكومة البريطانية من الشيخ أحمد الجابر ، إزاء سيطرة الإخوان على المنطقة من شمال نجد من جبل شمر إلى سواحل الخليج وتمركزهم فى المنطقة المحايدة بين الإحساء والـكويت ، بألا يسمح بأى تعامل مع زعماء الإخوان ، وأن يصد قواتهم فى حالة هجومهم على الـكويت .

وعلى الرغم مما كان ينتظر من تحالف بين الشيخ أحمد الجابر والإخوان من إتاحة الفرصة للـكويت لتحقيق مكاسب خاصة بها أو على الأقل استرداد ما كان لها من ممتلـكات انتزعت منها إلا أن هذا التحالف لم يكن من المتوقع له النجاح ويرجع ذلك فى تقديرنا إلى عاملين :

أولهما — العداء التقليدى بين الـكويت والإخوان نتيجة لإغاراتهم السابقة على الـكويت و [illegible] الأهالى

---

(١) Dickson, Kuwait and her Neighbours, pp. 307-308, London, 1956.

وثانيها — الضغط البريطانى .

وإزاء رفض الكويت التعاون مع فيصل الدويش تعرضت الكويت لرد فعل شديد قام به الإخوان على حدودها الجنوبية المتأخمة للاحساء فى ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٠ مما دعى إلى تدخل ديكسون المعتمد السياسى فى الكويت الذى دعى الدويش إلى مقابلته حيث طلب منه الإنسحاب بقواته على الفور ، ولكن الدويش ذكر أنه ليس فى نزاع مع الانجليز وأنه وقبيلته مطير يتبعان شيخ الكويت ، كما حاول أن يحصل على حق اللجوء فى الكويت إزاء تعرض قوته للانهيار نتيجة لموقف الحكومة البريطانية التى تتردد فى استخدام القوة لوضع نهاية لحركته . وقد طلب فيصل أن يسمح لأتباعه بالاكتيال من الكويت وأنهم يودون العودة إلى ولائهم للكويت .

وعلى الرغم من أن الدويش وغيره من زعماء مطير والعجمان أعلنوا استسلامهم للسلطات البريطانية فى الكويت إلا أن ديكسون رأى تسليم زعماء الإخوان للأمير عبد العزيز بن سعود بعد أن توسط لديه فى الترفق بمعاملته لهم والحصول منه على تأكيد بألا يواصل إدعاءاته على مقاطعات الكويت والعراق نظير الموقف الذى وقفته الحكومة البريطانية تجاهه إزاء هذه الثورة التى كانت تهدد ممتلكاته بالضياع .

ونظراً لموقف الكويت المحايد ، وهو موقف لا شك أنه فرض عليها خلال ثورة الإخوان ، تسلم الشيخ أحمد الجابر فى عام ١٩٣٠ نيشاناً ووعداً من قبل الحكومة البريطانية بأن تبذل كافة مساعيها لكى يزيل عبد العزيز بن سعود جميع القيود التى فرضها على المعاملات التجارية بين نجد والكويت . ويؤكد ديكسون بصدد ذلك أن الموقف المحايد الذى وقفته الكويت خلال ثورة الإخوان كان عوناً رئيسياً لقمع هذه الثورة ويرى بصدد ذلك أن بريطانيا أسدت إلى ابن سعود جميلا وذلك بإبقائها كلا من الكويت والعراق على الحياد خلال هذه الأزمة[1] .

---

(١) Dickson, op. cit., p. 326.

وبالفعل استمرت الحكومة فى بذل وساطتها لإقرار العلاقات بين الكويت والسعودية وتحقق ذلك فى عام ١٩٣٧ حينما أعلن الملك عبد العزيز بن سعود رفعه جميع القيود على تجارة رعاياه[١] وتمهد الطريق فى عام ١٩٤٠ لعقد اتفاقية بين الكويت والسعودية حينما ذهب الشيخ حافظ وهبة وزير الخارجية السعودية إلى الكويت لحل هذا النزاع الذى طال عليه الأمد وبعد مفاوضات بين الشيخ والوكيل السياسى بالكويت استمرت قرابة أسبوعين وقعت ثلاثة اتفاقيات هامة بين البلدين وهى معاهدة صداقة وحسن جوار ومعاهدة تجارية ومعاهدة ثالثة لتبادل تسليم المجرمين[٢].

وبعد عامين من توقيع تلك المعاهدات تبودلت مذكرتان رسميتان فى ٢٠ أبريل سنة ١٩٤٢ بشأن تبعية القبائل للكويت والسعودية بين الشيخ يوسف ياسين والسير بيرو المفوض البريطانى فى جدة جاء فيهما أنه حيث توقعت السعودية فى تدوين اتفاقية الصداقة وحسن الجوار فيما بين البلاد العربية والسعودية والكويت فقد استقر التفاهم على تحديد القبائل التابعة للسعودية والتابعة للكويت . أما فيما يتعلق بمسألة ما إذا كانت أية من هذه القبائل تتبع الكويت فهذا أمر يسوى بين السعودية الكويت ، وفى حالة عدم التوصل إلى اتفاقية من هذا القبيل فيمكن أن يتم ذلك عن طريق لجنة مشتركة تعين فى وقت تتفق عليه الحكومتان[٣] .

والملاحظ أن العلاقات الودية بدأت تسير على وئام بين الكويت والسعودية خاصة بعد توقيع المعاهدة الدفاعية بين البلدان ١٩٤٧ ولاشك أن اكتشاف البترول فى كل من الكويت والسعودية وتصديره على نطاق واسع قد أزال الخلاف الاقتصادى التقليدى بين الكويت والسعودية والذى لاحظناه خلال عرضنا السابق .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣١ .

(٢) دليل الكويت — الباب الأول — الكويت بين الماضى والحاضر ص ١١ .

(٣) راجع فى ذلك المذكرتان المتبادلتان بين الشيخ يوسف ياسين وزير الخارجية السعودية وبين السير ف .هـ.و استونهيوربيرد المفوض البريطانى فى جدة فى ٢٠ أبريل سنة ١٩٤٢ فى المجلد الثانى من وثائق الحكومة السعودية الخاصة بالتحكيم لتسوية النزاع الإقليمى بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية جـ ٢ — ص ٦٥ و ١٩٦٧ .

ومع ذلك فان اكتشاف البترول فى المنطقة المحايدة دفع الدولتان إلى محاولة الوصول إلى اتفاق جديد بشأن تبعية بعض الجزر وملكيتها للسعودية أو الكويت فى نطاق المنطقة المحايدة ، وقد بذلت محاولة من ذلك النوع فى عام ١٩٥١ وتجددت المباحثات بين مندوبى السعودية ومندوبى الكويت فى أبريل ١٩٦١ [١] غير أن هذه المباحثات لم تصل إلى نتيجة إيجابية حتى وقتنا الحاضر (١٩٦٨) .

الدكتور جمال زكريا قاسم

(١) حافظ وهبة   شبه جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٨٩ .

مصادر البحث

أولا ـ وثائق غير منشورة :

Public Record Office
— Turkish Jurisdiction along the Arabian Coast of the Persian Gulf, F.O. 785108.

— Memorandum Respecting Koweit, F.O. 7815174.

India Office Political and Secret Library,
— Political and External Files, vol. 20, File 1508.

India Office Political and Secret Department, Letters from the Persian Gulf, vol. 18.

ثانياً ـ وثائق منشورة :

— Aitchison, C.U., A Collection of Treaties, Engagements and Sands relating to India and Neighbouring Countries, vol. X, Persian Gulf, Calcutta, 1892.

— British Intelligence Service, A Handbook of Arabia, vol. I, General, London, 1916.

— Gooch and Temperly, British Documents on the Origins of War, 1898-1914, vol. X, Part II, London, 1938.

Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East, 2 vols.

وثائق سعودية :

التحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية — عرض الحكومة السعودية — ٣ مجلدات — القاهرة ١٩٥٧ .

ثالثاً ـ المصادر العربية :

— ابن بشر (عثمان) ، عنوان المجد في نجد — القاهرة ١٣٤٩ .

— أحمد مصطفى أبو حاكمة ، تاريخ الكويت — الجزء الأول — إصدار لجنة تاريخ الكويت — الكويت ١٩٦٧ .

— لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، (مجهول المؤلف وتحقيق أبو حاكمة) — بيروت ١٩٦٧ .

— البصري (عثمان بن سند) سبائك العسجد ، بومباي — ١٣١٥ .

— بيرين (جاكلين) ، اكتشاف جزيرة العرب (مترجم) — بيروت ١٩٦٢ .

— جمال زكريا قاسم ، الخليج العربى — دراسة لتاريخ الإمارات العربية — القاهرة ١٩٦٧ .

— المؤثرات السياسية للحرب العالمية الأولى على إمارات الخليج العربى ، دراسة منشورة فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية — العدد ١٥ — القاهرة ١٩٦٨ .

— حافظ وهبة ، شبه جزيرة العرب فى القرن العشرين — القاهرة ١٩٥٦ .

— حسين خلف الشيخ خزعل ، تاريخ الكويت السياسى — ٤ أجزاء .

— حسين بن غنام ، روضة الأفكار والأفهام — وتوجد نسخة مصورة بدار الكتب المصرية .

— راشد عبد الله الفرحان ، مختصر تاريخ الكويت وعلاقته بالحكومة البريطانية والدول العربية — القاهرة ١٩٥٩ .

— سيف مرزوق الشملان ، من تاريخ الكويت — القاهرة ١٩٥٩ .

— عبد الله الحاتم ، من هنا بدأت الكويت — دمشق .

— لوريمار ج . ج ، دليل الخليج (مترجم) — ٧ مجلدات — حكومة قطر — الدوحة ١٩٦٧ .

— صلاح الدين المختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية فى ماضيها وحاضرها فى جزئين — بيروت ١٩٥٧ .

— صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج العربى — القاهرة ١٩٦٦ .

— يوسف بن عيسى القناعى ، صفحات من تاريخ الكويت — القاهرة سنة ١٩٢٦ .

رابعاً ـ المصادر الأوربية :

— Blunt, Lady Année, A Pilgrimage to Nejd, The Cradle of Arab Race, 2 vols., London, 1881.

— Brydges, Harford Jones, An Account of the Transactions of His Majesty's Mission to the Court of Persia in the years 1810-1811, to which is appended a brief history of Wahhaby, 2 vols., London, 1834.

— Dickson, H.R.P., Kuwait and her Neighbours, London, 1956.

— Graves, Philip, The Life of Sir Percy Cox, London, 1931.

— Kelly, J.B., Britain and the Persian Gulf, London, 1968.

— Neibuhr, Carsten, Travels through Arabia and other Countries in the East, 2 vols., Edinburgh, 1792.

— Rouire, M., La question de Golfe Persique, Le règlement de questions de Mascate et de Koweit, Revue des deux Mondes, cinquième période, tome XVII, Paris, 1903.

خامساً ـ الدوريات :

مجلة الكويت — إصدار : عبد العزيز الرشيد — الكويت .

مجلة الشرق — إصدار لويس اليسوعي — بيروت .

دليل الكويت — دليل شامل أصدرته غرفة تجارة وصناعة الكويت عن دولة الكويت .

دراسات فى تاريخ آسيا الحديث :

تجارة الأسلحة فى غرب آسيا

(فارس — أفغانستان — الخليج العربى)

(١٩١٠ — ١٩١٣)

دكتور جاد محمد طه

لقد كان لتجارة الأسلحة فى غربى آسيا فى السنوات الخمس التى سبقت الحرب العالمية الأولى تأثيرات خطيرة على الدول القائمة بهذه التجارة وعلى الموقف الدولى بصفة عامة .

وإبان المنافسة البريطانية الفرنسية فى مناطق الخليج العربى ، عمدت فرنسا إلى إقامة تجارة رائجة فى الأسلحة والذخائر فى المنطقة . وكانت معظم الأسلحة والذخائر تصدر من ميناء جيبوتى الخاضع للفرنسيين ، حيث يحملها التجار إلى الخليج العربى ومن هناك كانت تصدر إلى ساحل بلوخستان وفارس ثم إلى أفغانستان ومقاطعات وسط آسيا ، مما أدى إلى حدوث اضطرابات على الحدود الشمالية الغربية للهند[١] .

وقد ضغطت بريطانيا على دول غربى آسيا لمنع هذه التجارة فى أراضيها ، ونتيجة لذلك أصدر شاه فارس أمراً إمبراطورياً فى عام ١٨٨١ ، ثم أكده بقانون فى عام ١٩٠٠ منحت بمقتضاه السفن الحربية البريطانية الحق فى الإستيلاء على الأسلحة المنقولة إلى الموانىء الفارسية[٢] . كما عقدت الاتفاقات التى تحرم هذه التجارة مع شيوخ البحرين (١٨٩٨) والكويت (١٩٠٠) وشيوخ الساحل المهادن (١٩٠٢) .

---

(١) P. Harrison, The Arab at Home, p. 96.

(٢) India Office Library, Political Dept., B. 182, Arms Traffic at Muscat, 15 Feb. 1911.

أما قطر فكانت الاستثناء الوحيد من القاعدة العامة لمنع التجارة فى الأسلحة فى حدود الخليج العربى غربى رأس موسا نديم .

وفى عام ١٨٩٨ ، وافق سلطان مسقط على منع تصدير الأسلحة من أراضيه إلى الهند وفارس ، ومنح السفن البريطانية السلطة فى تحقيق هذا المنع .

إلا أن استيراد الأسلحة إلى مسقط ثم تصديرها إلى جهات أخرى غير الهند وفارس ظل دون ضابط ، وكانت النتيجة أن أصبحت مسقط هى السوق الرئيسية للأسلحة فى كل منطقة غربى آسيا ووسطها[١] .

وكان أهم طريق لتوزيع الأسلحة هو الطريق الذى يبدأ من مسقط إلى ساحل مكران فى فارس ثم إلى أفغانستان والحدود الشمالية الغربية للهند — كما ذكرنا — إلا أنه نتيجة للنشاط البحرى البريطانى ، فإن هذا الطريق أصبح غير مأمون ، ومن ثم بدأت تجارة الأسلحة تتخذ طريقها إلى قطر ثم عبرها إلى ساحل لارستان الفارسى . وقد أبدت السلطات الفارسية عـــدم قدرتها على منع هذه التجارة فى أراضيها . ولا شك أن توزيع الأسلحة الحديثة عبر المناطق الواقعة على الحد الشمالى الغربى للهند كان فى حد ذاته أمراً خطيراً بالنسبة لبريطانيا . وقد حاولت الحكومة البريطانية مراراً القضاء على تجارة الأسلحة فى غربى آسيا حرصاً منها على مصالحها فى الهند ، إلا أنه كان واضحاً تماماً أن هذا لن يتأتى إلا بالمنع الكامل لهذه التجارة فى مسقط .

وفى مؤتمر بروكسل للأسلحة (١٩٠٨ — ١٩٠٩)[٢] ، أعلنت كل من الولايات المتحدة وهولندا أنهما مستعدتان للتنازل عن حقوقها بالنسبة لتجارة الأسلحة إذا ما سلكت القوى الأخرى — انجلترا وفرنسا — نفس السبيل ، إلا أن فرنسا عرضت كل الجهود ، وفى نهاية ديسمبر ١٩٠٩ ، انتهى المؤتمر دون اتخاذ قرار

(١) India Office Library, Political and Secret Library, Political Department, B. 196, Memorandum, Arms Traffic in the Persian Gulf, D.T.M., 20 Feb. 1913, p. 3.

(٢) Philip Graves The Life of Sir Percy Cox, London, p. 142.

بالنسبة لتجارة الأسلحة فى مسقط(١) .

ونتيجة لفشل مؤتمر بروكسل فى اتخاذ قرارات لمنع تجارة الأسلحة فى مناطق النفوذ البريطانية ، قررت حكومة لندن فرض حصار بحرى على سواحل الخليج لتنفيذ منع تجارة الأسلحة بالقوة . وقد صادف الأسطول المكلف بالحصار بعض النجاح ، فهو وإن لم يكن فى إمكانه القضاء على هذه التجارة ، فإنه تمكن من الحد منها إلى درجة كبيرة(٢) .

إلا أن عمليات الحصار البحرى كانت تتكلف مبالغ طائلة حتى إنه كان من المتوقع منذ أول الأمر أنها إجراء مؤقت الى حين عقد اتفاق دائم مع فرنسا لمنع هذه التجارة .

موقف أفغانستان وفارس من تجارة الأسلحة :

لقد اقترحت حكومة الهند استمرار الحصار حتى ديسمبر سنة ١٩١٠ ، وقد وافقت وزارة الخارجية البريطانية على ذلك فى ٢٦ سبتمبر ١٩١٠ بعد أن أشارت إلى أنه « ليست هناك ترتيبات مقبولة مع فرنسا بالنسبة لمسقط حتى الآن » .

وقد بزغت مسألتان مرتبطتان بالحصار خلال صيف ١٩١٠ ، الأولى بالنسبة لأحقية بريطانيا فى الإستيلاء على الأسلحة التى تصل إلى الأراضى الفارسية ، والثانية بالنسبة للسفن التى تحملها وهى ترفع العلم الفرنسى ، ولقد طلبت حكومة الهند من قائد الأسطول أن يبدى وجهات نظره بالنسبة لهذه المسألة وقد أوضح الأدميرال سليد SLADE فى ٢٥ يوليو ١٩١٠ أن « المسألة لها وجهان : فعندما تكون الأسلحة المشحونة مملوكة لرعايا فرنسيين ، فإن هؤلاء لهم مطلق الحرية فى نقلها ، كما أن لفرنسا الاحتجاج على أى إجراء بريطانى قد يؤثر على ثروات مملوكة لرعايا

---

(١) India Office Library, Political and Secret Library, Political Department, B. 196, Memorandum Arms Traffic in the Persian Gulf, D.T.M., 20 Feb. 1913, p. 4.

(٢) I.O.L., Pol. Dep., B. 182, Arms Traffic at Muscat, 15 Feb. 1911.

فرنسيين » أما الوجه الآخر فهو أن تكون الأسلحة مملوكة لتجار الأسلحة الوطنيين، والذين نقلوها على سفن ترفع العلم الفرنسى بهدف تلافى تدخل السفن الحربية البريطانية ، وفى هذه الحالة الثانية فإن الأدميرال يعتقد بأن فرنسا لا يمكن بأى شكل من الأشكال وبأى تفسير محتمل للقانون الدول أن تطالب بأن يسود مبدأ أن « العلم يغطى البضائع » إذا ما تم نقلها من السفن التى ترفع علمها .

وأضاف الأدميرال أنه إذا ما تم نقل شحنات الأسلحة إلى الأفغانيين أو ممثليهم فإن حماية العلم الفرنسى لها تكون قد انتهت ، وإذا لم يكن الأمر كذلك فإنه « لن يمكننا أن نمس أى سلاح سواء على الساحل أم بعيداً إلى الداخل » .

كما أن الأدميرال رأى أنه يجب الإستيلاء على الأسلحة التى تنزل الى الشاطىء من السفن الفرنسية ، كما أبدى وجهة نظره فى أنه « اذا اضطرنا الى السماح بنقل الأسلحة على السفن الفرنسية دون التعرض لها ، فإن كل التجارة سوف تسلك نفس الطريق دون استطاعتنا ايقافها ، وأن كل الأموال التى تنفق فى هذا السبيل سوف تذهب هباء .

والواقع أنه إذا لم يقم الانجليز بالاستيلاء على الأسلحة المنقولة إلى الأراضى الفارسية فإنهم لن يستطيعوا منع الأفغانيين من نقل الأسلحة تحت سمعهم وبصرهم ولا شك أن هذا الإجراء — إذا ما حدث يمس الهيئة البريطانية فى الخليج ، ويظهر أن فرنسا هى القوة الأعظم[١] .

ويرجع استخدام رعايا سلطان مسقط للأعلام الفرنسية إلى عام ١٨٦٠[٢] ، وفى ١٨٩١ جاءت التقارير من حكومة بومباى ومن المقيم فى الخليج العربى بأن القناصل الفرنسيين فى عدن وأبوك وزنجبار قد منحوا فى مناسبات عديدة أوراقاً ، وأعلاماً فرنسية للقوارب الوطنية المملوكة لبعض رعايا سلطان مسقط . وبعد نقل المسألة إلى الحكومة البريطانية بوقت قصير ، جاء تقرير آخر من المقيم فى بوشهور

---

(١) India Office Library, Political Dep., B. 196, Secret Memo., Arms Traffic in the Persian Gulf, D.T.M., 20 Feb. 1910.

(٢) Grant of French Flags to Muscat Dhows. I.O.L., Pol. and Secret Dep., B. 134, Confidential. Memo.

يشير إلى أن سلطان مسقط اقترح بنفسه أن يرسل إلى الحكومة الفرنسية معترضاً إرسال أعلام وأوراق فرنسية للقوارب المملوكة لأتباعه(١). وقد أوضح السلطان أن السبب الوحيد الذى جعل ملاك القوارب يطلبون الحماية الفرنسية هو حق يمكنهم ممارسة عمليات تجارة الرقيق دون رقابة من السفن البريطانية(٢)، وبينما رأت حكومة الهند أنه من غير المرغوب فيه أن يقدم السلطان احتجاجه مباشرة إلى الحكومة الفرنسية، فإنها أبلغت المقيم بأن عليه أن يبلغ السلطان بأنه « لديه السلطة المطلقة لمعاقبة رعاياه الذين يخرجون على قوانين بلاده إذا حملوا أية أعلام أو أوراق فرنسية، وأن السلطان يمكنه اتخاذ أية خطوات يراها ضرورية لتدعيم سيادته فى مياهه الإقليمية بالنسبة لرعاياه الذين يحملون أعلاماً فرنسية » .

وقد أبلغ وزير الدولة هذه المعلومات إلى وزير الخارجية، وقد استنكرت الحكومة الفرنسية هذا العمل من جانب القنصل الفرنسى فى عدن، وأعطت تأكيدات بعدم تكرار ذلك مرة أخرى(٣). وان كان من المفهوم أن القنصل الفرنسى يعمل بتعليمات من حكومته، وأن هذا الاستنكار لتصرفاته هو للتخلص من هذا الموقف .

وعلى أية حال فقد استمر استخدام رعايا سلطان مسقط للأعلام الفرنسية على قواربهم لتلافى تفتيش السفن البريطانية لهذه السفن عند نقلها للرقيق أو للأسلحة(٤).

التدخل البريطانى فى فارس :

لقد ثار جدل كبير حول أحقية بريطانيا فى الإستيلاء على الأسلحة فى الأراضى

---

(١) I.O.L., Pol. and Secret Department, B. 135, Enclosure No. 14, Memo. on the use of the French Flags by Subjects of the Sultan of Muscat, 17 May 1900.

(٢) I.O.L., Pol. and Secret Dep., B. 143, Confidential Memo. Grant of French Flags to Muscat Dhows.

(٣) I.O.L., Political and Secret Dep., B. 135, Enclosure No. 14, Memo. on the use of the French Flags by Subjects of the Sultan of Muscat, 17 May 1900.

(٤) J.J. Berreby, Le Golfe Persique, p. 185.

الفارسية ... وقد رأى مورلى Viscount Morley أن الإستيلاء على الأسلحة فى الأراضى الفارسية سوف يثير مشكلات مع الحكومة الفرنسية ... إلا أنه يبدو أنه لن تكون هناك معارضة إذا تم الاستيلاء على الأسلحة قرب الحدود الأفغانية.

وقد تمت استشارة السير بارسلى G. Barcley الوزير البريطانى المفوض فى طهران بالنسبة لهذه النقطة ، وقد أوضح الوزير بأنه يعتقد بأن الحق فى الاعتراض ضد استيلاء البريطانيين على الأسلحة من الأفغانيين فى الأراضى الفارسية هو حق فقط للحكومة الفارسية .

وفى ١٣ سبتمبر ١٩١٠ أصدر الأدميرال سليد Slade تعليماته لقواته بأنه إذا ما ظهرت إحدى السفن وعليها أعلام فرنسية ، فأنه يجب تتبعها والاستيلاء على الأسلحة التى تحملها بمجرد انتقالها إلى التجار الأفغانيين على الساحل[١] .

وقد نقل قرار الحكومة البريطانية إلى حكومة الهند « بأنه لا يعد كافياً الاستيلا على الأسلحة بمجرد إنزالها من السفن الفرنسية على الساحل ، لأن الحصار البحرى بهذا الوضع يتعرض للفشل »[٢] .

وبالنسبة للساحل المهادن ، فقد أشار كوكس Lieutenant-Colonel Cox إلى أنه بينما لم يأت ذكر « لأحقيتنا فى التفتيش على سواحلهم ، فان الشيوخ سوف يندهشون إذا ما طلبنا منهم ذلك ، لأن السفن البريطانية فى الواقع قد مارست هذا الحق ، ولم يحتج الشيوخ بالنسبة لذلك[٣] .

وقد تمسكت حكومة الهند بأنه يجب اعتبار « سواحل المحميات كسواحل القوى صاحبة الحماية » إلا أن الحكومة البريطانية رأت عدم تعميم هذه القاعدة ، وأنه من

---

(١) I.O.L., P.D., B. 196, Secret, India Office to Foreign Office, 8 Sept. 1910.

(٢) I.O.L., P.D., B. 196, Secret, Viscount Morley's Telegram, 3 Oct. 1910.

(٣) I.O.L., P.D., B. 196, Secret, L.C. Cox to Governor of India, 22 Oct. 1910.

الأفضل معاملة كل حالة طبقاً للموقف وكحالة منفصلة ، ويجب أن يكون الشيوخ المهادنون مقتنعين بحقنا فى التفتيش على سواحلهم وأن يستمر العمل طبقاً لذلك»(١).

ولا شك أن حكومة الهند كانت مقتنعة بأهميـة الحصار البحرى بالنسبة لإيقاف تجارة الأسلحة فى الخليج ، ولتدعيم الحصار ، أوصت هذه الحكومة بإنشاء ثلاث محطات لاسلكى فى دبى والبحرين وبوشهر ، وطبقاً لما أشار به الكولونيل كوكس — الذى وضع تقديراته على دخول بندر عباس — فإنه كان من المتوقع «أن المواقع الاستراتيجية الهامة للمحطات الثلاث سوف تنقص من تكاليف الحصار وذلك بإنقاص عدد الزوارق المستخدمة فيه(٢) .

إلا أن الأدميرال سليد لم يؤكد هذا التصور ، ولكنه حث على الرغبة فى إقامة المحطات ، لأنه فى الخريف التالى « سوف تزداد تجارة الأسلحة فى الخليج ازدهاراً نتيجة لنقل القاعدة البحرية من مسقط ، وأن محطات اللاسلكى الإضافية الثلاث سوف تعوض عن نقص القوة فى الاتصالات نتيجة تغيير القاعدة »(٣) .

أما بالنسبة لمحطة اللاسلكى فى بوشهر ، فقد ثار تساؤل عما إذا كانت موافقة الحكومة الفارسية لازمة لإقامتها ، إلا أنه أمكن تلافى ذلك استناداً إلى حالة مشابهة فى جاسك Jask حيث أقيمت المحطة داخل حدود محطة البرق الهندوأوربية « ويمكن إبلاغ الحكومة الفارسية رسمياً بذلك لأنه عليها حماية هذه المحطة »(٤) .

وفى الثالث من أكتوبر أبرقت حكومة الهند بأنه مادامت المحطات الثلاث لا يمكن أن تعمل قبل مارس ١٩١١ ، فإنه تقرر تأجيل الموضوع كله .

وإذا كانت حكومة الهند قد استبعدت إقامة محطات اللاسلكى لتدعيم الحصار

---

(١) I.O.L., P.D., B. 196, Secret, F.O. to I.O., 17 Dec. 1910.

(٢) I.O.L., P.D., B. 196, Secret, L.C. Cox to Governor of India, 24 June 1910.

(٣) I.O.L., P.D., B. 196, Secret, Persian conselnt not needed, India, 19 June 1910.

(٤) I.O.L., P.D., B. 196, Secret, Admiral Slade to Governor of Memo. by Mr. Kirk, Director in Chief Indo-European Telegraph Department, 7 July 1910.

فإنها اقترحت — لزيادة فاعلية الحصار — زيادة التحركات والداوريات التي تستمر ليومين أو ثلاثة على أن تكون الداورية من أعداد ملاءمة من حامية جاسك Jask وعلى أن يكون واجب هذه الداوريات الحصول على المعلومات بالنسبة لطرق القوافل من الساحل إلى الداخل[١].

ضعف الحكومة الفارسية :

بينما وافق وزير الدولة على الاقتراح السابق ، فإنه أشار أيضاً الى أنه إذا مكن استخدام القوات البريطانية على الأرض الفارسية ، فإن تأثيرها سيكون أكثر فاعلية لأنها تكون أقرب الى الحدود الأفغانية وحيث تتجه الطرق من ساحل الخليج « ... وقوة صغيرة ولكن مؤثرة جداً « تعمل فى روبات Robat يمكنها بسهولة قطع قوافل الأسلحة عند عودتها إلى أفغانستان »[٢].

إلا أن حكومة الهند — لعدة اعتبارات — رأت أن وضع قوة صغيرة مؤثرة فى روبات سوف لا يكون لها التأثير المطلوب نتيجة للصعوبات فى الحصول على الإبل[٣]، وكذلك للحاجة الى وقت طويل لتنفيذ الترتيبات اللازمة لتحقيق ذلك ، وكذلك للاعتراضات المتوقعة نتيجة لوضع قوة ضاربة على الحدود الأفغانية وحيث لا توجد حدود مشتركة مع الهند[٤]. والواقع أن الحكومة الفارسية كانت فى حالة شديدة من الضعف بعد الحروب الداخلية العديدة فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، وخاصة محاولة فتح إقليم هرات فى عهد الملك محمد شاه ثم اضطرارها إلى سحب قواتها من هرات فى عهد ناصر الدين شاه نتيجة للضغط البريطانى ، واستيلاء الانجليز على

---

(١) Telegram from Viceroy, 1018/10, 16 July 1910, B. 196.

(٢) انظر :

Viscount Morley's Telegram, 30 July 1910, I.O.L., P.D., B. 196, Secret.

(٣) انظر :

Gov. of India to Secretary of State, 29 Nov. 1910, I.O.L., B. 196, p. 6.

(٤) انظر :

Gov. of India to Admiral Slade, 24 Nov. 1910, I.O.L., B. 196, p. 5.

بوشهر إلى أن نجح فرخ خان أمين الملك كاشانى (ولقب بعد ذلك باسم أمين الدولة والذى كان سفيراً لفارس فى فرنسا) بمباحثات مع سفير انجلترا فى فرنسا ، وعقد معاهدة بين الدولتين وتقرر انسحاب القوات الانجليزية من موانىء فارس بشرط أن ينسحب الفرس من هرات ، وأن تصرف الحكومة الفارسية النظر عن كل ادعاءاتها فى هرات وكل أفغانستان ، ولا تطلب من رؤساء وحكام تلك الأقاليم أية مطالب مثل سك العملة وخطبة الجمعة ، وأن تتجنب التدخل فى أمور أفغانستان الداخلية وأن تعترف باستقلال هرات وكل أفغانستان .

والخلاصة أن سحب حكومة فارس لقواتها من هرات سبب لها خسائر فادحة فى الأفراد والأموال[١] .

أما بالنسبة لتجارة الأسلحة فى فارس ، فقد صدر مرسوم بتحريم استيراد الأسلحة إلى فارس سنة ١٨٨١ . وفى عام ١٩٠٠ خولت الحكومة الفارسية السفن البريطانية سلطة القبض على السفن التى تحمل الأسلحة إلى الموانىء الفارسية ومصادرة شحناتها[٢] .

ورغم ذلك فقد تدفقت الأسلحة فى الأعوام الأخيرة من القرن التاسع عشر على وقد سببت هذه الأسلحة الكثير من القلق للسلطات الفارسية ، إذ خشيت تلك السلطات من مغبة استخدام القبائل الفارسية لتلك الأسلحة فى رفع راية العصيان والخروج عن سلطة الحكومة[٣] . وكانت هذه الأسلحة تهرب عبر مسقط إلى ساحل مكران الفارسى ، ومن هناك تحملها القوافل الأفغانية حيث تصل أخيراً إلى القبائل الأفغانية والحدود الشمالية الغربية للهند ، وبدت السلطات الفارسية عاجزة تماماً عن قمع هذه التجارة فى الأراضى الفارسية[٤] .

---

(١) عبدالله رازى (همدان) ـــ أزمنة باستانى تاسال ١٣١٦ شمس هجرى (بك نقشة إيران قديم و ٩٤ كروار) .

(٢) I.O.L. Pol. Dep., B. 182, Arms Traffic at Muscat I.O., 15 Feb. 1911.

(٣) Richard Coke, The Heart of the Middle East, p. 136.

(٤) I.O.L. Pol. Dep., B. 182, Arms Traffic at Muscat, I.O., 15 Feb. 1911.

وظهر أنه من الضرورى — من وجهة النظر البريطانية — وضع خطة فعالة للسيطرة على المنطقة الداخلية ، وذلك نتيجة لنشاط الأفغانيين ، وخاصة فى صيف عام ١٩١٠ عندما لم تقم السلطات الفارسية بالمجهودات اللازمة لقمع هذه التجارة .

وفى خلال شهر يونيو ١٩١٠ ، تقدمت قوافل ضخمة تحمل شحنات الأسلحة من الساحل وعبر إقليم مستان ، كما تقدم تاجر الأسلحة محمد خير فى ٤ يونيو عبر إقليم جردى Girdi ومعه قافلة من ٥٠٠ - ٦٠٠ جمل معظمها محمل بالأسلحة . وبعد ذلك بثلاثة أسابيع وصلت قافلتان كبيرتان إلى بج Big واشتركتا فى إتلاف خط البرق بين جرجه Geregen وبالوخ ، ونهبتا لمبنى بريدستان . ولم تبذل السلطات الفارسية أية محاولة فعلية لقمع هذه الأعمال العدوانية من جانب هذه القوافل .

ورأت حكومة الهند أنه يجب تقديم احتجاج إلى الحكومة الفارسية نتيجة للخسائر التى حدثت فى ممتلكات الحكومة وخط البرق ، وقد وافقت حكومة لندن على ذلك وإن كان من المفهوم أن هذا الإجراء ليست له أية قيمة ، واعتبرت أن تقديم هذا الاحتجاج هو مسألة مبدأ ليس إلا[١] .

ونتيجة لتحركات الأفغانيين واتجاههم العنيف ، فان حكومة الهند لم يعد لديها أى شك بالنسبة لأهمية سحب القوة المرابطة فى روبات Robat أثناء الفصل الحار فقد خشيت من اتجاه الأفغانيين إلى إعادة العمليات فى الخريف بينما القوة لا زالت فى روبات . إلا أن المقيم فى الخليج العربى كان يعتقد بأنه يجب سحب القوة بمجرد أن تصل آخر قافلة أفغانية إلى بلادها ، وأنه يجب عدم إعادة القوة إلى روبات إلا بعد يناير ١٩١١ كما رأى بأن الأفغانيين الذين أصابتهم خسائر فادحة وتأخروا كثيراً فى عودتهم من الخليج لن يكونوا مستعدين لإعادة العمليات قبل فترة من الوقت .

وفى يوليو ١٩١٠ أنقصت كل من حامية جاسك Jask وشاربر Charbar

---

(١) Telegram from Governor of India, 7th July 1910.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 6.

لانسحاب الأفغانيين من الساحل(١).

تجارة الأسلحة فى باريس :

لقد انغمس بعض الحكام فى فارس فى تجارة الأسلحة ، وقد كان مير بركات خان حاكم إقليم بيابان Biyaban على علاقات وثيقة بتجار الأسلحة الأفغانيين وفى مارس ١٩١٠ اعتقله داريا Darya Bagl — وهو أحد عملاء الأنجليز — واقترح أن تحدد اقامة بركات فى كتا Qutta أو روبات على أن يمنح إعانة مالية ، ولم يوافق ممثل الحاكم العام للهند فى بلوخستان على ذلك لأنه رأى أنه يمكن للسجين أن يهرب إلى أفغانستان ثم العودة إلى مكران بمعاونة تجار الأسلحة الأفغانيين . ثم قدم اقتراح آخر بأن تكون بغداد محلا لإقامته ، لا أن هذا الاقتراح رفض أيضاً .

وفى يوليو ١٩١٠ أصدرت حكومه الهند تعليماتها إلى المقيم السياسى بتسليم بركات إلى السلطات الفارسية مع التنبيه عليها بالمحافظة على حياته . وقد أختيرت بوشهر كمكان لإقامته .

وفى غضون ذلك الوقت ، ورغم اعتقال ميربركات ونفيه فإن إقليم جاسك سادته اضطرابات كثيرة ، وتقدم مصطفى خان على رأس قوة لإعادة بركات بالقوة .

ومع نهاية أغسطس هرب مير بركات من بوشهر واتخذ طريقة عائداً إلى ساحل بيابان حيث وجد خلفاؤه وهم يقومون بالإغارات والقلاقل ، وقد أشار الكولونيل كوكس إلى أن السلطات الفارسية بدت عاجزة تماماً عن التدخل لقمع الاضطرابات ، واقترح كحل للمسألة أن تقوم القوات البريطانية بالتدخل . ومع نهاية سبتمبر اقترح كوكس على الأدميرال سليد Slade دفع قوة بريطانية فى المنطقة شمالى جاسك للقضاء على جماعة مير بركات(٢) ولا شك أن هذا الإجراء يعد مظهراً جديداً

---

(١) Lieutenant-Colonel Cox to Governor of India, 25th July 1910.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 7.

(٢) Lieutenant-Colonel Cox to Governor of India, 27th Sept. 1910.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 7.

لنظام الحصار ، والواقع أن دفع جملة برية يختلف كثيراً عن الأعمال السابقة ، ويرجع ذلك بصفة مباشرة الى الاضطرابات والقلاقل التى أثارها ميربركات وجماعته والأفغانيون فى الأقاليم الداخلية .

وفى ٤ ديسمبر ١٩١٠ عرض الأدميرال سليد Slade الموقف بالنسبة للحصار ، والاحتمالات بالنسبة للمستقبل ، وأبدى اعتقاده بأن تدفق الأسلحة قد فشل فى اتجاه طريق مسقط — مكران وأن التجار « قد يحاولون الالتفاف حول قواتنا » إلى أعلى الخليج ، وأنه يمكن السيطرة على ذلك بتوسيع دائرة الحصار دون إزادة القوة البحرية ، ويمكن تدعيم ذلك — كما سبق القول بإقامة محطات اللاسلكى فى بوشهر والبحرين ودبى . « ويمكن بذلك التأثير الفعال على التجارة دون الاستعانة بقوات ضخمة ، إذا ما انحصرت العمليات فى منع جلب الأسلحة والذخائر إلى فارس عن طريق البحر » .

كما اقترح السير H.Mc. Mohon سياسة أكثر شمولا « للسعى لتحقيق السلام والهدوء فى كل الأقاليم الساحلية فى فارس » ، وقد رأى السير أنها السياسة الأكثر فعالية ، لأن « استمرار تجارة الأسلحة متوقفة على استمرار الفوضى فى أقاليم الساحل » ومن أجل تحقيق النظام والهدوء ، فإنه يلزم تواجد قوة من ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ رجل على مرحلتين . وهذه القوة بينما هى على صلة بالبحر ، فإنه يمكنها السيطرة على الأقاليم حول بندر عباس ووادى ميناب وبنت وجه ، ويمكنها أيضاً تدعيم حراسة الطرق ، وتمطى الحكام المحليين المعاونة ضد الأفغانيين أو العصابات المحلية[1] .

أما بالنسبة لموقف الحكام المحليين فى فارس ، فقد توقع الأدميرال سليد بأن إسلام خان سردار بنت وسيد خان سردار جه سوف يقدمان المعاونة المطلوبة لمنع الأفغانيين من الوصول إلى الساحل . وأضاف أنه يمكن تخفيف قوة الحصار البحرية

---

(١) Naval Commander-in-Chief, East Indies to Governor of India, 4th Dec. 1910.

انظر : I.O.L.,, B. 196, p. 19.

بعد نهاية مارس سنة ١٩١١ ، إلا أنه حتى ذلك التاريخ « فلا يتصور إمكانية تخفيف قوة الحصار »[١] .

نشاط الأفغانيين فى فارس :

لقد تواترت الأنباء بأن قوة من ٣٠٠٠ أفغانى كانت تتجمع فى هرات وتستعد للتقدم إلى مكران . وفى ١١ يناير سنة ١٩١١ وصلت قوة من ١٢٠ أفغانى إلى بامبور ، وقد أمرهم إسلام خان بالانسحاب ، إلا أن موقفه كان ضعيفاً حيث تبين أنهم مستعدين للقتال . وقد منحه الانجليز وعداً بالمعاونة إذا ما جاء الأفغانيون إلى الساحل[٢]. وكانت هذه القوة الأفغانية الصغيرة هى مقدمة للحشد الأفغانى ، وفى ٢٦ فبراير أبرق الضابط البحرى الأول بأن نحو ٣٠٠٠ أفغانى يقتربون من إقليم كروان فى مكران ، وأنهم مسلحون جداً ، وأن الشىء المقلق هو أنهم يحملون كميات ضخمة من الذخيرة .

وقد استنتج الأدميرال أن هذه القوات الأفغانية تنوى القتال بغرض مد نفوذها إلى بلوخستان ، وطالب الأدميرال بإجراءات سريعة على أساس الاقتراح السابق بوجوب وضع قوة بريطانية فى المنطقة خصوصاً وأن الحكام المحليين سوف يبذلون ولاءهم إلى الجانب الأقوى ، وهو هنا الحشود الأفغانية المسلحة ، وأنه « يلزم لواء من ألفى رجل ومدفعين من المدافع الجبلية »[٣] .

وقد رفضت حكومة الهند أن تتخذ إجراءات فورية على الأسس التى اقترحها

---

(١) Naval Commander-in-Chief, East Indies to Governor of India, 11 Dec. 1910.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 19.

(٢) Commander-in-Chief to the Gov. of India, 16th January 1911.
I.O.L., B. 196, p. 19.

(٣) Sir G. Barley to Sir E. Grey, 26th February 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 19.

الأدميرال ، لأنه تبين أن الحملة البريطانية سوف تتكلف كثيراً ، وكذلك لأن عملية عسكرية بقوات كبيرة نسبياً فى جنوب فارس ، قد تبرر عملية عسكرية أخرى — روسية — فى الشمال » . وقد أكدت الحكومة البريطانية أهمية هذه النقطة ، وأوصت بأن مسألة مكران يجب أن تعامل بما تستحق ، « لأنه من غير المرغوب فيه حالياً احتلال أراض فارسية »(١) .

أما المقيم فى الخليج فقد أوضح وجهات نظره بالنسبة لاقتراحات الأدميرال : فبالنسبة لسلوك الأفغانيين فإنه يعتقد بأن العمليات البحرية لن تكون كافية ، وأنه يجب إنزال قوة برية لديها إمكانيات نقل ومؤن كافية للقيام بعمليات حربية لمدة ثلاثة أسابيع على الساحل . كما اقترح تقسيم هذه القوة إلى جناحين : الجناح الغربى ويجب أن يبدأ من جاسك ويتقدم إلى بامبور عبر بنت وفانوخ وجويتر ، بينما يتقدم الجناح الشرقى إلى بامبور أيضاً عبر شارباروجه . وهكذا تتم محاصرة الأفغانيين بالمواجهة من البحر ، وبقوتين متصلتين من الخلف . وأضاف المقيم بأنه « يمكن تلافى أية معارضة من جانب الحكومة الفارسية ، وذلك بدعوتها إلى المشاركة فى هذه العملية »(٢) .

وفى ٩ مارس أبرق الأدميرال إلى حكومة الهند بأن قوة من ٨٠٠ أفغانى قد وصلت إلى الساحل ، وأن ٣٠٠ آخرين وصلوا إلى فانوخ ، وتساءل عما إذا كان فى إمكانه إعطاء وعد للحكام المحليين بالمعاونة البريطانية لهم فى حالة مواجهتهم الأفغانيين(٣) ، وقد وافقت حكومة الهند فوراً على هذا الاقتراح ، كما اقترحت إرسال قوة من ألف رجل على سفينتين للعمل تحت تصرف قائد الأسطول شرقاً

---

(١) From I.O. to F.O., 9th March 1911.
From F.O. to I.O., 29th March 1911.
I.O.L., B. 196, pp. 19-20.

(٢) Lieutenant-Colonel Cox to Governor of India, 2nd March 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 20.

(٣) Commander-in-Chief, East Indies to Admiralty, 10th March 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 20.

وغرباً على طول الساحل . وقدرت تكاليف ذلك نحو ٢٠٠,٠٠٠ ريال شهرياً ، إلا أن حكومة الهند رفضت بشدة إنزال قوة أكبر إلى الداخل ، كما اقترح الأدميرال سليد والكولونيل كوكس ، ورأت أن هذه القوة يمكن استخدامها فقط للقيام بإغارات سريعه للقضاء على الجماعات التى تنزل الأسلحة إلى البر وحماية خط البرق[١].

وقد وافقت الحكومة البريطانية على هذه المقترحات فى ١٥ مارس ، وغادرت القوةالبريطانيةبومباى فى٦ أبريلعلى السفينتين Northbrook, Hardinge[٢]، ولم تبلغ الحكومة الفارسية رسمياً ، لأن المقترحات لم تحتو على أى تغيير فى العمل عن العام السابق[٣] .

وبدا أن الافغانيين كانوا يستعدون للحرب ، لأنهم كانوا قد خسروا كثيراً فى العام السابق ، وكما أوضح إسلام فإن « الحرب الفعلية سوف تنشب سريعاً »[٤] .

ومع نهاية شهر مارس ، أصبحت تحركات الأفغانيين أكثر وضوحاً ، فقد كانوا على شكل قوتين رئيسيتين بقيادة كل من غلام خان وخليفة خير محمد ، وكانت القوة التى فى حوزة غلام خان تتكون من ٥٠٠ أفغانى يتركزون فى إقليم لاشاربين بنت وهوخان . أما خليفة خير محمد فبلغت قواته نحو ٤٠٠ أفغانى تقدم بها عبر بشكرد فى اتجاه بندر عباس[٥] . هذا بالإضافة إلى ١٠٠ رجل متناثرين على الساحل .

---

(١) Governor of India to Viscount Morely 400/11, 15 March 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 20.

(٢) Viscount Morley's telegram 15 March 1911.
I.O.L., B. 196, p. 20.

(٣) Commander-in-Chief to Admirality, telegram 3rd April 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 20.

(٤) Captain Craufurd to Chief of General Staff, 11 March 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 196.

(٥) Telegram from Viceroy, 517/11, 23 March 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 21.

خليفة خير محمد هو الأكثر أهمية ، كما كان له تأثير ديني كبير[١] . وقد رفض خليفة التفاهم مع الماجور أوكونور O'Connor القنصل في سستان . ومع نهاية فبراير أغار خليفة على قافلة في جرجه ، ونهب قبل ذلك عربة بريد فارسية .

وبالإضافة إلى هذين القائدتين الأفغانيتين ، كان هنـاك مير بركات — الذى سبق الـكلام عنه — والذى كان من اللازم التعامل معه فى إقليم بيابان ، والذى أثار حالة مستمرة من الاضطرابات هناك منذ هربه فى أغسطس ١٩١٠[٢] .

العمليات البريطانية فى فارس :

كان إسلام خان وسيد خان من الحـكام الفارسيين الواليين لبريطانيا ، وكان تعاونهم مع الانجليز فى منع تجارة الأسلحة وطرد التجار الافغانيين من أهم الأعمال التى أنجزت فى الأقاليم الداخلية ، وذلك من وجهة النظر البريطانية .

وفى مارس ١٩١١ قدم الـكابتن Craufurd ضابط المخابرات البريطانية صورة اتفاق بينـه وبين السردار سـيد خان حاكم جه والرئيس الأعظم لمـكران الفارسية ، ويده اليمنى السردار إسلام خان حاكم بنت ، بأن تمنح حكومة الهند كلا منهما ٨٠٠ ريال سنوياً وذلك لأنهما ولمدة الخمس سنوات الأخيرة رفضا معاونة الأفغانيين وقاوما تجارة الأسلحة ، وعاقبا الاشخاص الذين يعملون فى هـذه التجارة[٣] . وقدوافقت حكومة الهند على هذا الاتفاق . إلا أنه لتلافى أى مشكلات

---

(١) Consul General at Bushire to Sir G. Barley, 26 Feb. 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 21.

(٢) Governor Geneal in Baluchistan to Gov. of India, 23 Feb. 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 21.

(٣) Captain Craufurd to Commanderx-in-Chisf, 14th March.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 21.

مع الحكومة الفارسية — باعتبار أن هـذا الإتفاق مع اثنين من الأمراء يمس استقلال فارس — فقد اقترح الكولونيل كوكس أن يعقد الإتفاق بواسطة مدير إدارة البرق الهندأوربية ، وأن يوقعه المستر Gumbley وأن تدفع المنحة المالية السنوية عن طريق إدارة البرق[1] . وقد تم التصديق على هذا الإتفاق فى نوفمبر ١٩١١ .

وفى ١٣ أبريل ، تقدمت قوة بريطانية للبحث عن مخزنين للأسلحة تابعين لخير محمد[2] قرب نهر جالج ، وقد أبلغت الحكومة الفارسية أن هـذا هو سبب إرسال قوات بريطانية من الهند . وقد رافق سيد خان هذه القوة البريطانية التى تقدمت عبر بركبان على بعد ٢٠ ميلا شمالى شكبند وثلاثين ميلا من بنت . وتقدم الكولونيل ديلامين Delamain قائد القوة ومعه سيد خان وإسلام خان من بركبان فى ١٦ أبريل إلى بنت ، حيث استقبل استقبالا ودياً ، وظل هناك نحو ١٠ ساعات ثم عاد مرة أخرى . وعادت القوة فى ٢١ أبريل ، ولم تجد أسلحة هناك . إلا أنه نتيجة لهذا التقدم البريطانى إلى الداخل ، فقد تقهقر الأفغانيون الذين كانوا يحاولون الوصول إلى الساحل وانسحبوا بسرعة من بنت وفانوخ واتجهوا شمالا[3] .

وبعد ذلك ببضعة أيام تواترت الأنباء بأن بركات خان قام بالاغارة على كل إقليم بيابان ، وأنه يحاول إقامة مركز كبير لتجارة الاسلحة[4] ، وقد تقدمت قوة بريطانية على ساحل بيابان فى ٢٥ أبريل للعمل فى مجموعتين . وأمكن فى النهاية طرد

---

(١) Gov. of India to L.-C. Cox, 8th April 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 21.

(٢) Sir E. Grey to Sir G. Barley, 13th April 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 21.

(٣) Commander-in-Chief to Admirality, 22nd April 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 22.

(٤) Telegram from Viceroy, 27th April 1911, 719/11.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 22.

ميربركات بخسارة ١٢ من رجاله ، ثم عادت القوات إلى الهند[١] .

وكانت هذه العملية على نطاق أوسع من الإغارات طبقاً للغرض منها عند الموافقة على إرسالها . وقد طلبت حكومة لندن تفسيراً من الأدميرال لأنه — طبقاً لبرقية حكومة الهند فى أول مايو — بدا وقد تجاوز التعليمات المعطاة له[٢] .

وكان تفسير الأدميرال باختصار أن تجارة الأسلحة فى بلوخستان الفارسية ترتكز على بركات خان ، وهو قد استدعى الأفغانيين جنوباً إلى بيابان ، وأنه بإغاراته « على القرى الموالية لنا جعلها فى حالة من الذعر قد تجعلها تقدم المعاونة للأفغانيين ، وقد جاء الفلاحون إلى جاسك لتقديم شكاياتهم إلينا ، وإذا لم نقم بعمل فعال ، فإنه قد يتفاخر بأنه قد أبعدنا تماماً ، والنتيجة ضياع الهيبة البريطانية وازدياد نفوذه هو ، بينما السلطات الفارسية لا تملك القوة التى تردعه ، وأكثر من ذلك فإن الملاحة على ساحل بيابان أثناء الرياح الجنوبية الغربية أكثر ملاءمة من ساحل مكران ، ويمكن نقل الأسلحة اليه بسرعة بينما ساحل مكران لا يمكن الاقتراب منـه ، وهو مألوف أكثر لمهربى الأسلحة لقربه من ساحل عمان ، ولذلك فانه من المرغوب فيه محاولة القضاء على نفوذ بركات كمستورد للأسلحة على هذا الساحل » . أما السبب الظاهرى للحملة ، فقـد اقترح الأدميرال استغلال فرصة استيلاء القوة على أسلحة من قارب كويتى تحطم قرب الساحل وتم بالفعل الاستيلاء على نصف شحنته ، واعتبار هذه الحادثة سبباً ظاهرياً للحملة[٣] .

وقد وافقت حكومة لندن على هذا التفسير ، بعد أن كانت قد انتقدت المدى الطويل الذى وصلت اليه الحملة إلى الداخل ، واحتمال حدوث مشكلة دولية بسببها .

---

(١) Commander-in-Chief to Admirality, 30th April 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 22.

(٢) Viscount Morley's Telegram, 28th April 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 22.

(٣) Telegram from Viceroy, 9 May 1911, 794/11.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 22.

وعلى أية حال مهما كان سلوك الجنرال ، فان تأثير الحملة كان فعالا — من وجهة النظر البريطانية — فقد رافق الحملة كل من سيد خان وإسلام خان ، وقد شعرا بفعالية الحصار البحرى ، والقدرة على التقدم مسافة كبيرة إلى الداخل[١] ، كذلك قدم أميران آخران هما ميرحاجى وميركمبار معاونتهما للبريطانيين ، كما أن الأفغانيين تخلوا عن مير بركات تماماً[٢] .

أما بالنسبة للحصار البحرى ، فقد طلبت حكومة الهند الموافقة الرسمية على استمرار الحصار « طالما استمرت تجارة الأسلحة وطالما بقى الأفغانيون فى مكران[٣]. وقد جاءت الموافقة على استمرار الحصار إلى نائب الملك فى ١٥ مايو ، على أن تنتهى فترة الحصار فى آخر نوفمبر ١٩١١[٤]. ومن المناسب هنا أن نشير إلى أن كلا من المقيم فى الخليج والقائد العام فى الهند تمسكا بأن الحصار يجب أن يظل قائماً الى أن يمكن الوصول الى اتفاق دائم مع الحكومة الفرنسية أو مع سلطان مسقط[٥] . ولا شك أن الحصار كان ناجحاً تماماً ، الا أنه يتكلف كثيراً وأنه من المرغوب فيه على هذا الأساس — من وجهة النظر البريطانية — عدم الاستقرار فى هذا الحصار بقدر ما تسمح به الظروف . ومن وجهة النظر الأخرى ، فإن أى تخفيفاً للحصار قبل الوصول إلى تسوية دائمة قد يؤدى إلى ضياع كل المكاسب التى حققتها بريطانيا من هذا الحصار . وفى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩١٠ طلبت حكومة لندن

---

(١) Earl of Crewe's Telegram to Gov. of India, 2nd June 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 22.

(٢) Mr. Gregson's Report, 4th May 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 22.

(٣) Telegram from Viceroy, 13th May 1911, 805/11.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 23.

(٤) Earl of Crewe's Telegram, 20th June 1911, 37/9/11.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 23.

(٥) Lieutenant-Colonel Cox to Gov. of India, 28th August 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 23.

من حكومة الهند أن توضح وجهة نظرها بالنسبة للموضوعات التى قد تثار فى المفاوضات بالنسبة لأربع نقط :

١ — « التنازلات الإقليمية التى يمكن منحها لفرنسا فى الهند فى مقابل الامتيازات البريطانية فى مسقط .

٢ — «ما إذا كان أى تنازل من جانب فرنسا ، لايكون أقل من حرية السلطان منع استيراد الأسلحة .

٣ — هل يكفى احتكار سلطنة مسقط وحكومة الهند للتجارة فى مسقط ؟

٤ — هل من الممكن دراسة مسألة التعويض النقدى للحكومة الفرنسية أو للتجار الفرنسيين فى مسقط » ؟

وقد استشارت حكومة الهند المقيم فى الخليج بالنسبة للنقاط الثلاث الأخيرة ، وبعد أن اجتمع بالماجور Trevor الممثل السياسى فى مسقط ثم بالادميرال سليد Slade أعطى وجهة نظره ونظرهما كالآتى :

١ — أن كل مجهوداتنا فى المفارضة مع فرنسا يجب أن تهدف الى المنع التام للاستيراد والتصدير ، وبدون ذلك فإنه من الصعب على أى موظف حكومى السيطرة على الجمارك .

أما احتكار سلطة مسقط للتجارة يعد أمراً غير عملى ، لأنه من المحتمل أن يمنح السلطان هذا الاحتكار لمن يدفع أكثر .

٢ — وأى مشروع آخر دون المنع الكامل للتجارة يجب أن يتضمن :

« (ا) تحديد الاستيراد الى المطالب الفعلية للسلطان ورعيته ، ويمكن تحديد الكمية باتفاق مشترك .

(ب) قصر الاستيراد على مسقط فقط » .

٣ — فيما يتعلق بالتعويض فإن الحل الوحيد الممكن هو شراء المخزون من الأسلحة الموجودة فى مسقط .

والواقع أنه منذ عقد مؤتمر بروكسل الدولى لمنع تجارة الأسلحة فى مسقط

والخليج وحدود الهند وشبه الجزيرة العربية(١) ، بذلت بريطانيا مجهودات مستميتة للوصول إلى تسوية مع فرنسا ، وقد بدأت المفاوضات بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية فى أبريل ١٩١٠ ، إلا أن هذه المفاوضات باءت بالفشل أيضاً(٢) والواقع أن الشركات الفرنسية التى كانت تضغط على الحكومة الفرنسية ضغطاً لكى تستمر فى ممارسة نشاطها(٣) . ولم يبق هناك سوى ما اقترحه كوكس من نبذ المفاوضات مع فرنسا والاتصال مباشرة بأمارات الخليج العربى .

موقف إمارات الخليج العربى من التجارة :

لقد كانت هناك معاهدات ولائية بين الحكومة البريطانية وشيوخ الكويت والبحرين والشيوخ المهادنين مع الكويت (٢٣ يناير ١٨٩٩) على ألا يقبل الشيخ أى ممثل أو مبعوث من أية قوة أجنبية إلا بعد موافقة الحكومة البريطانية ، وأن لا يبيع أو يتنازل أو يرهن أو يسمح باحتلال أى جزء من أراضيه لأية قوة أجنبية أو لرعايا أية قوى أجنبية . وقد منح الشيخ مكافأة من ١٥,٠٠٠ ريال فى مقابل توقيعه على المعاهدة .

وكانت المعاهدات مع البحرين والساحل المهادن على نفس المنوال مع اختلافات بسيطة . وجدير بالذكر أنه كانت قد عقدت معاهدة مع مسقط فى عام ١٨٩١ تعهد فيها السلطان بعدم التنازل أو البيع أو الرهن لأى جزء من أراضيه سوى للحكومة البريطانية(٤) .

وبالنسبة للتجارة فى الأسلحة والذخائر فقد واجهت بريطانيا بعض الصعوبات

---

(١) Philip Graves, The Life of Sir Percy Cox, p. 142.

(٢) India Office Library, Political Dep.
B. 182, Arms Traffic at Muscat.
I.O., 15th Feb. 1911.

(٣) Graves, op. cit., p. 142.

(٤) I.O.L. Pol. Dep., B. 151, Memo. British Interests on the Coast of Arabia, Kowait, Bahrein and El-Katr, 1905.

فى التعامل مع إمارات الخليج ، فإن شيخ الكويت الذى كان قد تعهد فى مارس ١٩١٠ بتنفيذ تصريحه فى مايو ١٩٠٠ والخاص بمعاقبة أى ملاح فى الكويت يتاجر فى الأسلحة يواجه فى أبريل حادثة هامة ، فقد قبضت السفينة البريطانية Hyacinth على ملاح اسمه محمد صالح ؛ إلا أنها أفرجت عنه بعد ذلك ، ومن ثم ارتبط ببيع سفينته « فتح الخير » إلى شركة Goguyer et Cie الفرنسية فى مسقط — وهى شركة تعمل فى تجارة الأسلحة — وفى ٢٧ أبريل ١٩١٠ وصلت السفينة «فتح الخير» إلى الكويت وعلى ظهرها محمد صالح ويرفرف عليها العلم الفرنسى ، وتبين من أوراقها أنها أصبحت مملوكة لشركة Goguyer ، كما كانت الأسلحة التى تحملها باسم ممثل شركة Gogyer فى الكويت . . . وهنا جاءت اللحظة التى تظهر مدى تمسك شيخ الكويت بتعهداته للبريطانيين ، إلا أن الشيخ بدأ متردداً .

وقد حثه الكابتن شكسبير — الضابط السياسى فى الكويت — كى يقبض على الملاح لأن له الحق فى ذلك . « أما بالنسبة للأسلحة ، فإنه رغم تصريح عام ١٩٠٠ يعطيه الحق فى الاستيلاء عليها ، فإنه من الأفضل من الناحية السياسية ، ولتلافى أية تعقيدات مع الفرنسيين أو تجار مسقط ، من الأفضل تحويل المسألة إلى الكولونيل كوكس أو إرسال الأسلحة إلى البصرة أو إعادتها إلى مسقط » . وبعد ذلك ببضعة أيام تواترت الأنباء أن الشيخ قد وافق على بعض الاعتذارات من محمد صالح ثم تركه يذهب بالسفينة . كما أن الأسلحة سلمت للوكيل بعد دفع الضرائب المعتادة أى ٦ ريال عن كل بندقية . كما أخذ الشيخ لنفسه بعض الأسلحة . ولما كانت الأسلحة لا زالت فى حوزة الوكيل ، فقد حث الكابتن شكسبير الشيخ على الاستيلاء عليها ، كما وعده بالمعاونة البريطانية فى حالة حدوث أية مشكلات . وقد وعد الشيخ بأن يفعل ذلك ، وأكثر من ذلك بأن يرفض الاعتراف بالوكيل التجارى للشركة الفرنسية. إلا أن الشيخ تردد فى تنفيذ ذلك ، مما أدى بالكابتن شكسبير إلى الاستيلاء على الأسلحة (٣٠١ بندقية ، ٣٠,١٠٠ طلقة نارية) .

وقد حاول الشيخ التنصل من أية مسئولية ، وأن يلقى المسئولية كلها على عاتق الضابط السياسى بأن يجعله يقدم صكا بالاستلام إلى وكيل الشركة الفرنسية ، وأن يبلغه بأن الاستيلاء قد تم بواسطته وليس عن طريق الشيخ ، وقد رفض الكابتن

شكسبير ذلك بطبيعة الحال . وأخيراً عرض الشيخ فى ٨ مايو أن ينقل الأسلحة من الوكالة إلى الجمرك حيث وضعت بالفعل تحت التحفظ والحراسة[١] .

ومنذ تحمل الشيخ مسئولية ذلك ، فإنه تمسك بهذا الموقف الصارم ، وعند ما طلب منه ممثل الشركة الفرنسية فى يونيو إعادة الأسلحة ، فإنه رفض كل العروض المقدمة له مشيراً إلى أن الاستيلاء قانونى طبقاً للتصريح ، وأعلن أنه لن يسلم الأسلحة إلى أية جهة خارجية حيث أنه تم الاستيلاء عليها « للخزانة العامة لدولته » .

وفى ٢١ مايو ١٩١٠ كتب الشيخ يؤكد لليفتنانت كولونيل كوكس مظهراً إخلاصه ورغبته فى تنفيذ التصريح « لأن الطاعة لأوامرك ورضاءك عنا هما أهم الفوائد بالنسبة لنا » . ورغم ذلك فقد اضطر الكابتن شكسبير إلى اتهام الشيخ — رغم إنكار الأخير — بأن سفينتين قد أنزلتا نحو ١٧٠٠ بندقية مؤخراً فى الكويت .

ويجب أن نوضح هنا أن الشيخ مبارك كان حديثاً قد أصابته خسائر فادحة فى الأسلحة نتيجة لهزيمة الكويت أمام سعدان باشا ، وأنه فى سبتمبر ١٩١٠ سمح له بأن يعوض نقصه فى الأسلحة بشراء ١٥٠٠ بندقية من مسقط وأن ينقلها إلى أعلى الخليج بعد أن أعطاه الماجور Trevor تصريحاً بذلك .

وفى غضون ذلك الوقت أبدى الشيوخ المهادنون وشيوخ البحرين اتجاهاً موالياً لبريطانيا . ففى ٢٢ يونيو ١٩١٠ سجل ممثل المقيم على الساحل المهادن بأن شيخ دبى الشيخ بوتى ابن سهيل قد استولى على ٣٩٦٠ طلقة كانت فى حوزة اثنين من الرعايا الفرس ، وقد شكر كوكس الشيخ على هذا العمل ، ومن أجل تشجيعه هو وغيره على السير فى هذا السبيل ، سمح له كوكس بالاحتفاظ بالذخيرة بشرط

---

(١) Telegram from Captain Shakespear to Lieutenant-Colonel Cox, 12th May 1910.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 8.

عدم إعادتها مرة أخرى للتاجرين الفارسيين ، وقد وافقت حكومة الهند على هذا الإجراء[١] .

وفى أغسطس استولى الكابتن ماكنزى فى مهرج — جزيرة صغيرة قرب البحرين — على ٢٥ بندقية ، ٨ مسدسات ، ٣٩٫٨٣٤ طلقة وذلك بمعاونة شيخ البحرين . وكان التاجر المسئول هو يوسف فخرى أحد الأصدقاء المقربين من الشيخ وأحد كبار التجار فى البحرين . ونتيجة للموقف الخطير ، رأى ماكنزى اتخاذ أسلوب أكثر حزماً ، ولما كان من غير المرغوب فيه — سياسياً — حبس هذه الشخصية الكبيرة ، فإن الشيخ حكم عليه بغرامة قدرها ٤٠٠٠ ريال — بعد استشارة الضابط السياسى — مع تدمير الأسلحة . ومن وجهة النظر البريطانية ، فإنه لم يكن من الصواب أن يقوم الشيخ بمصادرة الأسلحة ، لأنه رغم اكتفائه الذاتى من الأسلحة ، فإنه كان من المعقول جداً أن يعيدها إلى يوسف فخرى .

ونتيجة لهذا السلوك الموالى من جانب الشيخ ، فقد تلقى شكر حكومة الهند[٢].

وبدأت وطأة الحصار تؤثر بقوة على مسقط ، وشعر السلطان نفسه بهذا الضغط . وقد أبدى السلطان سوء حالته المالية للكولونيل كوكس ، وأن تجارة الأسلحة هى ضارة به حالياً ، وأنها عقدت علاقاته مع القرى الأخرى ، وأنه يرغب فى منع هذه التجارة . وقد اقترح كوكس إقراضه قرضاً صغيراً كحل سريع ، إلا أن السلطان رأى أن ذلك لا يليق بمكانته ، وطالب باتفاق أو تسوية لكل مسألة التجارة[٣] .

وكانت السفينة البريطانية Fox قد قامت بالإستيلاء على السفينة « بديل »

---

(١) انظر : Telegram to L.-C. Cox, 19th July 1910.
I.O.L., B. 196, p. 9.

(٢) انظر : Telegram, Governor of India to L.-C. Cox, 11th Oct. 1910.
I.O.L., B. 196, p. 9.

(٣) انظر : L.C. Cox to Governor of India, 1484/10, 18th Sept. 1910.
I.O.L., B. 196, p. 9.

فى ميناء مسقط ، وقد اعتبر السلطان أن الاستيلاء على شحنة هذه السفينة يعد إهانة شخصية له كحاكم مستقل ، واستنكر كذلك بعض حالات الإستيلاء على شحنات الأسلحة فى الميناء . وقد تمسكت بريطانيا بأن تصريح السلطان فى يناير ١٨٩٨ يعطى للبريطانيين هذا الحق . وبالنسبة للسفينة « بديل » فإنه كان من المستحيل أن يترك البريطانيون الشحنة للسلطان بينما من المتوقع جداً أن يعيدها مرة أخرى للتجار للتصدير ، هذا فى الوقت الذى « نتمسك فيه بالحصار الذى يتكلف نفقات طائلة لمنع ذلك » .

ولا شك أن حالة السلطان المالية قد تدهورت كثيراً ، وأدى ذلك إلى قيامه بتشجيع تجارة الأسلحة سراً . ومن ثم اقترح كوكس أنه « إذا كنا فى حاجة ماسة إلى معاونته فى أية مساومات قريبة مع فرنسا ، فإنه ليس من الحكمة أن نرفض لسموه أى طلب وأنه يجب منحه فوراً مبلغاً مقدما من قيمة شحنة السفينة « بديل » فى حدود ١٠ ريال عن كل بندقية ، ٥ ريال عن كل ١٠٠ طلقة ، أى أن المجموع النهائى يبلغ نحو ١٤,٢٥٠ ريالا عن الشحنة كلها » . وقد رأت حكومة الهند أنه يمكن الموافقة على اقتراح كوكس « إلا إذا كان هناك اتجاه لعقد تسوية مع فرنسا »(١). إلا أن حكومة لندن أبلغت حكومة الهند بأنه ليست هناك توقعات للمفاوضات مع فرنسا ، وهكذا تمت الموافقة على دفع المبلغ المذكور لسلطان مسقط(٢) وقد رفض السلطان هذا المبلغ ، وطلب إعادة الأسلحة بواسطته لأصحابها ، وتبين أنه كان قد اقترض من التجار وأنهم اشترطوا عليه إعادة الأسلحة(٣) .

ولا شك أن الحصار كان فعالا ومؤثراً على تجارة الأسلحة فى مسقط ، ورغم

---

(١) Telegram from Viceroy, 1544/10, 28th Oct. 1910.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 10.

(٢) Earl of Crew's Telegram, 15th Nov. 1910.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 10.

(٣) Telegram from Viceroy, 26 Dec. 1910.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 10.

التجار الفرنسيين وخاصة شركة Goguyer تأثراً كبيراً من الحصار ، فإن الأسلحة الواردة كانت بصفة رئيسية صناعية بلجيكية أو انجليزية[١] .

وفى سبتمبر أبرق الماجور Trevor الممثل البريطانى فى مسقط إلى الكولونيل كوكس بأن التجار قد تأثروا كثيراً بالحصار ، وأن الأسعار قد انخفضت كثيراً ، إلا أنه عند ما تواترت الأنباء عن وفاق بين الحكومتين البريطانية والفرنسية بالنسبة لمسألة الأسلحة ، فان بعض التجار بدأوا فى التحفظ على الأسلحة التى فى مخازنهم بأمل نيل تعويض فى النهاية[٢] .

وفى ٤ أكتوبر أبلغت حكومة الهند بأن مسألة التعويضات «لن تناقش الآن» ، إلا أن حالة التجار فى مسقط كانت آخذة فى الانتعاش ، فقد قدم شيخ الكويت طلباً لشراء كميات ضخمة من البنادق بتصريح بريطانى ، كما اندفع التجار الأفغانيون للشراء ، وهكذا انتعشت التجارة بعض الوقت .

تدعيم الحصار البحرى على طول الساحل الفارسى والعربى :

لقد أثيرت مسألة استمرار الحصار مرة أخرى ، وتم التصديق على ذلك حتى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ . وقد أوضح الأدميرال سليد Slade عن وجهة نظره بأنه يجب استمرار الحصار تحت أية ظروف لمواجهة نشاط الأفغانيين « وأنه عند وصول هؤلاء إلى الخليج وتأكدهم من فعالية الحصار فمن المحتمل أنهم سوف يتراجعون وينهون الصراع ، إلا أننا إذا رفعنا الحصار ، فسوف تتجدد تجارة الأسلحة مع ازدهار أكثر من أى وقت مضى » .

كما أوضح الأدميرال أن القوة البحرية اللازمة لكى يكون الحصار فعالا يجب أن تتكون من أربعة طرادات وسبع سفن حربية ، كما أشار إلى أنه إذا كان الحصار ناجحاً ، فانه من المحتمل إنقاص عدد من السفن إلى ثلاثة فى فبراير أو مارس

---

(١) Governor of India to Viscount Morley, 1149/10, 11 August 1910.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 10.

(٢) Major Trevor to L.C. Cox, 17th Sept. 1910.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 10.

١٩١١[١].

كما أكد ممثل الحاكم العام فى بلوخستان أهمية استمرار الحصار ، واقترح تدعيم ذلك الحصار حتى يخاف التجار من المخاطرة بأموالهم فى تجارة الأسلحة .

أما الكولونيل كوكس فكان يرى وجوب استمرار الحصار وتدعيمه حتى ربيع عام ١٩١١[٢] . وقد وافقت حكومة الهند على تلك الاقتراحات ، وأعارت — بموافقة وزير الدولة — ثلاث سفن لقوة الحصار حتى تصل القوة إلى سبع سفن حربية[٣] .

وفى ٢٩ نوفمبر وافقت حكومة الهند على مقترحات الضباط الثلاثة ، وأرسلت اقتراحاً إلى حكومة لندن باستمرار الحصار إلى نهاية مارس ١٩١١[٤] .

وقد وافقت الحكومة البريطانية على ذلك فى ١٦ يناير ١٩١١[٥] .

وفى غضون ذلك الوقت ، تم تدعيم الحصار ، وقام الأسطول بنشاط كبير ، وفى ٢ نوفمبر نزلت قوة من السفينة البريطانية Proserpine على مسافة سبعة أميال

---

(١) Admiral Slade to Government of India, 2nd August 1910.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 11.

(٢) L.C. Cox to Government of India, Telegram, 30 August 1910.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 12.

(٣) Telegrams from Gov. of India, 1st Nov. and 7th Nov. Telegram from Secretary of State, 7 Nov. 1910.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 12.

(٤) Telegram from Viceroy, 1713/10, 29th Nov. 1910.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 12.

(٥) Earl Crewe's telegram, 16 January 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 12.

من بريس للبحث عن الأسلحة المحمولة إلى المنطقة المجاورة[١] . وهاجم بعض الأفغانيين بعض البالوخ ، وفى اليوم التالى نزلت قوة بريطانية أخرى من السفينة الحربية Perseus وتم الاستيلاء على ٢٦٠ بندقية و ٣٠,٠٠٠ طلقة ، كما تم اكتشاف القارب الذى أحضر هذه الشحنة من الأسلحة والذخائر وتم إحراقه[٢] .

واستمر نشاط الأسطول البريطانى فى تدعيم الحصار البحرى ، فى ٢٠ نوفمبر ١٩١٠ ، أحرق الكابتن Hant قارباً عليه شحنة من الأسلحة ، وكان هذا القارب مملوكا لملاح اسمه عبد الله من رعايا سلطان مسقط[٣] . كما أحرق الكابتن هنت سفينتين محملتين بالأسلحة والذخائر فى ٢٩ نوفمبر[٤] .

وكان إجراء إحراق قوارب تهريب الأسلحة إجراء جديداً بتعليمات من الأدميرال سليد Slade ، ولا شك أن هذا الأسلوب الجديد فى عمليات الحصار كان فعالا من وجهة النظر البريطانية ، لأن تجارة السفن وجدوا أن عملية نقل الأسلحة عملية خطيرة لا تساوى المخاطرة من أجلها ، لانها قد تؤدى إلى فقد السفينة نفسها . ولقد كان لهذا الأسلوب أثره حتى أن الأدميرال سليد أمكنه أن يؤكد فى فبراير ١٩١١ أن « تجارة الأسلحة أصبحت راكدة تماماً » ، وأن بعض الشحنات كانت تهرب عبر الحصار من وقت لآخر إلا أنه حتى هذه الشحنات قد نقصت

---

(١) Telegram from Commander-in-Chief to Admirality, 4th Nov. 1910.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 12.

(٢) Gov. of India to Earl Crewe, 11th Nov. 1910.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 12.

(٣) Captain Hunt to Commander-in-Chief, 24th Nov. 1910.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 13.

(٤) Captain Hunt to Commander-in-Chief, 29 Nov. 1910.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 13.

إلى حد كبير منذ أن أصدرت تعلماتى بإحراق القوارب القائمة بالتهريب »[1] .

إلا أنه بينما نجح الحصار البحرى فى إيقاف التهريب فى ساحل مكران ، فإن التجارة فى الأسلحة استمرت فى أعلى الخليج . وجاءت الأنباء بأن عدداً كبيراً من الأفغانيين كانوا يعملون فى ميناء بندر عباس إلا أنهم اختفوا فجأة وبطريقة غامضة . وتبين بعد ذلك أن كمية كبيرة من الأسلحة قد نقلت سراً من الكويت إلى بندر طاهرى الفارسى ، وأنه من المرجح أن أمر اختفاء الأفغانيين متصل بهذه العملية .

وفى ٢٤ ديسمبر ١٩١٠ حدثت حادثة هامة فى دبى ، فقد نزلت قوة بريطانية من السفينة الحربية Hyacinth إليها نتيجة لمعلومات سابقة بأن أسلحة سوف تصدر منها بطريقة مخالفة للمعاهدة المبرمة معها وقد أطلق العرب النار على القوة البريطانية ، وكانت خسائر البريطانيين ٦ قتلى ، ٩ جرحى وخسر الجانب الآخر ٣٧ قتيلا .

والواقع فإن القتال قد « ازداد حدة نتيجة للشعور المتزايد من العداء والغيظ نتيجة للاجراءات التى دعمت منع تجارة الأسلحة على الساحل » .

وفى ٢٠ ديسمبر استدعى الليفتينانت Noakas R.N. الشيخ على شيخ دبى للاتفاق معه على تفتيش أحد المنازل للشتبه وجود أسلحة فيها ، إلا أن الشيخ تلكأ فى ذلك ، مما أدى إلى فشل العملية . وفى ٢٤ ديسمبر علم الكابتن ديك J.D. Dick السفينة Hyacinth أن الليفتنانت نوكس قد خدع ، وأن الأسلحة قد أخفيت عنه . وعندما استدعى الشيخ لتفتيش منزلين آخرين بصحبة قوة بريطانية ، فإنه لم يستجب لذلك وعندما قامت القوة البريطانية وحدها بالتفتيش ، بدأت بعض الإضطرابات ، وتبين أن الشيخ هو الذى سمح بهذه الاضطرابات إلا أنه عندما وجد أن الحالة قد أصبحت خطيرة ، فإنه عمد إلى القضاء على هذه الاضطرابات . « وتبين

---

(١) Sir E. Slade to Admiralty, 18th Feb. 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 13.

أنه قادر على السيطرة إذا ما رغب فى ذلك »[١] .

وفى ٢٨ ديسمبر استقبل الادميرال سليد Slade والكولونيل كوكس الشيخ على ظهر السفينة Hyacinth . وقد أنكر الشيخ عدم تعاونه ، واتهم الجماعة البريطانية التى نزلت إلى البر بأنها هى التى بدأت بالعدوان ، إلا أن كلماته كانت تختلف كلية عن تقارير الضباط البريطانيين . وأكثر من ذلك فإنه رفض إعادة إقامة « صارى » — كانت قد أقامته السفينة Hyacinth لإظهار حركة المد والجزر — وكان قد رفع بتعليمات من الشيخ ، كما رفض أن يقيم ضابط بريطانى فى دبى كممثل للمقيم[٢] . ونتيجة لذلك أرسل إنذار بريطانى مكتوب ولمدة ٤٨ ساعة يطلب الآتى :

١ — الإعادة السريعة للقائم الخشبى (الصارى) وأن يظل هذا الصارى قائماً الفترة التى يحددها قائد السفينة البريطانية Hyacinth.

٢ — الموافقة على إقامة محطة للبرق فى الوقت الذى تراه الحكومة مناسباً وطبقاً للشروط الواردة فى المادة الإضافية لمعاهدة ١٨٥٣ .

٣ — تسليم ٤٠٠ بندقية صالحة على أن تجمع مع الأهالى .

٤ — دفع ٥٠,٠٠٠ ريال كتعويض يوضع تحت تصرف الحكومة .

٥ — الموافقة على إقامة ضابط بريطانى كممثل ، ومعه حرس خاص من قوة صغيرة ، ويجب على الشيخ التعاون معه وحمايته ومعاملته معاملة ودية .

٦ — الموافقة على إقامة مكتب بريد فرعى تابع لأدارة البريد الهندية .

---

(١) Commander-in-Chief to Admiralty, 30th Dec. 1910.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 14.

(٢) C. Dick to Commander-in-Chief, East Indies, 12 Dec. 1910.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 14.

وقعت المادة الإضافية فى عام ١٨٦٤ ؛ وطبقاً لها فان كل الشيوخ المهادنيين — بما فيهم شيخ دبى — تعهدوا بالامتناع عن أى تدخل فى العمليات الخاصة بالبرق التى تقوم بها الحكومة البريطانية فى أو قرب أراضيهم .

وبالنسبة للبندين ٥ ، ٦ ، وافق الأدميرال والمقيم بأنه للأغراض السياسية والتجارية ومشاكل تجارة الأسلحة ، فإنه مطلوب تعيين ضابط بريطانى فى دبى ، وأن إقامة مكتب بريد جديد قد « طالب به التجار البريطانيون ، وأن تعيين ممثل يجعل من الضرورى وضع قوة خاصة لحمايته ومحطة لاسلكى »(١) .

وفى أول يناير ١٩١١ ، قرر الأميرال أن الشيخ قد أذعن للشروط الأربعة الأولى التى حواها الإنذار ، وأضاف الأدميرال بأن الأحداث الأخيرة أوضحت بأنه حاكم ضعيف ، وأنه يبدو من الأهمية بمكان وضع ممثل بريطانى هناك ، وأن تكون معه قوة من ١٠٠٠ رجل .

وقد رأت حكومة الهند أن للموقف فى دبى مضطرب ومحاط بالأخطار ، وأن التعويض من ٥٠،٠٠٠ ريال هو تعويض باهظ ، وأوصت بأنه يجب أن يكون واضحاً للشيوخ ورؤساء القبائل فى دبى وغيرها من المناطق ، أن للمسألة الوحيدة التى تهتم بها الحكومة وهى إيقاف تصدير الأسلحة إلى فارس ، وأنه ليس هناك اتجاه لمنع رجال القبائل أنفسهم من حيازة الأسلحة أو للانتقاص من استقلالهم . كما رفضت حكومة الهند فكرة وضع قوة مع الممثل البريطانى فى دبى ، وتمسكت بأنه « إلى أن يمكن إعادة العلاقات الودية إلى درجة تسمح بوضع ممثل هناك ، فإنه يعتبر كافياً قيام نائب القنصل فى لجنة Lingah بزيارة دبى من وقت لآخر »(٢) .

وقد وافقت الحكومة البريطانية بصفة عامة على المقترحات الأخيرة ، خصوصاً بالنسبة لوضع مقيم فى دبى ، وكذلك أشارت إلى أنه من المرغوب فيه جداً « تلافى أى عمل من شأنه أن يفسر على أنه تدخل فى شئون الأمارات العربية » . وقد رأت الحكومة البريطانية أيضا تفويض الكولونيل كوكس والأدميرال فى مسألة التعويض

(١) C. Dick to Commander-in-Chief, East Indies, 31 Dec. 1910.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 15.

(٢) Telegram from Viceroy, 2nd January 1911, containing telegram to Resident, 151/11.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 15.

« والتي بالنسبة للخسائر في الأرواح فإنها يجب أن ترفع طبقاً لمقدرة الشيخ على الدفع »(١) .

وقد أشارت حكومة الهند إلى حقيقة أن الشيخ قد امتثل لشروط الإنذار ، ومن ثم أصدرت تعلياتها إلى المقيم في الخليج بأن البنود ٢ ، ٥ ، ٦ (والخاصة بإقامة محطة البرق ومكتب البريد والممثل البريطاني) سوف تؤجل إلى حين هدوء الأحوال ، وأنه في غضون ذلك ، فإن كل التعويض البالغ ٥٠,٠٠٠ ريال سوف يحفظ إلى حين طلب الحكومة(٢) .

وقد أشار المقيم في خطابه في ٨ يناير إلى المخاوف التي جاءت في برقية حكومة الهند بتاريخ ٢ يناير بالنسبة لموقف بقية الشيوخ(٣) ، فقد تم استقبال كل من شيخ الشارقة وأم القوين على السفينة Hyacinth في ٣٠ ديسمبر ، وأنهما قد تأثرا كثيراً بما رأوه ، وأنهما قد أسفا للخلاف بين شيخ دبي والحكومة ، وأن الشيخين قد تعاونا على إقناع الشيخ بقبول الإنذار البريطاني ، وقد فهم الإثنان جيداً أن الحصار لا يمس استقلالها (٤) .

وقد كان لهذه الأعمال أثرها في تهدئة الأحوال ، وسحبت السفينة الحربية من دبي ، ووضعت داورية ساحلية بدلا منها(٥) . وقد استمرت تلك الحالة الحادثة في

---

(١) Earl of Crewe to Gov. of India telegram, 5 January 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 16.

(٢) Telegram from Viceroy, 23 January 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 16.

(٣) L.C. Cox to Gov. of India, 8 January 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 16.

(٤) Commander-in-Chief to Admirality, 2 Jan. 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 16.

(٥) L.C. Cox to Gov. of India Telegram. 12 January 1911.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 16.

دى ، حتى أن شيخها — رغبة منه فى إظهار سلوكه الودى — قام بتقديم المعاونة الفعالة فى أغسطس من أجل إيقاف شحنة من الأسلحة كانت متجهة من الساحل إلى أحد موانىء تنجستان(١) .

تجارة الأسلحة فى مسقط :

تميزت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بازدياد حدة النشاط الأوربى فى مياه الخليج العربى وخاصة من جانب فرنسا والروسيا وألمانيا . وقد ركزت فرنسا اتجاهها فى مسقط . وكانت فرنسا من قبل قد استغلت فرصة امتداد سلطنة مسقط إلى الساحل الشرقى الافريقى ، وعقدت معاهدة مع السيد / سعيد ابن سلطان حاكم مسقط وزنجبار فى عام ١٨٤٤ .

وعندما عملت بريطانيا على تقسيم سلطنة مسقط — زنجبار أرادت أن تضمن موافقة فرنسا على ذلك التقسيم ، وذلك بمقتضى التصريح المشترك الصادر فى باريس فى مارس ١٨٦٢ . والواقع أن فرنسا وجدت فى هذا التصريح فرصة لإقلاق بريطانيا على أساس أن لها مركزاً مساوياً — ولو نظرياً — مع مركز بريطانيا فى كل من مسقط وزنجبار .

ولما كانت مسقط تحتل مركزاً هاماً على الطريق بين عدن وبومباى ، لذلك كانت لها أهمية كبيرة بالنسبة للحكومة البريطانية ، ولهذا السبب أخذت فرنسا تعارض السياسة البريطانية التى تستهدف السيطرة عليها ، وكثيراً ما لجأت إلى إثارة العقبات ضدها مستندة إلى ما لها من امتيازات سابقة أو على الأقل إذا رفضت بريطانيا الاعتراف لفرنسا بتلك الامتيازات فأنها كانت تعود إلى تأكيد تمسكها بالتصريح المشترك .

ومما يستلفت النظر أن الحكومة البريطانية استطاعت أن توثق صلتها بسلطنة مسقط ، وأن تحقق لنفسها الكثير من الامتيازات . وقد تطورت علاقتها بمسقط

---

(١) Sir G. Barley to Sir E. Grey, 1 Sept. 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 16.

بوجه خاص على أثر وفاة السيد / تركى بن سعيد فى عام ١٨٨٨[١] الذى خلفه ابنه الأصغر فيصل بعد أن نجح فى إقصاء أخيه الأكبر محمود الذى كان من المفروض أن يؤول اليه الحكم[٢] ولذلك أصبح فيصل فى موقف يحتم عليه الحصول على تأييد خارجى يعتمد عليه فى مواجهة المتاعب التى أثارها أخوه ضده ، وكذلك لمواجهة القلاقل فى بعض أجزاء عمان الداخلية ، ولعل الحكومة البريطانية وجدت فى ذلك الوضع فرصة ملائمة لتوالى الضغط على السلطان الجديد ، فلم تعترف به فى بداية الأمر ، ويبدو أنها أخذت تساومه بعد ذلك فى نظير اعترافها بولايته حتى أعلنت هذا الاعتراف فى عام ١٨٩٠ مع استمرارها فى دفع الإعانة السنوية له ، وذلك بعد أن تعهد من جانبه بالمحافظة على الاتفاقات والمعاهدات التى عقدها والده مع بريطانيا[٣].

وكانت أولى الأعمال السياسية للسيد / فيصل هو عقده لمعاهدة صداقة وملاحة وتجارة فى ١٩ مارس ١٨٩١ مع بريطانيا ، وقد حلت هذه المعاهدة محل المعاهدة التى سبق أن عقدها السيد / سعيد بن سلطان فى عام ١٨٣٩ ، وكانت تعنى هذه المعاهدة الأخيرة خضوع السلطان لحكومة الهند[٤] . وتمتاز هذه المعاهدة بكثرة المواد المنظمة للعلاقات التجارية للسلطنة ، كما نصت فى مسألة السلطة القضائية للقنصل البريطانى على شمولها للرعايا البريطانيين[٥] ، وأن هذه المسائل سواء كانت مدنية أم جنائية ، فأن من حق السلطات القنصلية البريطانية البت فيها[٦] . كما تضمنت المعاهدة نصاً

---

(١) Philby, Arabia, p. 165.

(٢) Bent, Southern Arabia, pp. 56-57.

(٣) Arabie — Revue des deux mondes, tome VI, p. 906.
Rouire, La question du Golfe Persique CF l'Angleterre en

(٤) I.O.L., Pol and Secret Library, B. Confidential Memo., Muscat, 1901.

(٥) British Institute, The Middle East, pp. 136-137.

(٦) C.U. Aitchison, A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries, vol. XI, pp. 83-84.

آخر يفرض على السلطان توجيه سياسته طبقاً لما تمليه عليه الحكومة البريطانية ، وأن لا يتقبل معاونة أو راتباً من أية حكومة أخرى[١] .

وواضح أن عقد هذه المعاهدة كان مخالفاً للتصريح المشترك فى عام ١٨٦٢ ، ولذلك كان من المفروض أن تكون سرية ، وفعلا ظلت بريطانيا تتمسك بهذه السرية حتى اضطرت إلى أن تعلنها لفرنسا عام ١٨٩٩ عقب اشتدادالأزمةفى مسقط بين الحكومتين فى نفس العام[٢] . وقد ألحق بهذه المعاهدة تعهد من جانب السيد فيصل جاء فيه أنه يتعهد عن نفسه وعن ورثته وخلفائه من بعده بعدم التنازل عن أراضى وممتلكات مسقط وعمان أو أى من ملحقاتهما أو بيعها أورهنها أو السماح باحتلالها لغير الحكومة البريطانية وأن يظل خاضعاً لمشورة حكومة الهند[٣] .

النشاط الروسى الفرنسى فى مسقط :

ليس من شك فى أن من أهم الأسباب التى دفعت بريطانيا إلى تقوية نفوذها فى سلطنة مسقط وإلى توقيع المعاهدة السابقة ، ظهور النشاط الفرنسى فى السلطنة بشكل واضح ، وزاد الأمر خطورة أنه فى عام ١٨٩١ انضمت روسيا إلى فرنسا فى إتفاقية سرية تهدف إلى مجابهة النفوذ البريطانى خصوصاً فى منطقة فارس والخليج[٤] . وقد اتخذت الحكومتان سياسية موحدة فى هذا السبيل . وفى نفس العام ظهرت سفينة حربية روسية فى ميناء مسقط ، وقابل قائدها السلطان ، وفى العام التالى بذلت روسيا محاولة لكى تقيم لها قنصلية فى مسقط . وبرر الإنجليز معارضتهم للنفوذ الأوروبى الذى أخذ يتسرب إلى الخليج بأن تلك القوى التى تريد التدخل

(١) British Admirality, Handbook of Arabia, vol. I, p. 246.
انظر : د . جمال قاسم — الخليج العربى ص ٣٥٦ .

(٢) Aitchison, op. cit., p. 231.

(٣) Philby, Arabia, p. 166.

(٤) N.J. Whigham, The Persian Problem, p. 20.

فى المنطقة ألم تساهم فى عمل أى شىء لتقدم التجارة أو لضمان الأمن كما فعلت بريطانيا[١] . ويبدو أن الحكومة البريطانية كانت تريد أن تكشف عن أغراضها الحقيقية وأن تعلن الحماية الرسمية على مسقط ، ولكنها حتى لا تثير مشاكل دولية وخاصة بينها وبين فرنسا ، فضلت الاستمرار فى سياسة عقد المعاهدات بالإضافة إلى الاستمرار فى دفع الراتب السنوى لسلطان مسقط والذى تعهدت بتقديمه منذ عام ١٨٧٣[٢] مقابل إلغاء تجارة الرقيق فى السلطنة ، وقد وجدت فى ذلك ضمانا مادياً لخضوع السلطان لما عليه عليه فى سياستها[٣] .

وكان سولسبورى يرى ضرورة تهدئة العلاقات بين بريطانيا وفرنسا لإبعادها عن الروسيا ، ولا يعنى ذلك أن حكومة لندن سوف تتنازل عما لها من نفوذ فى مسقط ، وإنما معناه أنها لم تكن تود حدوث أزمة فى العلاقات بين البلدين ، هذا مع إصرارها على ضرورة التمسك بما ارتبط به السلطان فيصل من تعهدات بعدم التنازل عن أراضيه ، هذا فضلا عما يمكن أن تحصل عليه من نفوذ أدبى ومادى فى السلطنة نتيجة لاستمرار حكومة الهند فى دفع الراتب السنوى لسلطان مسقط .

وعند ما حاولت فرنسا إقامة مستودع للوقود فى مسقط ، كانت وجهة النظر البريطانية واضحة بالنسبة لهذه المسألة ، فقد تساءل كيرزون عن دواعى ذلك ، لأن السفن الفرنسية ليست كثيرة التردد على الميناء ، بل إنه ربما لا تمر سفينة واحدة طيلة العام . . . » ومثل تلك السفينة لا يمكن أن تعدم وسيلة الحصول على الوقود ، بل إننا نسمح عن طيب خاطر بأن تتزود تلك السفينة من محطاتنا ... إن فرنسا تنظر إلى حصولها على محطة الفحم نظرة أكثر عمقاً ، إنها تريد أن تتطلع إلى مركز سياسى مساو للانجليز فى غرب آسيا ، فإن مستودع الفحم قد يعنى شيئاً آخر فى الغد «[٤] : والواقع أن كيرزون كان متضايقاً للغاية ، فإن فرنسا يمثلها فى

---

(١) Ruete, The Al. Bu-Said Dynasty, p. 12.

(٢) I.O.L. Pol. and Sec. Dep., B. 129, Memo. Muscat, 1901.

(٣) I.O.L. Pol. and Sec. Dep., B. 14, No. 1, Zanzibar Agency and Consulate Expenses A.W.M., 17th August 1878.

(٤) د . جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ص ٣٣٦ .

مسقط قنصل ، ولكن دون رعايا أو تجارة ، ورغم ذلك تؤكد الحقائق أنها مرتبطة بالسلطان بمعاهدة على غرار المعاهدة البريطانية . ورغم حماس كيرزون الزائد ، فإن حكومة لندن كانت تنظر إلى سلطان مسقط باعتباره حليفاً مستقلا ، وتعترف بقوة التصريح المشترك لعام ١٨٦٢(١) .

وفى ١٨ فبراير ١٩٠٠ خضع السلطان للضغط البريطانى ونتيجة لتهديده بالحصار البحرى ، وفى ٢٢ فبراير قابل مسيو كامبون لورد سولسبورى عن الطريقة التى عومل بها الموضوع مما أدى إلى إثارة حفيظة الحكومة الفرنسية ، إلا أنه أوضح أن سلوك الأدميرال كان قانونياً تماماً(٢) .

ولما كان من الضرورى إقرار العلاقات بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية فقد توصلت الحكومتان فى ٤ مايو ١٨٩٩ إلى اتفاق يقضى بأنه طالما أن مركز الحكومة الفرنسية مساو لمركز الحكومة البريطانية فى مسقط ، فإنه من الممكن لفرنسا أن تحصل على مستودع للوقود فى السلطنة مثل ما لانجلترا(٣) . وحاول سولسبورى فى هذه الفترة إرضاء فرنسا ، فعرض عليها اختيار أحد المواقع فى خليج الكلا على ساحل حضر موت ليكون محطة للوقود ، وقد وافقت الحكومة الفرنسية ، على هذا العرض فى ١٧ أغسطس ١٩٠٠(٤) .

وقد سقنا هذا الموجز للعلاقات الانجليزية الفرنسية بالنسبة لمسقط كى يكون واضحاً أثر هذه العلاقات على تجارة الأسلحة فى الخليج العربى بصفة عامة وفى مسقط بصفة خاصة .

---

(١) Philip Graves — The Life of Sir P. Cox, p. 91.

(٢) I.O.L. Pol. and Sec. Dep. B. 119, Memo. by Sir Lee — Warner on the Lease to France of a Coaling Station in Muscat, 1900.

(٣) Rouire, La question de Golfe Persique, pp. 369-370.

(٤) د : جمال قاسم — المصدر السابق ص ٣٦٧ .

موقف شركات الأسلحة فى مسقط :

أما بالنسبة لموقف التجارة نفسها ، فقد أبلغ الماجور Trevor عن نشاط واسع فى تجارة الأسلحة فى مسقط ، فإن كساد التجارة فى أكتوبر ١٩١٠ لم يستمر طويلا ، فقد باع لاجاس كل الأسلحة والذخائر الموجودة فى مخازن شركة M.M. Baijeot et Cie بأثمان منخفضة جـــداً ، كما باع ممثل شركة M. Kevorkoff كل ما فى مخازنه بنفس هــــذه الأثمان المنخفضة . كما أن M. Lapigne ممثل شركة Compagnie de L'Inde et de L'extréme Orient حاول التخلص من مخازنه قبل نهاية العام فى ٧ ديسمبر[١] . كما أن M. Néauber ممثل شركة Goguyer حاول إنهاء أعماله . ووسط كل ذلك بدا التاجر على بن موسى الوحيد الذى بقيت تجارته مزدهرة . فقد كانت له مستودعات فى موانىء أخرى فى عمان ، وكذلك لأنه اشترى كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر من مخازن Baijeot et Cie[٢] .

أما سلطان مسقط ، فقد ساءت أحواله المالية كثيراً ، وبدا ضعفه واضحاً أمام على موسى ، بل إنه تورط بالفعل فى مسائل مالية مع هذا التاجر[٣] . وقد حاول على موسى ومعه أحد التجار الآخرين اسمه سيد يوسف استغلال الفرصة ، وطلبا منه الموافقة على منحهما التزام إدارة جمارك عمان فى مقابل ٢٠٠,٠٠٠ ريال مع ضمان مقدم ضخم ، ومبلغ شهرى محدد[٤] .

---

(١) Major Trevor to L.C. Cox, 19th Nov. 1910.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 17.

(٢) Major Trevor to L.C. Cox, 11 Dec. 1910, 1960/10.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 17.

(٣) L.C. Cox to Gov. of India, 11 Dec. 1910.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 17.

(٤) L.C. Cox to Gov. of India, 30 Dec. 1910.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 17.

ونتيجة لتدهور الأحوال المالية للسلطان ، فإنه طلب من الحكومة قرضاً من ١٣,٠٠٠ ريال تستعاد من راتبه ، وقد أوصت حكومة الهند بالموافقة على طلبه ، وفى نفس الوقت أوصت بعدم تشجيع مسألة منح الالتزام الخاص بالجمارك[1] ، وقد وافقت الحكومة البريطانية على ذلك ، واقترحت أنه يجب إضافة شرط لاتفاقية القرض بأنه لا يعطى التزام من هذا النوع لأى شخص[2] . وقد وافق السلطان على هذا القرض من ١٣,٠٠٠[3] ، وهكذا أمكن التغلب على المشكلات المالية التى واجهت السلطان .

إلا أن مشكلات أخرى بدأت مع شركة Goguyer ، فقد غادرت السفينة فتح الخير ميناء مسقط واتجهت إلى قطر وعلى ظهرها شحنة من الأسلحة والذخائر فى ٢١ نوفمبر ١٩١٠ إلا أنه نتيجة للمراقبة الدقيقة من السفينة الحربية البريطانية Espiégle فان السفينة فتح الخير اضطرت إلى العودة إلى مسقط فى ١٦ يناير سنة ١٩١١ دون أن تستطيع إنزال شحنتها (٢٠٠٠ بندقية) . وقد قدمت الشركة الفرنسية احتجاجاً بأن السفن البريطانية اعترضت السفينة فتح الخير ومنعتها من الإبحار إلى قطر ، ووصلت إلى حد تعريضها لخطر الغرق ، كما منعت عنها المياه ، ومواد التموين ، كما منعتها من المتاجرة فى الأماكن المباح فيها التجارة ، وطالبت الشركة بمبلغ ٦٠,٠٠٠ ريال كتعويض عن الخسائر التجارية[4] .

---

(١) Telegram from Viceroy, 8 June 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 17.

(٢) Earl of Crewe, telegram 9 June 1911, 159/11.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 17.

L.C. Cox to Gov. of India, 16 January 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 17.

(٤) Major Trevor to L.C. Cox, 20 Jan. 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 18.

وقد نقلت المسألة إلى الأدميرالية ، وتبين — من وجهة النظر البريطانية — أن الاتهامات كلها لا أساس لها ، فإن السفينة فتح الخير وضعت فعلا تحت المراقبة ، وذلك لاتخاذ إجراءات الحصار البحرى عند إنزال الأسلحة منها ، ونتيجة لذلك ، فإن كل الرؤساء على الساحل . . . الواحد تلو الآخر كان يطلب من السفينة أن تترك المنطقة . ولم تقم السفينة الحربية Espiègle بتهديدها مطلقاً . كما أعلن السير سليد Slade بالنسبة لذلك « أنه يبدو فشلا لسياسة الحصار البحرى إذا ما نجحت محاولة شركة M.M. Baijeot et Cie فى ذلك ، لأن فتح الخير سوف تستأجر بعد ذلك لأى أفغانى يريد أسلحة عبر الخليج »[١] .

وتم اتصال بين المأجور Trovor والقنصل الفرنسى فى مسقط M. Jeannier على أساس رفض الماجور لإدعاءات الشركة الفرنسية . وعند هذا الحد انتقلت المسألة إلى الحكومة الفرنسية[٢] . وقد نقل M. Cambon شكوى الشركة إلى السير جراى فى ٢٨ مارس ١٩١١ ، إلا أنه تلقى رفضاً كاملا لكل اتهامات الشركة[٣] وهكذا انتهت المسألة ، بعد أن أكدت نجاح سياسة الحصار ، وقدرة السفن الحربية البريطانية على فرض الرقابة على سفينة فرنسية تحمل شحنة من الأسلحة ، ومنعها من إنزالها فى أى من موانىء الخليج ، هذا مع عدم اتخاذ أى اجراء يمس حقوق العلم الفرنسى المرفوع عليها .

شرعية التجارة فى مسقط :

أما الوضع فى مسقط فكانت تحكمه حقيقة أن السلطان كانت له معاهدات

---

(١) Admiral Slade to Admirality, 5 Feb. 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 18.

(٢) M. Jeannier to M. Trevor, 8 Feb. 1911.
Major Trevor to M. Jeannier, 5 Feb. 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 18.

(٣) Sir E. Grey to M. Cambon, 10 April 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 18.

تجارية مع الولايات المتحدة فى عام ١٨٣٣ وفرنسا ١٨٤٤ وبريطانيا ١٨٦١ ، ولا شك أن وضع أية قيود خاصة على التجارة فى الأسلحة من وإلى أراضيه تحتاج إلى تعديلات فى شروط تلك المعاهدات ، كما أنه كان هناك تصريح تجارى[١] كان قد أصدره السلطان تركى بن سعيد لصالح هولندا فى عام ١٨٧٧[٢] .

والملاحظ أن هذه المعاهدات والاتفاقيات التجارية كانت لاتضع العراقيل أمام تصدير واستيراد البضائع المختلفة ، هذا بالإضافة إلى أن المركز الدولى لسلطنة مسقط كان محدداً بمقتضى التصريح الإنجليزى — الفرنسى المشترك والصادر فى مارس ١٨٦٢ ، والذى كان يتيح لفرنسا مركزاً مساوياً لمركز بريطانيا فى مسقط ، ولذلك هدفت السياسة البريطانية إلى التخلص من هذا التصريح[٣] .

والواقع أن التجارة فى الأسلحة كانت تسبب الكثير من المتاعب للحكومة البريطانية فى السنوات الخمس التى سبقت الحرب العالمية الأولى ، وكانت هذه الأسلحة تستورد من أوربا حيث تصدر إلى سواحل بلوخستان وفارس ، ثم تنقل بعد ذلك إلى أفغانستان ومقاطعات وسط آسيا مما أثار القلاقل والاضطرابات — بالنسبة لبريطانيا — على الحدود الشمالية الغربية للهند[٤] . ولقد بدأت تجارة الأسلحة منذ عام ١٨٤٤ ، ولكن لم تنتبه الحكومة البريطانية إلى خطر هذه التجارة إلا فى أثناء الحرب الأفغانية الثالثة ، وأدركت أن وجود هذه الأسلحة مما يشجع على الثورة فى حدود الهند الغربية[٥] ومنذ عام ١٨٨٠ اتخذت حكومة الهند خطوات تمهيدية لمنع مرور الأسلحة فى حدودها ، ومنعت تجارة الأسلحة بصفة عامة فى كل مكان على

---

(١) I.O.L. Political Dep., 8 182, Arms Traffic at Muscat.

انظر : I.O., 15th Feb. 1911.

(٢) د . جمال زكريا قاسم — المصدر السابق ص ٣٨٠ .

(٣) I.O.L., B. 196, p. 18.

(٤) Paul Harrison, The Arab at Home, p. 96.

(٥) جان بيشون — بواعث الحرب العالمية الأولى فى الشرق الأدنى وموجز لتاريخ حلول أوربا فى هذا الشرق — تعريب محمد عزة دروزة ص ٢٧

سواحل الخليج العربي[1] .

وعلى الرغم من أن مؤتمر بروكسل الدولي الذي عقد في عام ١٨٩٠ قد وجه ضربة قاضية لتجارة الأسلحة في أفريقيا ، فإن منطقة الخليج لم تكن ضمن نطاق هذا المرسوم ، وكان تهريب الأسلحة يتزايد تزايداً ملحوظاً حتى عام ١٨٩٢ ، فقد بلغ عدد البنادق المصدرة إلى مسقط في ذلك العام ١١٫٥٠٠ بندقية ، ومن هنا كانت توزع على بقية أنحاء الخليج ، وقد تضاعف هذا الرقم عدة مرات في السنوات التي تلت ذلك . وقد سببت هذه الأسلحة الكثير من القلق للسلطات الإنجليزية[2] .

وفي غضون ذلك الوقت ، عقدت الحكومة البريطانية اتفاقات لتحريم التجارة في الأسلحة مع إمارات الخليج ، ففي عام ١٨٩٨ عقدت اتفاقاً مع البحرين ، وفي عام ١٩٠٠ عقدت إتفاقاً مماثلا مع الكويت وكذلك مع شيوخ الساحل المهادن في عام ١٩٠٢ .

وكان سلطان مسقط قد وافق في عام ١٨٩٨ على منع تصدير الأسلحة من مسقط إلى الهند وفارس حيث كان استيراد الأسلحة إليها يعد عملا غير مشروع ، كما فوض السفن البريطانية في تنفيذ هذا المنع . إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن استيراد الأسلحة إلى مسقط أو إعادة تصديرها باستثناء البلدين المذكورين لم يكن محرماً . ونتيجة لذلك أصبحت مسقط مركزاً لتجارة الأسلحة لكل منطقة غربي آسيا ، وكانت البنادق والذخائر ترد إليها من أوربا بكميات ضخمة ، ومن هناك توزع على سواحل الخليج .

وكانت المصانع البلجيكية والألمانية والفرنسية والأنجليزية هي التي تقوم بتصدير هذه الاسلحة إلى مسقط . وقد بلغ حجم هذه التجارة قدراً كبيراً ، ففي عام ١٩٠٧ وردت إلى مسقط ٤٤٫٩٢٧ بندقية — قيمتها ١١٢٫٣٣٨ جنيهاً ارتفعت في عام ١٩٠٨ إلى ٨٧٫٦١٠ بندقية قيمتها ٢٧٩٫٠٥٠ جنيهاً ثم انخفضت إلى ٨٥٫٩٢٠

---

(١) I.O.L. Pol. Dep., B. 182, Arms Traffic at Muscat.

(٢) Richard Coke, The Heart of the Middle East, p. 136.

بندقية فى علم ١٩٠٩ قيمتها ٢٣٧,٦٤٤ جنيهاً ، ثم انخفضت القيمة سنة ١٩١٠ إلى ١٠٣,٨٦٢ جنيهاً وقد ساهمت المصانع البلجيكية وحدها بأكثرها من نصف حجم هذه التجارة .

ولقد كان لهذا الفيض من الأسلحه تأثيرات خطيرة على الحدود الشمالية الغربية للهند ، حتى أن حكومة الهند أوضحت أنه قد نشأت هناك حالة « قلبت ميزان القوى ، وشكلت تهديداً خطيراً للسلام » .

ولقد أنفقت بريطانياً نحو ربع مليون جنيه فى إجراء منع التجارة فى الأسلحة حتى عام ١٩١٠ ، ولقد قللت هذه الإجراءات بالفعل من حجم هذه التجارة كما تبين من الأرقام السابقة ، إلا أنه بدا واضحاً أنه إذا لم يتم ضبط التجارة فى المنبع — مسقط — فأنه لا يمكن القضاء على هذه التجارة تماماً[1] ، خصوصاً بعد أن تبين فشل محاولات الوصول إلى اتفاق مع فرنسا — عن طريق تبادل المصالح — من أجل منع تجارة الأسلحة فى مسقط . وقد قدم الكولونيل كوكس مقترحات ترمى إلى محاولة التفاهم مع سلطان مسقط ، وأنه يمكن منحه تعويضاً مالياً للحد من تصدير الأسلحة من مسقط إلى الموانىء الأخرى فى الخليج . كما قدم كوكس نظاماً مقترحاً للمرور ، يشرف عليه ضابط بريطانى ، وأن أى قارب لا يحمل تصريحاً للمرور مهما كانت وجهته . فإن من حق السفن البريطانية الإستيلاء عليه حتى فى مياه مسقط .

وقد نقل هذا المشروع إلى وزارة الخارجية ، وكان السير جراى مستعداً للموافقة عليه طالما أنه فى حد ذاته لا يتعارض مع المعاهدة الفرنسية ١٨٤٤ ، وأكثر من ذلك ، كان مستعداً لمواجهة الإحتجاج المتوقع من الحكومة الفرنسية إذا ما نفذ هذا المشروع .

إلا أنه كان مفهوماً أن هذا المشروع ليس إلا نوعاً من السيطرة على التجارة طالما أن فرنسا لا تريد الموافقة على منعها ، إلا أنه كان مفهوماً أيضاً أنه لا يجب

---

(١) I.O.L. Pol. Dep., B. 182, Arms Traffic at Muscat. I.O., 15th Feb. 1911.

اللجوء إلى ذلك إلا عند ضياع آخر أمل فى الوصول إلى تسوية ودية مع فرنسا ، وكما تبين فإن تلك المفاوضات المتقطعة كانت بلا نتيجة ، حتى أن المشروع الذى قدمه كوكس فى يناير ١٩١٠ للتعامل مع مسقط مباشرة بدأ تنفيذه بالفعل .

وكان السلطان فى حالة مالية سيئة ، ويجب أن نتذكر أنه كان قد تفاوض مع أحد كبار تجار الأسلحة وهو على موسى الذى عرض عليه مبلغاً ضخماً وراتباً شهرياً فى مقابل الحصول على إمتياز جمارك عمان . إلا أنه أمكن تلافى ذلك عندما قدمت خزانة الهند ١٣,٠٠٠ ريال كإعانة سريعة للسلطان .

وقد اشتكى السلطان فى ديسمبر ١٩١٠ للممثل السياسى الماجور Trevor لحرق قاربين له فى نهر جالج وقد دافع الماجور عن ذلك ، وأرجعه إلى السلوك السيىء من البحارة ، كما أضاف أنه من المرغوب فيه الوصول إلى ترتيبات دائمة ومرضية مع السطان . وهناك سبب آخر شجع المضى فى هذا السبيل ، وهو تحول السلطان من اتجاهه المحايد بالنسبة للتجارة إلى التدخل الفعلى فى سيرها ، فقد بدا إلى حد ما أنه وقع فى أيدى كبار تجار الأسلحة ، وبصفة خاصة على موسى[١] .

وفى أبريل ١٩١١ ، أرسل السلطان أحد قواربه لنقل أسلحة من أحد موانىء عمان إلى ميناء آخر[٢] ، وفى ٥ ، ٦ ، ٧ أبريل أسرت السفينة الحربية Espiegle ثلاث قوارب فى أعلى الخليج وجنوبى صحار تحمل أسلحة وذخائر تصل فى مجموعها إلى ٢٠٠ بندقية و ٦٦,٨٠٠ طلقة[٣] . ولم تكن القوارب ترفع أية أعلام ، إلا أنها كانت تحمل تصاريح مرور موقعة من السلطان ، ويبدو أنه منح هذه التصاريح إلى على موسى دون توقيع ، وأن الأخير قد استوفى بياناتها بالنسبة لكمية الشحنة .

---

(١) L.C. Cox to Gov. of India, 28 April 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 27.

(٢) L.C. Cox to Gov. of India, 1st Sept. 1911.

(٣) Commander-in-Chief, East Indies to Gov. of India. Telegram, 12th April 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 27.

وقد غرقت القوارب الثلاثة نتيجة الطقس السيىء أثناء الجزر . وقداشتكى السلطان إلى كوكس على أساس أن الاستيلاء على القوارب قد تم فى المياه الاقليمية وعلى بعد نحو ثلاثة أميـال من الساحل ، إلا أن كوكس قرر بأن القوارب لم تـكن داخل المياه الإقليمية .

كما كان لرأى كوكس تأثير كبير بالنسبة لهـذه الحادثة على الحـكومة ، وذلك بالنسبة لسياستها فى المستقبل تجـاه السلطان : هل تدعم الحصـار وفى نفس الوقت تهمله ؟ أم هل يمكن بذل مجهود أخير للحصول على معاونة السلطان وانتزاعه من براثن التجار ؟ . . . كما تبين بعد ذلك تم اختيار الطريق الثانى ، ويمكن القول أن تلك الحادثة كانت البداية الفعلية — للسياسة الجديدة[١] .

وقد اقترح الماجور S.G. Knox — الذى خلف الماجور Trevor كممثل سياسى — لتحقيق هذه السياسة ، أن يصدر السلطان تصريحاً بمنع تصدير واستيراد الأسلحة ، وأنه يمكن إضافة مادة إلى المعاهدة البريطانية تحرم على الرعايا البريطانيين المتاجرة فى الأسلحة . . . « وإذا ما اتبعت الولايات المتحدة نفس الأسلوب ، فان فرنسا سوف تـكون فى موقف انعزالى يمثل انغماساً فى تجارة مـكروهة حرمتها الحـكومة المحلية والدول الأخرى المتحضرة . ويمكن نصـح السلطان حينـذاك فان يقـدم معاهدة مرنة فى موادها حتى أنهـا يمكنها أن تحدد على الأقل من اسـتيراد البضائع القاتلة » .

وأضاف المقيم أنه لتسهيل العملية ، يمـكن شراء مخازن التجار البريطانيين والوطنيين مع تعهدهم بعدم العمل فى تجارة الأسلحة فى عمان مرة أخرى ، وإذا ما قدمت نفس العروض للتجار الفرنسيين ، فإنهم من المحتمل أن يرفضوا العرض ، وهذا الرفض يعطى للسلطان الفرصة للتنصل من معاهدة ١٨٤٠[٢] .

---

(١) L.C. Cox to Gov. of India, 12th April 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 27.

(٢) Major Knox to L.C. Cox, 12 May 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, pp. 27-28.

إقامة مستودع عام للأسلحة فى مسقط :

وعلى أية حال فقد شرع فى وضع اقتراح الكولونيل كوكس موضع التنفيذ ، وكانت معظم الأسلحة تصدر من ميناء جيبوتى الخاضع للفرنسيين ، ونتيجة لازدياد حركة مرور الأسلحة[1] اقترح كوكس إقامة مستودع للأسلحة Warehouse فى مسقط تخزن فيه كل الأسلحة والذخائر عند استيرادها ، ويحرس المستودع أشخاص موثوق فيهم تحت إشراف لجنة تتكون من ممثل للقيم والممثل السياسى فى مسقط أو موظف بريطانى منتدب لهذه العملية ، وكل التعليمات الصادرة من المستودع سواء للبيع المحلى أو التصدير يحكمها نظام كامل للتسويق والتسجيل وفى حالة التصدير بطريق البحر ، فانه يجب إعطاء تصريح المرور باشراف اللجنة السابقة . وكان كوكس مستعداً — إذا كان ذلك ضرورياً — للتسليم بمطلب الاعتراف بالمساواة فى اللجنة بين فرنسا وبريطانيا وأن يسمح بممثل فرنسى .

وأضاف كوكس أنه يجب أن يحاط السلطان علماً بأن نظام مستودع الأسلحة سوف يؤدى إلى إنقاص دخوله ، ومن ثم اقترح كوكس منحه ٥٠٠٠ ريال شهرياً كتعويض له ، وأنه إذا رفض ذلك فانه يمكن أن يعرض عليه مضاعفة الإعانة السنوية .

وبالنسبة لكمية الأسلحة التى فى حوزة التجار فى مسقط فى الوقت الراهن ، أو المعدة للتصدير فانها داخلة فى اختصاص السلطان كمسألة تمس الإدارة الداخلية ، ويمكن إجبار التجار على إيداع شحناتهم فى المستودع كى تباع تحت التحفظات الواردة فى الاقتراح . وإذا ما فشل هذا الاقتراح ، فإنه عند الضرورة يجب شراء الشحنات الموجودة فى الوقت الراهن بالسعر الأهلى أو بتقييم معقول .

وأخيراً اقترح المقيم أنه من المستحسن الحصول على تعهد من السلطان بعدم الدخول فى معاهدات جديدة مع أية قوى أجنبية دون الموافقة السابقة من الحكومة

---

(١) Poincarée à Cambon, 29.5.1912, (D.D. Doc. No. 5).

انظر د. جمال قاسم — المصدر السابق ص ٣٨٢ .

البريطانية(١) .

وقد وافقت الحكومة البريطانية على هذه المقترحات ، إلا أنها رأت أن مسألة تعهد السلطان بعدم الدخول فى معاهدات جديدة يجب إرجاؤها ، وأن السلطان إذا ما وافق على نظام مستودع الأسلحة ، فانه يجب عدم التنفيذ الفورى لتلافى إغضاب فرنسا ، بينما لا زالت هناك محاولات للتفاوض معها . وفى ٢٥ يوليو فوض كوكس للتفاهم مع السلطان(٢) طبقاً للمقترحات السابقة . وقد طلب كوكس منحه السلطة لتهديد السلطان إذا لم يستجب للمطالب البريطانية(٣) ، وقد تم بالفعل منحه السلطة المطلوبة ، وفى ١٩١١ بدأ كوكس فى تنفيذ العملية(٤) .

وقد أبدى السلطان رغبته فى المحافظة على العلاقات الودية مع الحكومة البريطانية طالما ظل سلوكها نحوه ودياً ، كان مستعداً لإصدار تصريح بالمنع الكامل للتجارة على الرغم من المعاهدة الفرنسية ، إذا ماضمنت له الحكومة البريطانية نتائج ذلك ، أو أنه « يضع كل مصالحه فى أيدينا ، إذا أمكننا نحن والحكومة الفرنسية تسوية المسألة فيما بيننا » .

أما بالنسبة للاجراءات المقترحة لسير العمل ، فانه وعد بالمعاونة الكاملة إذا لم تتعارض مع معاهداته مع القوى الأخرى ، وإذا ما قدمت له المعاونة لمواجهة الحكومة الفرنسيـــة عند الضرورة ، وكذلك إذا كانت الناحية المالية مجزية .

---

(١) Telegram from Viceroy, 10th July 1911, 1157/11.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 28.

(٢) F.O. to I.O., 16th August 1911, 4041/11.
انظر : I.O.L., B. 196.

(٣) Telegram from Viceroy, 18 Oct. 1911, 1712/11.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 29.

(٤) Telegram from Secretary of State, 31 Oct. 1911, 4495/11.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 29.

ولم يوافق السلطان على حجم التعويض الذى عرضه كوكس وطالب بمبلغ مجمع قدره ٨٠,٠٠٠ ريال ، وقد اعتبر كوكس أن هذا المطلب معقول ، وأنه يجب عدم رفضه تماماً[١] .

وقد أبدت حكومة الهند قلقها من أن يقوم السلطان بالاتصال بفرنسا مباشرة وكان الاتجاه الذى رأته حكومة الهند هو إقناع السلطان بأن إقامة مستودع هو « تفصيل لترتيبات داخلية » ، وهى من حقوقه تماماً بصفته حاكما مستقلا ، وأنه يجب عدم استشارة فرنسا بالنسبة لذلك . أما بالنسبة لمسألة التعويض ، فقد طلبت حكومة الهند إنقاص المبلغ الذى طلبه السلطان[٢] .

وقد وافقت وزارة الدولة على هذه المقترحات ، وأضافت « أنه من المفهوم أن ترتيباً جديداً قدمه سلطان مسقط بالنسبة لتصدير الأسلحة والذخائر ، وأنه من المعتقد أنه يمكنه إيقاف التجارة غير المشروعة مع تلك الدول التى منعت استيراد الأسلحة[٣] كما رأى وزير الدولة أنه من الضرورى لانتظام العمل فى المستودع أن يعار ضباط جمارك للسلطان . وقد أجاب كوكس على ذلك بأنه ناقش السلطان بالفعل بالنسبة لمسألة الضباط المشرفين على العمل ، وأن السلطان بينما أوضح ضرورة إشراف الحكومة البريطانية على العمل ، « فإنه مما يتنافى مع الكرامة جعل موظف بريطانى مشرفاً على مستودع الأسلحة فى مسقط » . ورأى كوكس أن منحة مالية سريعة قد تجعل السلطان أكثر تجاوباً بالنسبة لهذه النقطة[٤] . إلا أنه بالنسبة

---

(١) L.C. Cox to Gov. of India, 14th Nov. 1911, 1968/11.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 29.

(٢) Telegram from Viceroy, 28th Dec. 1911.

انظر : I.O.L., B. 196, pp. 29-30.

(٣) Telegram from Secretary of State, 1st January 1912.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 30.

(٤) Telegram from Viceroy, 19th January 1912.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 30.

لتعيين موظف بريطانى مسئول عن مستودع الأسلحة ، فرغم الأهمية لذلك(١) ، فان حكومة الهند رأت أن السلطان لن يوافق على هذا التعيين . وعلى أية حال فاذا لم يتم ذلك ، فانه يمكن وضع ترتيب آخر كأن يعين السلطان موظفاً من طرفه تحت الإشراف المشترك من الممثل السياسى وممثل كبير من طرفه كما اقترح كوكس(٢) .

وقد رأت حكومة الهند أيضاً — لتشجيع السلطان للموافقة على هذه الترتيبات منحه ٣١,٥٠٠ ريال بالإضافة إلى المبالغ المقترحة كتعويض له عن الإستيلاء على بعض القوارب التابعة له فى أبريل ١٩١١ ، على أن يكون هذا العرض مشروطاً بموافقة السلطان على المشروع الذى قدمته الحكومة البريطانية كترتيب يتلاءم مع مصالحها .

وفى ٧ فبراير وافق السلطان على هذه الشروط ، وفى نفس اليوم تمت الموافقة على منح السلطان قرض قيمته ١٠,٠٠٠ ريال ألح فى طلبها وتعهد باعادتها على دفعات : ١٠٠٠ ريال كل شهر من إعانته .

وفى أول مارس وصل كوكس إلى مسقط ، وبدأ المباحثات مع السلطان ، وقد رفض السلطان تماماً مبدأ وجود موظف بريطانى للاشراف على مستودع الأسلحة وحق لوقت محدود ، إلا أنه اقترح حل آخر أن يقوم بمساعدة الكولونيل كوكس باختيار رجل موثوق فيه من رعاياه ، وإذا كان ذلك متعذراً ، فانه مستعد للموافقة على رجل من الهند تؤهله كفايته لذلك العمل ، وأضاف السلطان أنه سوف يطلب موافقة حكومة الهند على هذا الرجل قبل توقيع عقد العمل معه . وقد أوصى كوكس بالموافقة على هذه الترتيبات من ناحية المبدأ ، مع إيضاح أنه لن يدفع أى تعويض أو أية زيادة فى الإعانة إلا بعد الإنتهاء من كل الترتيبات . وقد أبلغ

---

(١) Telegram from Secretary of State, 22nd January 1912.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 30.

(٢) Telegram from Viceroy, 29 January 1912.

انظر : I.O.L., B. 196, p. 30.

السلطان بأن استمرار دفع الإعانة له لن يتوقف عن التزامه بارتباطاته ، وأن الموظف الذى سيتم اختياره كمشرف على مستودع الأسلحة سيكون قابلا للطرد من منصبه إذا ما نقض الترتيبات المتفق عليها[١] .

وكان سلوك السلطان ودياً تماماً تجاه البريطانيين أثناء هذه المباحثات ، إلا أنه أبدى رغبته مرة أخرى فى منع التجارة فى الأسلحة نهائياً فى غضون ثلاثة أشهر ، لأنه خاف من المشكلات التى قد يثيرها التجار الاجانب ومعارضتهم لنظام مستودع الأسلحة ، وأن شكاياتهم قد تثير حكوماتهم ضده . وإن كانت الوثائق الفرنسية تؤكد أن كوكس ألح على السلطان ليقوم بإلغاء معاهدة ١٨٤٤ مع فرنسا[٢] .

وفى ٢٣ مايو ١٩١٢ ، تم الإنتهاء من وضع المسودة النهائية لمشروع مستودع الأسلحة . ونص المشروع على أنه « لما كانت هناك كميات هائلة من الأسلحة والذخائر مخزنة فى الوقت الحاضر دون تحفظ سليم وفى أبنية خاصة متفرقة فى مدينتنا مسقط ، وهى بهذه الطريقة معرضة لأخطار السرقة والحريق ، فنحن السيد فيصل ابن تركى سلطان مسقط وعمان متأثراً بالأسباب السابقة ، وللمحافظة على عاصمتنا ، قد وافقنا على علاج هذه المشكلة ببناء مستودع عام للأسلحة ، وذلك للتحفظ على الأسلحة والذخائر تحت احتياطات آمنة » .

وأوضح المشروع أنه يمكن البدء فى العمل بنظام المستودع فى أول سبتمبر التالى ، ونص المشروع على أنه يمكن أن تكون إجراءات العمل فى هذا المستودع كالآتى :

١ — فى أول سبتمبر التالى ، فإن كل الأسلحة والذخائر الواردة إلى داخل الأراضى التابعة لى سوف تنقل مباشرة من السفن إلى إدارة المستودع التى سيعين عليها مراقب .

---

(١) Telegram from Secretary of State 768/12, 5 March 1912.
انظر : I.O.L., B. 196, p. 31.

(٢) Poincarée à Cambon, 29.5.1912, (D.D.F. Doc. No. 5).
انظر : د . جمال زكريا قاسم — المصدر السابق ص ٣٨٢ .

٢ — سوف يطلب من كل تجار الأسلحة فى الأراضى التابعة لى إيداع الأسلحة الباقية معهم فى أول سبتمبر فى ذلك المستودع ، وأى تاجر لا ينفذ ذلك سوف يتعرض — إلى جانب عقوبات أخرى — إلى مصادر شحناته من الأسلحة والواردة باسمه مستقبلا ، إلا إذا نفذ الترتيبات السابقة تماماً .

٣ — لا يسمح بإخراج أية أسلحة من المستودع إلا بعد دفع الضرائب كاملة إلى مراقب المستودع بالطريقة المعتادة .

٤ — تنظم عملية سحب الأسلحة من المستودع ، على أن يكون ذلك بموجب تصاريح خاصة عن طريق مراقب المستودع وتوقيع منى .

٥ — هذه التصاريح لا تسلم للتجار ، ولكن لتؤكد للمشترين أو لممثليهم نوع الأسلحة وكميتها ومصدرها والذخائر ، وأنها يمكن سحبها من المستودع دون اعتراض.

٦ — كل الأسلحة التى تخرج من المستودع يجب أن توضع عليها علامة المستودع والرقم المسلسل .

وفى نفس الوقت أشار الممثل السياسى إلى أن السلطان عند إصداره القانون الذى يحوى النقاط السابقة ، وإبلاغه هذا القانون لقناصل الدول الأجنبية ، فإنه يود إعطاءه تأكيداً مكتوباً بالنسبة للنقاط الأربع التالية :

١ — تتعهد الحكومة البريطانية بتقديم كافة المعونات الضرورية له ليواجه أى احتجاجات قد تثيرها ضده فرنسا أو أية قوى أخرى .

٢ — أنه يجب أن يكون مفهوماً أن هذه الترتيبات لا تعطى للحكومة البريطانية أو للمسئولين البريطانيين أية حقوق فى أراضيه أكثر مما كان متبعاً قبل ذلك .

٣ — أن البريطانيين بتفاهمهم الودى معه ، قد توصلوا إلى ترتيبات ملائمة بالنسبة لمعاونة حكمه ورعيته .

٤ — إن البريطانيين قد وعدوا بتعويضه بمجرد التصديق على الشروط المتفق عليها .

وقد تمت الموافقة على شروط السلطان فى أول يونيو[١] ، وفى ٤ يونيو نشر السلطان هذا القانون ، كما نشر هذا القانون أيضاً فى الصحف البريطانية «والهندية» [٢].

مسألة تعويضات تجار الأسلحة فى مسقط :

على أثر صدور هذا القانون ، أعلن القنصل الفرنسى أنه يتعارض مع معاهدة ١٨٤٤ ورفض الاعتراف بانطباقه على الرعايا الفرنسيين . كما قدم تجار الأسلحة الفرنسيون شكوى جماعية لوزير الخارجية الفرنسى التى انحصرت إجابته فى إصدار التعليمات للقنصل الفرنسى بإبلاغ السلطان بأن فرنسا لا يمكنها الموافقة على التنظيمات الأخيرة إلا بعد تعويض التجار الفرنسيين[٣]. ويمكن القول بأن استيراد الأسلحة إلى مسقط أثناء أبريل ومايو ويونيو ١٩١٢ قد وصل إلى درجة غير عادية .

وقد أبلغ القنصل الفرنسى السلطان بهذه النقاط ، وطبقاً للتعليمات المعطاة له ، كان عليه — إذا ما وافق السلطان على تعويض الرعايا الفرنسيين — أن يبلغه أن الحكومة الفرنسية سوف توافق على التنظيمات الأخيرة رغم تعارضها مع المعاهدة[٤].

وهكذا بزغت مسألة حساسة ، وبدا — من وجهة النظر البريطانية — أنه من المرغوب فيه تلافى دفع تعويضات للتجار الفرنسيين بأى شكل . إلا أنه كان هناك اتجاه للمقاومة من جانب التجار الفرنسيين يعاونهم فى ذلك القنصل والحكومة

---

(١) Secretary of State. Telegram 1st June 1912.

نظر : B. 196, p. 32.

(٢) Viceroy. Telegram, 7th June 1912.

انظر B. 196, p. 32.

(٣) Viceroy. Telegram, 25 July 1912, 2907/12.

انظر : B. 196, p. 33.

(٤) Viceroy. Telegram, 8th August 1912.

انظر : B. 196, p. 33.

الفرنسية ، وكان لا بد من استخدام القوة لتنفيذ الترتيبات الجديدة فى أول سبتمبر وهو التاريخ المحدد لتنفيذ القانون ، ومن وجهة النظر البريطانية ، فإن أى تأجيل لهذا التاريخ قد يشير إلى الضعف ويدمر المكانة البريطانية فى مسقط وفى الخليج بصفة عامة إلا أنه أيضا بدون الوفاق مع القنصل الفرنسى وحكومته فإن تنفيذ القانون فى الموعد المحدد سوف يؤدى حتما إلى الاحتكاك مع التجار الفرنسيين ، مما قد يؤدى إلى أسوأ النتائج .

وقد يطلب السلطان تفويض بريطانيا للتعامل مع فرنسا ، إلا أن هذا الطلب غير مرغوب فيه — من وجهة النظر البريطانية — وبدا أنه من الأفضل إبلاغ الحكومة الفرنسية أنه لن تدفع تعويضات للشركات البريطانية رغم مصالحها الضخمة « منذ تنظيم مستودع الأسلحة والذخائر ، وليس هناك اعتراض على التجارة المشروعة » ، وأنه على الرعايا الفرنسيين أن يقاسوا من الخسائر لأن تجارتهم هى مع أقطار ممنوع فيها استيراد الأسلحة والذخائر[1] .

وقد اقترحت حكومة الهند أن تتضمن إجابة السلطان على القنصل الفرنسى « أن حقه الشرعى الذى لا جدال فيه فى السيادة يمنحه الأحقية فى الإشراف على تجارة الأسلحة دون منعها فى ممتلكاته ، ومما يحتم عليه ذلك علاقاته بالدول المجاورة . والتى تعد استيراد الاسلحة إليها أمراً ممنوعاً . . . ولهذا فإنه يبدو من غير المعقول أن يتوقع منه تعويض التجار الذين قد يلاقون بعض الخسائر » . كما صدرت التعليمات إلى السفير البريطانى فى باريس بأن يقدم تفسيرات لها نفس هذا المعنى[2] .

وفى غضون ذلك الوقت تعجل السلطان الحوادث ، ففى ١٦ أغسطس أبلغ

---

(١) Viceroy. Telegram, 3168/12, 14th August 1912.

انظر : B. 196, pp. 33-34.

(٢) Secretary of State, 20th August 1912.

انظر : B. 196, p. 36.

التجار الفرنسيين أنه إذا جاء سبتمبر ولم تمتثلوا للقانون فإنى سأراقب مخازنكم وأحبس كل زبائنكم ، وليست لدى الرغبة فى إثقال نفسى والرعايا البريطانيين بالأعباء من أجل مكاسب فرنسية . وقد تم تحذير السلطان بعدم إظهار أهدافه هكذا قبل اللحظة الملائمة[١] .

وبالنسبة لما سيحدث فى أول سبتمبر ، فقد تقرر أن الشحنات المستقبلة سوف تودع فى المستودع مباشرة[٢] ، كما تقرر عدم السماح بأى فترة بعد هذه المهلة . أما بالنسبة لـكميات الأسلحة الموجودة فى الوقت الراهن ، فقد أوصى السلطان بوجوب وضع حراسة حول المخازن التابعة للتجار غير الممتثلين ، وأن يرفض تماماً السماح بنقل أية أسلحة سوى الى المستودع . وتم إعطاء السلطان وعداً بالمعاونة البريطانية فى كل الأمور السابقة ، خاصة وأن المصادر طبقاً للبند الثانى يجب أن تتم بالقوة .

وقد أظهرت الحكومة الفرنسية وجهة نظرها فى مذكرة إلى السير فرنسيس بارتى السفير البريطانى فى باريس ، وكان الموقف الذى ارتكنت عليه هو أنه بمقتضى معاهدة ١٨٤٤ ، فان تجارة الأسلحة يجب أن تظل حرة تماماً فى مسقط ، وأن للرعايا الفرنسيين مطلق الحرية فى بيع وشراء الأسلحة من يريدون ، وأن لهم الحق فى التمسك بالحقوق التى خولتها لهم المعاهدة ، والمطالبة بالتعويض نتيجة لأية أضرار تصيبهم نتيجة للقانون الأخير ، وقد تصيب التجار الفرنسيين والصناعة الفرنسية ، وأكثر من ذلك فان التصريح الانجليزى الفرنسى يعطيهم الحق فى المتاجرة مباشرة مع السلطان ، إلا أنهم محافظة منهم على الصداقة مع بريطانيا مستعدون للتنازل عن هذا الحق ، ومستعدون لمناقشة أى اقتراح تقدمه بريطانيا بالنسبة للتعويضات[٣] .

---

(١) Jounard à Cambon, Doc. No. 36, 18.2.1913 (D.D.F.).

(٢) Cambon à Poincrée, Doc. No. 34, 20.12.1912 (D.D.F.).

انظر : B. 196, p. 40.

(٣) Telegram from Viceroy, 27th Dec. 1912.

انظر : I.O.L., Pol. Dep., B. 182.

وقدم القنصل الفرنسى — طبقاً لتعليمات من باريس — طلباً إلى السلطان بالتعويضات ، وكذلك الاعتراضات السابقة بالنسبة لمعارضة القانون لمعاهدة ١٨٤٤ وقد أجاب السلطان على ذلك بأنه قد نقل مسئولية التعويضات إلى الحكومة البريطانية ، وقد وافق الماجور Knox على ذلك[١] .

وفى الثامن من سبتمبر ، حدثت حادثة هامة ، فقد طلب ممثل الشركة الفرنسية Louis Dieu تسليمه ٣٣ صندوقاً من الذخيرة ، وكان معه إيصالا بالإيداع ، إلا أن المسئول فى الجمارك رفض تسليمه الصناديق ، وقد كتب القنصل الفرنسى إلى السلطان معترضاً على ذلك ، ومطالباً بتسليم صناديق الذخيرة بعد دفع الضرائب العادية طبقاً للمعاهدة التى ارتبط بها سموه وأسلافه منذ ٦٨ سنة ، والتى لا تمنع علاقاته من القوى الأخرى ولا تمس استقلال عمان . وكانت النصيحة البريطانية للسلطان هى أن يرفض تسليم الشحنة ، وأن يظهر تمسكه بقانون مستودع الأسلحة ، وأن يشير إلى أن الذى يهدد علاقاته بالقوى الأخرى واستقلاله هو الطريقة غير العادية التى يتوقع معها أن يوافق على التجارة فى بضائع خطرة ، والتى تنظم بيعها بمهارة فرنسا وبقية الدول المتحضرة[٢] .

وعندئذ أجاب القنصل الفرنسى بأن التجار الفرنسيين لن يمتثلوا لقانون مستودع الأسلحة ، وأن مسألة التعويضات يجب بحثها .

ورغم أن السلطان رفض وضع حرس حول المخازن الفرنسية ، فقد منع بيع الأسلحة منذ ذلك الحين[٣] .

والواقع أن الشركات الفرنسية التى كانت تعمل فى تجارة الأسلحة فى مسقط

---

(١) Viceroy, 3448/12, 3rd Sept. 1912.

انظر : B. 196, p. 35.

(٢) Viceroy, 3433/12, 8th Sept. 1912.

انظر : B. 196, p. 35.

(٣) Viceroy, 10th Sept. 1912.

كانت تضغط على الحكومة الفرنسية ضغطاً شديداً لكى تستمر فى ممارسة نشاطها[1]. وكانت معظم الأسلحة تصدر من ميناء جيبوتى على البحر الأحمر والخاضع للفرنسيين[2] ، ولا شك أن تأسيس مستودع الأسلحة فى سبتمبر ١٩١٢ أدى إلى انكماش حركة التجارة فى الأسلحة إلى حد كبير ، إلا أن ذلك كان سبباً فى إثارة التجار الفرنسيين والشركات الفرنسية ، وتسجل الوثائق الفرنسية الاحتجاجات المتوالية من شركة الأسلحة والصيد فى باريس لدى وزير الخارجية الفرنسية — قبل إقامة مستودع الأسلحة — حتى يتدخل لحماية حرية التجارة[3] .

ولا شك أن الحكومة الفرنسية قد أصابها قلق واضح بالنسبة لتطور الأمور ، وقد أشارت إلى أن حقوقها طبقاً للمعاهدة قد انتهكها السلطان ، وأنه إذا لم يعد الوضع الراهن Status Que فوراً فإنها مضطرة إلى إرسال طراد إلى مسقط ، وأنها ترغب فى وضع تنظيمات على أساس التعويضات ، وحتى يمكن الوصول إلى هذه الترتيبات فانه يجب إعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل صدور قانون مستودع الأسلحة[4] .

وقد صدرت التعليمات للسفير البريطانى فى باريس بالإجابة على المطالب الفرنسية بأن الحكومة البريطانية قد عزمت تماماً على معاونة السلطان فى التمسك بقانون مستودع الأسلحة لأنه لا يمس الحقوق الفرنسية طبقاً للمعاهدة ، ولكنه فقط ينظم تجارة خطيرة ، وهو حق تتمتع به كل حكومة ، كما أعربت الحكومة البريطانية

---

(١) Philip Graves, The Life of Sir Percy Cox, p. 142.

(٢) Poincrée à Combon, 29.5.1912.
(D.D.F., Doc. No 5).

انظر : د . جمال قاسم المصدر السابق ص ٣٨٢ .

(٣) D.D.F., Affaires de Mascate des Armées 1912-1914. Doc. No. 6, Yee à Poincrée, 29.5.1912.

(٤) Secretary of State's Telegram 3540/12, 12 Sept. 1912.

انظر : B. 196, p. 35.

عن ثقتها فى أنه لن تقع حوادث يكون لها تأثيرات خطيرة على العلاقات بين الدولتين(١) .

الأزمة الدبلوماسية بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية :

لقد تمسكت الحكومة البريطانية بأن أية مفاوضات مع فرنسا ستكون على أساس الموقف الراهن المرتكز على قانون مستودع الأسلحة الذى أصدره السلطان، كما أنها رأت تحويل مسألة تعويضات التجار للتحكيم . وفى ١٨ سبتمبر ١٩١٢ قام السير فرنسيس بارتى Bertie السفير البريطانى فى باريس بمناقشة ذلك الموضوع مع المسيو بوانكاريه وزير الخارجية الفرنسية . وقد أصر بارتى على ضرورة تحويل مشكلة التعويضات إلى التحكيم ، وفى انتظار ذلك فإنه يجب تجميع كل الأسلحة فى مستودع مسقط للأسلحة ، إلا أن بوانكاريه عارض فكرة التحكيم وذكر أنه من غير المقبول اللجوء إلى ذلك الحل لأن المسألة فى الواقع تتعلق بمعاهدة معقودة بين الحكومة الفرنسية وإمام مسقط ، ولم تكن الحكومة البريطانية طرفاً فيها(٢) .

وحتى يمكن تلافى أية معوقات فى سبيل الوصول إلى تسوية سلمية مع فرنسا ، رأت الحكومة البريطانية أنه من الممكن تأجيل تنفيذ قانون مستودع الأسلحة فى مسقط إلى أن يتم تحكيم سريع بشرط أن يتعهد الفرنسيون بالتوقف عن استيراد الأسلحة فى مسقط فى غضون تلك الفترة ، وأن لا يصدروا من مسقط أية أسلحة تكون هناك بالفعل ، والسماح للسلطان بمصادرة أية أسلحة تتعارض مع ما سبق ولكن على أن تسلم لفرنسا ، وتبين أن هذه المقترحات سوف تثبط من عزيمة

---

(١) Secretary of State, 14th Oct. 1912.

انظر : B. 196, p. 35.

(٢) Cambon à Poincrée, Doc. No. 26, 22.9.1912, (D.D.F.)

انظر : د . جمال قاسم ص ٣٨٤ .

السلطان إلى درجة كبيرة لما ستحققه من مكاسب للمصالح الفرنسية[١] .

ورأت حكومة الهند أنه إذا كانت هناك ضرورة لمنح امتياز مؤقت ، فإن أقصى ما يمكن عمله هو أنه يمكن منع السلطان من مصادرة الأسلحة الفرنسية إلى أن يتم التحكيم ، وإن كانت حكومة الهند توافق على مضض على هذا الاقتراح ، لأنها تحبذ أن يكون هناك تنفيذ تعسفي لقانون مستودع الأسلحة يصل إلى درجة المصادرة[٢] .

وفي ١٣ نوفمبر أوضح السير بارتي — طبقاً للتعليمات الصادرة إليه من حكومته — لوزير الخارجية الفرنسي أنه منذ صدور قانون مستودع الأسلحة لم تتم أية مصادرات للأسلحة ، وأنه لن تتم أية مصادرات إلى أن يتم التحكيم السريع . إلا أن الحكومة الفرنسية رأت أنه إلى أن يتم الوصول إلى التحكيم بأسلوب سليم ، فإن الأوضاع يجب أن تعود إلى ما كانت عليه قبل صدور قانون مستودع الأسلحة ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الحكومة الفرنسية لاتستطيع الالتزام بالتحكيم دون النظر إلى الاعتبارات الأخرى[٣] .

وكانت فرنسا قد هددت في سبتمبر بأنه إذا لم تعاد الأوضاع السابقة قبل صدور قانون مستودع الأسلحة فإنها سوف ترسل طراداً إلى مسقط لحماية حقوق رعاياها ، ولقد رأت الحكومة البريطانية أنه من الضروري تدعيم قوتها البحرية في مسقط لمواجهة أية حوادث[٤] . وقد أبرق الأدميرال Bethell في ١٧ سبتمبر أن هناك أربع

---

(١) Secretary of State's Telegram, 31 Oct. 1912, 4200/12.

انظر : B. 196, p. 36.

(٢) Viceroy, 11th Nov. 1912.

انظر : B. 196, p. 36.

(٣) Telegram from Secretary of State, 15 Nov. 1912.

انظر : B. 196, p. 37.

(٤) Secretary of State, 12th Sept. 1912.

انظر : B. 196, p. 38.

سفن حربية مرابطة فى الخليج فى الوقت الحالى ، وأنه فى ٣٠ سبتمبر سيكون هو نفسه فى مسقط بسفينته الحربية ، وبالإضافة إلى ذلك ، فإن كل أسطول الهند — إذا مادعت الضرورة يمكنه أن يتمركز فى مسقط قبل وصول السفينة الفرنسية[١] .

ورأت الحكومة البريطانية أنه من الأصوب أن تربط السفن الحربية الأربعة فى مسقط فى وقت واحد ، وقد تم تنفيذ ذلك فى ٢٥ سبتمبر . وفى ٣٠ سبتمبر وصل القائد العام هناك أيضاً على السفينة High Flyer ومعه السفن الحربية Sphinx, Espiegle Pesseus, Pelorus,[٢] .

وقامت المخابرات الحربية البريطانية برصد تحركات الطراد الفرنسى Montcalm الذى قررت الحكومة الفرنسية إرساله إلى مسقط . كما اتخذت كل الاحتياطات لاستقباله بالقوة المناسبة فى مسقط إذا ماوصل إليها . إلا أنه من وجهة النظر الأخرى فإن هذا التركيز للقوة البحرية البريطانية فى مسقط — على الرغم من مزاياه السياسية — فإنه شل من حركة ضبط الأمن — من وجهة النظر البريطانية — فى الخليج . وقد جاءت المعلومات بالفعل فى نهاية أكتوبر وأوائل نوفمبر بأن جماعات تهريب الأسلحة عندما علمت بأن السفن الحربية البريطانية قد تمركزت فى مسقط ، وأن قدرتها على حراسة الخليج قد توقفت مؤقتاً ، فإن جماعات التهريب هذه انتهزت الفرصة فوراً وأمعنت فى تهريب الأسلحة ، مما فتح مجالا واسعاً لترويج التجارة فى الأسلحة الفرنسية المصدرة . وقد أشار السير كوكس إلى أنه من الضرورى تخفيف هذا التمركز الشديد للسفن البريطانية فى مسقط وذلك لمواجهة ذلك الانتشار الواسع فى تهريب الأسلحة[٣] .

---

(١) Telegram from Viceroy, 20th Sept. 1912.

انظر : B. 196, p. 38.

(٢) Secretary of State, 22nd Sept. 1912, 3654/12.

انظر : B. 196, p. 38.

(٣) I.O.L., Pol. Dep. Secret. Memo., B 196, pp. 38-39.
I.O., 15 Feb. 1911.

وفى ١٣ ديسمبر علم أن الطراد الفرنسى Montcalm لن يصل إلى مسقط ، ومن ثم أرسلت التعليمات لتخفيف الأسطول الرابط فى مسقط .

وعندما بدا أن هناك بعض الأمل فى الوصول إلى بعض الترتيبات مع الحكومة الفرنسية ، وأن هذه الترتيبات قد تؤدى إلى الخطر التام لتصدير واستيراد الأسلحة من وإلى مسقط ، فإنه كان من المسلم به تعويض التجار[١] . ولاشك أن قانون مستودع الأسلحة هو من الناحية الرسمية إجراء داخلى فى مسقط ، وهو بهذا الشكل إجراء من قبل السلطان ، وأى تعويض لتجار الأسلحة عن خسائرهم الناتجة عن تنفيذ هذا القانون ينبغى أن يكون من قبل السلطان ، إلا أنه كان من المستحيل على السلطان — لضيق ذات يده — دفع هذه التعويضات . وكان من المرغوب فيه — من وجهة النظر البريطانية — تحاشى مبدأ تعويض التجار إذا كان ذلك ميسوراً لأن تكاليف التعويضات سوف تكون فعلا على نفقة الحكومة البريطانية ، وعلى نفقة السلطان من الناحية الرسمية[٢] .

ومنذ صدور قانون مستودع الأسلحة ، أصر القنصل الفرنسى على ضرورة تعويض التجار الفرنسيين ، وفى الحقيقة كانت تصله تعليمات بأن فرنسا سوف تسحب معارضتها للقانون المذكور إذا ما سمح بمبدأ التعويض[٣] .

وقد رأت حكومة الهند أن شراء كميات الأسلحة الموجودة فى مسقط هو الشكل الوحيد المقبول للتعويض ، وكانت الشركات الفرنسية وحدها هى التى يمكن وضعها فى الاعتبار ، وأهمها شركة Goguyer et cit, Louis Dieu هذا بالإضافة إلى شركتين أمريكيتين يمكن اعتبارهما تحت الحماية الفرنسية .

وقد بحث السير كوكس هذه المسألة ؛ وقدر أنه كانت توجد فى مسقط فى

---

(١) I.O.L. Pol. Dep., B. 182, Arms Traffic at Muscat, B. 196, p. 38.

(٢) Telegram from Viceroy, 1st Dec. 1912, 4619/12.

(٣) I.O.L. Pol. Dep., B. 182.

١٤ ديسمبر ١٢٫٠٠٠ بندقية و ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ طلقة ، وهذه الأسلحة والذخائر هى حجم التعويض المطلوب . وعلى أساس التقييم المتخذ فى مارس ١٩١١ فإن ثمن البندقية هو ٦٠ ريالا ، وكذلك ٦٠ ريالا لكل ألف طلقة ، وبذا فإن مجموع التعويض سوف يصل إلى ٨٤٠٫٠٠٠ ريال ، وكان من رأى كوكس أن هذا التعويض ينطبق فقط على الأسلحة الموجودة بالفعل فى مسقط ، وأن أية أسلحة أخرى خارج مسقط فينبغى بالضرورة أن تستثنى من هذا التعويض .

كما أضاف كوكس أنه إذا « ما وافقنا على شراء شحنات الأسلحة الفرنسية التى لم ترسل إلى المستودع تحدياً للقانون ، فإنه من الأصوب أيضاً شراء شحنات الأسلحة الخاصة بالتجار غير الفرنسيين ، طالما أنها قد أودعت فى المستودع طواعية وإذعاناً للقانون » . وقد وافقت حكومة الهند على هذه المقترحات ، ولكنها أعربت عن اعتقادها بوجوب اشتراك حكومتى لندن والهند فى دفع قيمة التعويض مناصفة[1].

وفى ٢٠ ديسمبر إقترح السيد إدوارد جراى الحلول الآتية بقصد تسوية ذلك الموضوع بطريقة ودية :

أولا : تقبل الحكومة البريطانية أن تتنازل عن حقوقها فى المساواة التامة بالنسبة لمعاملة البضائع الإنجليزية والفرنسية التى تمر فى موانىء الجزائر ومراكش طبقاً للمادة الرابعة من الإتفاق الودى لسنة ١٩٠٤ .

ثانياً : تعترف الحكومة الفرنسية من جانبها بشرعية قانون السلطان (قانون مستودع الأسلحة) وتتعهد بالامتناع عن وضع العراقيل فى سبيل تنفيذه .

ثالثاً : تتعهد الحكومة الفرنسية بألا تنشر لمدة خمسة عشر عاماً تسوية ١٨٩٧ الخاصة بواردات بريطانيا من القطن فى تونس والتى تنص على أن الحد الأقصى للضريبة الجمركية على هذه الواردات لا يتجاوز ٥٪[2] .

---

(١) Telegram from Viceroy, 27th Dec. 1912, B. 196, p. 40.

(٢) Cambon à Poincrée, Doc. No. 34, 20/12/1912 (D.D.F.).

انظر د . جمال قاسم المصدر السابق ص ٣٨٤ .

على أن الحكومة الفرنسية عارضت هذه المقترحات وذكرت أنها تجرها إلى التنازل عن حق مقرر لها مقابل الحصول على امتيازين ، ولكنه فى الحقيقة امتياز واحد ، وأن الفائدة الأخيرة ستعود فى النهاية على بريطانيا ،إذ أن التنازل عن المساواة التامة فى موانىء الجزائر ومراكش لابد أن ينطبق أيضاً على موانىء مصر . وعلاوة على ذلك فإن الحكومة الفرنسية ستفقد تجارة رابحة فى مسقط ، ولذلك فإنها تقترح العودة إلى فكرة التحكيم ، ولابد فى هذه الحالة من إعطاء تعويض مناسب(١).

والواقع أنه لم يتقرر حل نهائى لتلك المشكلة وإن كان من المعروف أن قيام الحرب العالمية الأولى قد أعطى للحكومة البريطانية الفرصة لتقوية نفوذها فى منطقة الخليج العربى وأن تتخلص من جميع منافسيها بطريقة فعالة .

---

(١) Jounard à Cambon Doc. No. 36, 18/2/1913 (D.D.F.)

انظر د . جمال قاسم ص ٣٨٥ .

مصادر البحث

أولا ـ وثائق غير منشورة :

India Office Library Political and Secret Library Political Department :

— B. 14
Memorandum Zanzibar Agency and Consulate Expenses (1878).

— B. 119
Memorandum by Sir Lee-Warner on the lease to France of a Coaling Station in Muscat (1900).

— B. 129
Memorandum Muscat (1901).

— B. 134
Memorandum Grant of French Flags to Muscat Dhows (1900).

— B. 135
Memo. on the use of the French Flag by Subjects of the Sultan of Muscat (1900).

— B. 151
Memo. British Interests on the coast of Arabia, Koweit, Bahrein and Katar (1905).

— B. 182
Arms Traffic at Muscat (1911).

— B. 196
Secret Memo. Arms Traffic in the Persian Gulf (1913).

ثانياً ـ وثائق منشورة :

— Aitchison C.u.
A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries, vol. XI, Calcutta 1892.

— British Admirality
A Handbook of Arabia, vol. I General.

ثالثاً ـ مراجع فارسية :

— همدانى (عبد الله رازى)!
أزمنة باستانى تارسال ١٣١٦ شمس هجرى (بك نقشة) إيران قديم
٩٤ كرواور — طهران ١٣١٧ هـ — ش .

رابعاً ـ مراجع أوربية :

ذكرت المراجع العربية القليلة فى حينها

— Berreby (J.J.)
Le Golfe Persique (Mer de Légende — Réservoir de Pétrole), Paris, 1959.

— Coke (Richard)
The Heart of the Middle East, London, 1925.

— Graves (Philip)
The Life of Sir Percy Cox, London, 1951.

— Harrison (Paul)
The Arab at Home, New York, 1924.

— Philby (J.B.)
Arabia, London, 1950.

— Whigham (N.J.)
The Persian Problem, London, 1903.

نقد الكتب



قراءات فى الكتب العربية

— William R. Polk, The United States and the Arab World, (Harvard University Press, 1965).

— Waldemar J. Gallman, Iraq under General Nuri, (Baltimore, Maryland, 1963).

— Dana Adams Schmidt, Yemen : the UnKnown War. (London, 1968).

— Robert L. Tignor, Modernization and British Colonial Rule in Egypt, 1882-1914. (Princeton University Press, 1966).

— Emine Foat Tugay, Three Centuries : Family Chronicles of Turkey and Egypt. (Oxford University Press, 1963).

يثير كتاب وليم بولك الاهتمام بحكم أن مؤلفه يشترك منذ عام ١٩٦١ فى عضوية مجلس التخطيط السياسى التابع لوزارة الخارجية الأمريكية ، وأنه يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة — بالإضافة إلى معرفته الوثيقة بالعالم العربى نتيجة للجولات التى قام بها فى شتى ربوع الشرق الأوسط وشمالى أفريقيا . وقبل أن يلتحق بولك بوزارة الخارجية الأمريكية كان يعمل فى هارفارد عضواً بمركز دراسات الشرق الأوسط . كما كان يشغل فى هذه الجامعة وظيفة أستاذ مساعد للغات الشرق الأدنى وتاريخه .

ويبدأ المؤلف كتابه بتقديم صورة عن العرب فى بلادهم ، ويخلص فى النهاية إلى تحليل واضح صريح لصالح الولايات المتحدة فى العالم العربى وتصور لما ستكون عليه العلاقات العربية — الأمريكية فى المستقبل . والكتاب فى جوهره استعراض عام لتاريخ العرب ، يهدف منه المؤلف إلى أن يستشف من الماضى العوامل التى تشكل الأحداث المعاصرة وهى القانون الاجتماعى والدين وذكريات عصر ذهبى والهوة السحيقة بين المجتمع والدولة .

ويهتم المؤلف بالمؤثرات الغربيـــة فى العالم العربى ، ويرى أنها نقلت العرب

من العصور الوسطى إلى العصر الحديث . كما ينتقل إلى الحرب العالمية الأولى التى أدت إلى الاستعمار الأوربى للشرق العربى وخلق المشكلة الفلسطينية . ويخلص من ذلك كله إلى تكوين صورة عن الإنسان العربى الحديث من حيث ثورته الاجتماعية ونمو عناصر جديدة فى المجتمع وحدوث تغيرات اقتصادية ، وتطور المفاهيم الخاصة بمكانة العرب فى العالم . وفى النهاية يناقش المؤلف العلاقات بين العرب والولايات المتحدة ، ويحلل المصالح الأمريكية ، ويقدم بعض المقترحات الخاصة بالمستقبل القريب.

وهو فى تحليله للسياسة الأمريكية إزاء العالم العربى ينفى أن الولايات المتحدة تهدف إلى تجميد الأوضاع القائمة فى الوطن العربى برغم ما يشهده العالم من تغيير ، ويرى أن المصالح الأمريكية فى الوطن العربى تتضمن النقاط الآتية :

أولا — الحيلولة دون نشوب صراع قد يؤدى تصاعده إلى خلق موقف خطير بالنسبة إلى الولايات المتحدة . ويعتقد المؤلف أن الهدف الأقصى للولايات المتحدة هو إيجاد سلام عادل ودائم فى المنطقة .

ثانياً — الحيلولة دون وقوع المنطقة تحت سيطرة دولة كبرى معادية للولايات المتحدة . وينفى المؤلف ما يتردد أحياناً من أن الولايات المتحدة تهدف إلى فرض سيطرتها على العالم العربى .

ثالثاً — المحافظة على حق الولايات المتحدة وحلفائها فى المرور الجوى والبحرى عبر المنطقة التى تشغل موقعاً جغرافياً هاماً بين أفريقيا وآسيا وأوروبا لا يوازيه استعمال طريق رأس الرجاء الصالح .

رابعاً — استمرار تدفق بترول الشرق الأوسط إلى أسواق الغرب . ورغم ذلك فإن المؤلف يرى أن بترول الشرق الأوسط قد قلت أهميته عما كانت عليه فى أواسط الخمسينات .

خامساً — تسعى الولايات المتحدة إلى أن تضمن لرعاياها الدخول إلى أسواق الشرق الأوسط ، كما تسعى إلى إقرار الأمن فى المنطقة .

سادساً — إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية بما فى ذلك توطين اللاجئين .

سابعاً — تشجيع الاهتمام بعشا كل التنمية والتطوير الاجتماعى ، وخفض التسلح والتقليل من الإنفاق على المؤسسات العسكرية .

ثامناً — نمو النظم الديمقراطية ، وجعل الغرب موضعاً للحب والتقدير ، وحفز الناس على تفهم أسلوب الحياة الأمريكى والتعاطف معه .

ويختتم المؤلف كتابه بالإشارة إلى خطورة تجدد الحرب بين العرب وإسرائيل[1] وتحبيذ إيجاد تسوية للمشكلة الفلسطينية . فهو يرى أن نشوب الحرب فى الشرق الأوسط ، حتى وإن لم يهدد السلام العالمى ، من شأنه أن يؤثر فى برامج التنمية التى تقوم عليها آمال المستقبل : إذ أن فشل مشروعات التنمية وضغط تزايد السكان من شأنهما أن يؤديا إلى قيام حكومات أكثر راديكالية تسعى جاهدة إلى ضغط النفقات اللازمة لمثل هذه المشروعات . وحينئذ تتعرض المصالح الأمريكية للخطر : فمشروعات التنمية كفيلة ، إذا ما نجحت ، بتوسيع قاعدة الاشتراك فى الشئون العامة وإيجاد ما يشبه الحكومة التمثيلية فى مجتمعات لها مصلحة مقررة فى السلام .

* * *

أما كتاب جولمان عن العراق تحت حكم نورى السعيد (١٩٥٤ — ١٩٥٨) فقد كتبه مؤلفه بعد أن تقاعد عن الخدمة فى السلك الدبلوماسى . وهو يستند إلى ملحوظاته وذكرياته الشخصية خلال السنوات الأربع التى كان فيها سفيراً للولايات المتحدة فى العراق خلال وزارة نورى السعيد الأخيرة ، وعلى المحادثات التى أجراها مع نورى السعيد وأصدقائه من العراقيين والأمريكان .

ويتناول الكتاب نشأة نورى السعيد ، ويهتم إهتماماً خاصاً بحلف بغداد ، ويعرض لسياسة نورى السعيد الداخلية وموقفه من القومية العربية وإسرائيل ، والمصالح البريطانية والأمريكية فى العراق حتى ثورة ١٤ يوليو (تموز) ١٩٥٨ . وتتضح هذه المصالح من التوجيهات التى أصدرها وزير الخارجية الأمريكية للمؤلف لدى تعيينه سفيراً فى بغداد : فقد نبهه إلى ضرورة اعتبار العراق بلداً له أهميته الحيوية

---

(١) صدر الكتاب قبل نشوب حرب الأيام الستة فى ٥ يونيه (حزيران) ١٩٦٧ .

فى الشرق الأوسط ، بحيث أن دخوله فى سلسلة المحالفات الغربية إلى جانب تركيا وإيران وباكستان من شأنه أن يشجع بلداناً عربية أخرى على دخول الحلف .

والكتاب فى مجمله نموذج للتقدير الذى حظى به نورى السعيد فى الدوائر الغربية . ولهذا فإن المؤلف لا يرى إلا جانباً واحداً من شخصية نورى وحكمه ، هو جانب التقدير على طول الخط دون محاولة لتفهم وجهات نظر الوطنيين العراقيين — مما جعل ثورة ١٤ تموز تشكل ضربة مفاجئة وعنيفة للنفوذ الغربى فى العالم الغربى — إذ أن أصدقاء الغرب فى العراق ، وعلى رأسهم نورى السعيد والملك فيصل الثانى والأمير عبد الإله الوصى على العرش ، قد قتلوا قتلة شنيعة فى خضم الثورة الجارف الذى برزت خلاله الاتجاهات القومية والعداء للاستعمار الغربى .

ونورى السعيد إنما هو نمط من الساسة العرب القدامى الذين تحكموا فى مصائر الوطن العربى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . ومن هؤلاء الساسة من كان فى البداية متمشياً مع الخط القومى ثم انحاز بالتدريج انحيازاً صريحاً للغرب دون إدراك حقيقى لما جد على الجماهير من اتجاهات وتطلعات ، ومن ثم ازدراؤهم للرأى العام ومحاولتهم كبته . وكان نورى السعيد من هؤلاء ، كما كان مصيره دليلا على أن المدرسة القديمة من الساسة العرب قد انتهت إلى غير رجعة وعلى أن المصارحة بصداقة الغرب أصبحت تصدم الجماهير التى كرهت الاستعمار الغربى ودعاته من الوطنيين — مما جعل مؤلفاً غربياً له وزنه — هو البروفسور برنارد لويس [١] ، شديد التشاؤم بشأن العلاقات العربية — الغربية ، وبشأن مصير أصدقاء الغرب فى الشرق الأوسط .

* * *

أما دانا آدم سمث الذى كتب عن حرب اليمن المعاصرة فقد بدأ نشاطه فى الشرق الأوسط فى عام ١٩٤٤ حين أصبح مراسلا لوكالة اليونايتدبرس ثم لجريدة النيويورك تايمز . وبحكم عمله أمكنه فى فترة قصيرة أن يتعرف على كثير من بلدان الشرق الأوسط ، حيث أولع بوجه خاص بأكثر شعوبه غموضاً ، على اعتبار أن لمستقبلها دلالته الخاصة

---

(١) The Middle East of the West.

(٢) ينهى المؤلف عرضه باتفاقية الخرطوم (٣١ أغسطس ١٩٦٧) التى نصت على جلاء القوات المصرية عن اليمن .

بالنسبة إلى مصير هذا الجزء من العالم . ومن هذه الزاوية نجده يمضى فى عام ١٩٦٢ بضعة أشهر فى التنقل فى شمالى العراق للتعرف على أحوال الأكراد ، وكانت نتيجة هذه الرحلة دراسته عن الأكراد تحت عنوان : "Journey among brave men" والكتاب الذى نعرض له يستند إلى المقابلات التى أجراها المؤلف مع أمراء أسرة حميد الدين الذين تولوا قيادة القوات اليمنية الملكية التى تصدت للقوات المصرية وحلفائها الجمهوريين . ورغم محاولة المؤلف موازنة وجهات النظر الإمامية بالزيارات التى قام بها للجانب الجمهورى ، إلا أن الكتاب لا يخلو من التحيز لوجهة النظر الملكية التى تستند إلى اعتبارات عفى عليها الزمن .

على أن الكتاب لا يتعرض لحرب اليمن دون تمهيد تاريخى . فهو يعرض لتاريخ اليمن منذ أقدم العصور ، وهو مفيد بوجه خاص فيما يتعلق بالدور الذى لعبته بريطانيا فى اليمن . وبعد أن دخلت إلى المسرح قوى جديدة هى مصر والمملكة العربية السعودية والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين الشعبية ، كانت لجلاء بريطانيا عن الجنوب اليمنى آثار هامة بالنسبة إلى سياسة واستراتيجية كل من المعسكرين الشرقى والغربى . ويحاول المؤلف أن يستشف ما قد يتمخض عنه هذا التطور بالنسبة إلى تاريخ اليمن والجنوب العربى .

وبالإضافة إلى كون الكتاب عرضاً من الطراز الأول ، فإنه يستمد أهميته من أن الكاتب بنى عرضه على الاحتكاك المباشر بالأحداث — ومن ثم نجده يلقى أضواء عدة على موضوع لم ينجل كثير من جوانبه ، بحيث أنه يوفر أساساً تاريخياً له وزنه ، وذلك برغم تحامله الواضح على الوجود المصرى فى اليمن من زاوية المصالح الغربية فى الجنوب اليمنى وفى الخليج العربى وفى الشرق الأوسط بوجه عام .

• • •

ويتناول كتاب روبرت تجنور أثر الإدارة البريطانية (١٨٨٢ – ١٩١٤) فى المجتمع المصرى ، ويعلق أهمية خاصة على الحكومة باعتبارها أداة للتغيير . والفكرة الأساسية التى يبنى عليها المؤلف كتابه هى أن الإدارة البريطانية قد أدخلت إلى مصر المؤثرات الحديثة ، وإن يكن يرى أنها لم تكن تميل إلى طبع المجتمع المصرى بأسره بالطابع الحديث : إذ العكس هو الصحيح فى كثير من مجالات التطور المصرى

الحديث . وقد حاول المؤلف أن يبين المجالات التى ساعدت فيها الإدارة البريطانية على إدخال المؤثرات الحديثة ، وتلك التى لم تصبها بكثير من التغيير ، والمجالات التى اعترضت فيها طريق التطور . والكتاب يعتمد على كثير من الأوراق الخاصة : أوراق جورست وتوماس رسل وهارى بويل وسولسبرى ومفنر ودابرنون وونجت وكرومر وجرانفل وادوارد جراى .

وتوفر مصر فى نظر المؤلف نموذجاً مثالياً لدراسة الاحتكاك الثقافى والتغيير اللذين طرآ فى ظل الحكم الاستعمارى ، وذلك بفضل ماتركه المستعمرون والمصريون على حد سواء من مادة تساعد على البحث التاريخى وعلى مقارنة أحوال مصر قبل الاحتلال البريطانى بما جد على البلاد بعد عام ١٨٨٢ . هذا الى التماثل الكبير الذى يتصف به التاريخ المصرى بوجه عام ، بحيث يسهل تتبع تطور المجتمع بقطاعاته المختلفة .

ويحاول المؤلف من ثنايا كتابه أن يدحض النظرية الماركسية الخاصة بالاستعمار ، من حيث أن هدفه الوحيد هو استثمار موارد المستعمرات . فهو يذهب إلى أن الحكومة البريطانية قررت احتلال مصر بسبب موقعها الجغرافى وحده لا جرياً وراء دوافع اقتصادية ، وهو يدلل على ذلك بتقرير دفرن المشهور الذى يعتبر مصر مورداً للمواد الخام أو سوقاً للمنتجات الخام أو سوقاً للمنتجات الأوربية أو لرأس المال الأوربى ، بل اعتبرها منطقة هامة بالنسبة إلى الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية — ومن ثم اهتمام البريطانيين بالمحافظة على النظام ومنع نشوب القلاقل مما انعكس فى كثير من أوجه النشاط الذى شهدته مصر فى ظل الاحتلال البريطانى كالتعليم والجيش والحركة الوطنية والإصلاح الاجتماعى وتضحيتهم ببرامج الإصلاح على مدى واسع رغبة منها فى المحافظة على النظام فى البلاد . كما أن المؤلف يدعم وجهة نظره هذه بالإشارة إلى أن كرومر لم يساند مصالح رجال فى مصر ، ومنهم بيت بيرنج الذين يمتو بصلة القرابة إلى كرومر ذاته .

وينهى المؤلف كتابه بتعميمين أساسيين فيما يتعلق بأوضاع مصر فى عام ١٩١٤ .

(أولهما) أن المؤثرات البريطانية فى مصر كانت تتجه إلى تدعيم اتجاهات أنماط التطور القائمة ، دون أن يعمد البريطانيون إلى محاولة إجراء تغيير أسس التطور التى بدأت فى مصر فى القرن التاسع عشر ، وإن يكونوا قد واصلوا إجراء تغييرات فى مجالات الرى وتصدير المحصولات النقدية وإصلاح الإدارة .

(ثانيهما) أن نظم مصر لم تكن تنمو بصورة متماثلة ومنسجمة بحكم أن البريطانيين كانت تدفعهم مصالحهم الخاصة إلى تضييق التغيير فى مجالات معينة ، وحفز نموها فى مجالات أخرى . ويعزو المؤلف ذلك إلى طبيعة الاحتلال المؤقتة فى البداية وتبعية مصر للدولة العثمانية ووجود الامتيازات والجاليات الأجنبية وتبعية الإدارة البريطانية فى مصر لوزارة الخارجية لا لوزارة المستعمرات وعدم إيمان الانجليز الموجودين فى مصر بعالمية المثل العليا والنظم الغربية . فكثيرون منهم كانوا شديدى التشاؤم إزاء إمكانيات التطور فى داخل المجتمع المصرى ، متأثرين فى ذلك بقوة المجتمع التقليدى ومقاومته للتغيير وعدم قدرته على استيعاب وتطوير المؤثرت الحديثة فى نطاق القوالب القديمة . فلقد صرح الموظفون البريطانيون فى مناسبات عدة بأنهم يشعرون بإمكان استمتاع مصر بالرخاء الاقتصادى ، ولكن فى نطاق النظم السياسية والدينية التقليدية . كما أنهم اعتقدوا أن المؤثرات الغربية ستقتصر فى جوهرها على مستويات مرتفعة من الحياة وعلى قسط من الاستقرار السياسى ، وأن النظم السياسية الغربية وقيم الغرب القائمة على الفردية والاعتماد النفس ستزول بزوال الاحتلال البريطانى . وأخيراً فإنهم توقعوا استمرار السيطرة البريطانية على مصر عدة قرون ، ولهذا اعتقدوا أن بريطانيا ستكون لديها فرص أوسع لإجراء التغييرات اللازمة ، خاصة وأنهم لم يأخذوا الحركة الوطنية مأخذاً جدياً على اعتقاد أنها قاصرة على فئة قليلة من الديماجوجيين الساخطين .

ومجمل القول فإن هذا الكتاب جدير باهتمام المشتغلين بتاريخ مصر الحديث .

* * *

ونختتم عرضنا هذا بكتاب أمينة طوغاى الذى سجلت فيه حياتها فى مصر وتركيا وأوروبا . وعرضت فيه لأسرتها فى مصر وتركيا فهى حفيدة الخديو إسماعيل والغازى أحمد مختار باشا — وقد أتاحت لها قرابتها من الأسرة المالكة المصرية فرصة لمعايشة الأرستقراطية التركية — المصرية والاطلاع على دقائق حياتها الداخلية خاصة وأن جدها كان يشغل مناصب هامة وقضى بعض الوقت فى مصر بصفته قوميسيراً عثمانياً فى أوائل فترة الاحتلال البريطانى ، وأن والدها (محمود مختار باشا) قد شغل وظائف هامة فى الجيش التركى . وأن زوجها عمل بالسلك الدبلوماسى التركى .

وترجع أهمية الكتاب إلى أنه يتناول قطاعاً من التاريخ التركى — المصرى لم يحظ بالاهتمام والدراسة حتى الوقت الحاضر فهو سجل لحياة الطبقات العليا فى الإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بحكم أن المؤلفة قد عاصرت كثيراً من العادات التركية « الراقية » التى أصبحت فى ذمة التاريخ بفعل الإصلاحات والتغييرات التى قام بها كمال أتاتورك والتى استهدفت طبع تركيا بالطابع العصرى على النمط الأوربى .

وفى ثنايا عرض المؤلفة لحياتها ولتاريخ أسرتها نجدها — كامرأة — تهتم بالطعام والملبس وأدوات الزينة ، وتستطرد فى سرد الحكايات و « الحواديت » وتستفيض فى وصف الحياة الداخلية للأرستقراطية التركية — المصرية والأفراح الخاصة بأبناء وبنات الخديو اسماعيل (المعروفة باسم أفراح الأنجال) .

ولما كانت الأرستقراطية التركية فى مصر على صلة وثيقة بالحياة فى العاصمة التركية حتى بداية الحرب العالمية الأولى . فإن اللغة التركية كانت لغة التخاطب لدى أفراد هذه الأراستقراطية وفى دوائر البلاط . إلى أن تغيرت الأوضاع بعد أن تزوج الملك فؤاد نازلى صبرى التى لم تكن متحمسة لإتقان اللغة التركية واستعمالها فى التخاطب ، مما دعا بعض أفراد أسرة محمد على الى التصريح — لدى وفاة الملك فؤاد — بأن « التقاليد القديمة » قد انتهت الى غير رجعة .

وتزيل المؤلفة كتابها بملحق عن أوضاع « العبيد » حاولت فيه أن تنفى

الاتهام الأوربي للمجتمعات الإسلامية فيما يتعلق بأوضاع الرقيق - فهؤلاء العبيد لم يكونوا من البؤس بالشكل الذى يتصوره المرء من مفهوم هذه الكلمة . بل إنهم كانوا يشكلون قطاعاً ملحقاً بالطبقة الأرستقراطية وله كيانه الخاص الذى لا ينزلق إلى مستوى العبودية بمعناها الحرفى بدليل أن كثيراً من الجوارى قد تزوجن بأفراد من علية القوم .

ورغم أن التفاصيل والذكريات الشخصية والاهتمام بالشئون النسائية تستوعب حيزاً كبيراً من الكتاب ؛ الا أن المؤلفة قد وفقت فى أن تجعل من حياتها الخاصة محوراً لوصف أوضاع قطاع من التاريخ التركى - المصرى لم يحظ بكثير من العناية وهو أوضاع الأسرة وعاداتها وتقاليدها .

دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
أستاذ التاريخ الحديث
بكلية الآداب — جامعة عين شمس

BRITISH ATTITUDES TOWARDS THE MAHDIST REVOLUTION

1881—1885

By

ABBAS IBRAHIM MUHAMMAD ALI
Khartoum — University

The outbreak and success of the Mahdist Revolution, which, between 1881 and 1885, overthrew the Ottoman administration in the Sudan and established an indigenous religious state, became the subject of growing concern and controversy in contemporary Britain. This controversy about the revolution produced conflicting ideas and judgments. This essay attempts to analyse the dominant contemporary British ideas about the revolution, together with some of the prejudices and calculations that gave birth to and fostered these ideas.

Until the forces of the Egyptian Government under the British General, Hicks Pasha, were annihilated at Shaykan, in the Western Sudan, on the 5th of November, 1883 by the Mahdist forces, the Mahdist Revolution had attracted little attention in both public and official quarters in Britain. Up to that time Britain had no direct interest in the Sudan. However, by November 1883 British military control over Egypt had been established; and Britain, was, therefore, committed to defend Egypt proper and the Red Sea ports against any foreign intervention. Also, Hicks was an Englishman, and, although he was employed by the Khedive of Egypt, his defeat and murder was considered, by many British individuals and groups, to be an injury to the British pride and prestige and must, therefore, be avenged.

As a result of these fears and sentiments a dialogue ensued as to how should Britain deal with the Mahdist Revolution. Out of this discussion there emerged three possible lines of policy. The first was that of containing the Mahdist Revolution south of Wadi Halfa in the north and east of the Red Sea ports in the east. This was the policy proposed by

the Prime Minister, Mr. Gladstone, and the majority of Liberal members of Parliament who had followed him. The second policy was that adopted by the Tory Opposition and the Liberal Imperialists. They argued in favour of confining the Mahdist Revolution to the Western Sudan and checking its advance in that part of the Sudan east of the White Nile. The third policy was that maintained by the Radicals. They defended the revolution and opposed any military attempt to crush or confine it.

It is necessary to keep in mind these three opposed lines of policy and the political group or groups that advocated every one of them, because, as we are going to see, every political group had chosen to propagate and defend the idea or idea that might support and further the policy they had taken.

Any contemporary discussion on the Mahdist Revolution had always started with an attempt to discover the causes that led to its outbreak. This will be clear to anybody who examines contemporary British literature on the revolution.

One idea, which was almost universally accepted, asserted that the revolution was brought about mainly by the atrocious misgovernment of the Ottoman rule in the Sudan. The idea loomed largely in all contemporary writings on the revolution. It is dominant in Lieut. Colonel Stewart's report. (1) The general impression given by this report was that the revolt was due in the first place to the venality of the Ottoman officials and their oppression of the indigenous proples. (2) Lord Dufferin came to the same conclusion. (3 His report argued that the "disturbances" were to be attributed mainly to the misgovernment and cruel exactions of the local Ottoman authorities in the Sudan; and concluded that

(1) Lieut. Colonel Stewart was sent to the Sudan on an expedition of enquiry in December 1882. He stayed in the Sudan for about three months during which he was able to collect some information relating to the conditions in the Sudan.

(2) *Egypt No. 19* (1883) No. 3 Malet to Granville, 20 Jan. 1883 enclosure No. 1; also *The Times* 24 Nov., 1883.

(3) Lord Dufferin was on a special mission to Egypt in the period Nov. 1882 to Feb. 1883; but he took advantage of his stay in Egypt to gather some information on the Sudan.

the Mahdi's chief strength was derived "from the despair and misery of the native population." (4).

Certain other individuals, who were considered to be the best living authorities on the Sudan, were of the same opinion as that of Lord Dufferin and Lieut. Colonel Stewart. Sir Samuel Baker had often asserted that the "rebellion" was brought about by the maladministration of the Sudan by corrupt and dishonest governors. (5) *The Times* correspondent in the Sudan, Frank Power, was convinced that it was the heavy taxation and the corruption in the administration that caused the "rebellion". (6) General Charles Gordon took the view that the "rising" was due to nothing but the rotten character of the Ottoman rule. (7).

The view was taken up by nearly every paper and journal that discussed the revolution. It was also current in Parliauentary circles. It was, perhaps, the only point on which both the Government and Opposition concurred. (8).

Recent historical research on the period of the revolution has shown that the corrupt and unjust Ottoman administration was one cause which had favoured the outbreak of the revolution. But, modern historians do not accept the view that it was the only or the principal cause, because to accept this idea is to deny or belittle other important contributory causes. (9).

---

(4) *Egypt No. 19* (1883) No. 39 Dufferin to Granville 2 April 1883.

(5) *The Times*, 27 Nov., 1883; also, Samuel White Baker, «Egypt's Proper Frontier», *The Nineteenth Century*, No. LXXXIX (July 1884), pp. 27-46.

(6) Frank Power, *Letters from Khartoum*, (London, 1885), p. 91.

(7) Pall *Mall Gazetle*, 8 Jan. 1884; also, A. Egmont Hake, *The Journals of Najor-Gen. C.G. Gordon, C.B. at Khartoum*, (London, 1885).

(8) For example see *Hansard, 3rd ser* CCLXXXIV, cols. 570-759, 12 Feb. 1884.

(9) P.M. Holt, The Mahdist State in the Sudan, 1881-1898, (Oxford, 1958), pp. 25-36; idem, «The Place in History of the Sudanese Mahdia;» Sudan Notes and Records, XL (1959), pp. 107-12, idem, Modern History of the Sudan (London,1961), pp. 75-78; G.N. Sanderson, England, Europe and the Uupper Nile, (Edinburgh, 1965), pp. 15-16.

It is not difficult to explain why contemporary British opinion accepted uncritically this cause as the main one. It was the most obvious cause, and, as such, was considered the principal one for the outbreak of the revolution. Nearly every work written in English on the Sudan during the seventies had emphasised the evil character of the Ottoman règime in the Sudan. "There can be little doubt", wrote the Earl of Northbrook to the Earl of Granville, "in the minds of anyone who had read Sir Samuel Baker's Book, Dr. Hill's account of Colonel Gordon's work in the Sudan and Colonel Stewart's report that the Egyptian rule over the Sudan had been a great evil to the people of the country. (10) Thus, even before the outbreak of the revolution, European travellers and adventurers had succeeded in convincing the public that the Ottoman rule in the Sudan had been little better than "a chapter in the history of crime."

It had never occurred to contemporaries that the picture of Ottoman rule presented to them by the European writers who had travelled, or had taken jobs, in the Sudan was an exaggrated one. It was coloured in that manner in order to suit the selfish ends of those European adventurers, who, most of them, dreamt of being appointed governors in the Sudan. They had always asserted that the only way to establish "justice" and "good government" in the Sudan was to get rid of the Turkish governors and to replace them by Europeans.

However, judged by the administrative standards of its age or by the British administration in Ireland at the time, the Ottoman administration in the Sudan was not much worse. Recent scholarly work on the *Turkia* has made this fact clear. The latest objective and "scientific" account of the Ottoman administration, written by an Englishman, 11 is not entirely unfavourable to the Ottoman rule in the Sudan, and is certainly far less consorious than the writings and speeches of contemporary Europeans.

(10) Public Record Office, 30-29-139. Memorandum by Northbrook on the situation in the Sudan, enclosed in Northbrook to Granville, 29 Dec. 1883.

(11) R.L. Hill, Egypt in the Sudan, 1820-1881, (Oxford, 1959).

If public men of all shades of political opinion, all politically minded persons and all who were interested in the Sudan had attributed the outbreak of the revolution to the faults and misgovernment of the Ottoman administration, the logical step for all those men and groups should have been to sympathise with the revolution. This was hardly the case. Several political groups and individuals who had denounced the injustice, oppression and corruption of the "Turks" refused to think of the Mahdi's movement as a revolutionary nationalist movement against a corrupt alien rule.

It was only the Radicals, Mr. Gladstone and his Liberal supporters in Parliament and the anti-imperialists, who really adhered to the view that the Mahdist rising was a revolutionary revolt waged against an unjust foreign rule. The Radicals had taken this view from the start and they persisted in upholding it. They continued to defend their belief that the Sudanese were justified in launching their popular movement because of the bad and inefficient Ottoman rule. The Radicals had always portrayed the revolution as one of a struggle for national freedom. They expressed this sentiment in the papers, in Parliament and in public speeches.

Speaking in the House of Commons in February 1884, the Radical member Sir George Campbell described the Mahdi's movement as a popular revolution. (12) At a public meeting at Torpoint on 10th February, 1885, the Radical leader, Mr. Leonard Courtney declared his conviction that the revolution was simply an assertion on the part of the Sudanese of their will to be free, and that they were fighting for their liberties. (13) The Radical Lord Wentworth described the Sudanese as men fighting in defence of country, liberty, life honour and religion. (14) Other Radical members in Parliament, Sir Wilfrid Lawson, Henry Labouchere, John Morely and Lord Derby continued to defend the revolution as a struggle for liberty and freedom.

---

(12) Hansard, 3rd ser. CCXCIV, col IIII, 23 Feb. 1884.

(13) The Times, 11 Feb. 1885; also the Annual Register, (1885), pp. 22-3.

(14) Hansard, 3rd ser., CCCXXXV, 26 Feb. 1884.

The Prime Minister, Mr. Gladstone sympathised with this idea, and, at one time, was very enthusiastic about it. Mr. Gladstone's "curious instinct for Liberty" disclosed to him that the Sudanese were fighting for freedom and that the Mahdist Revolution was a movement which had as its aim liberty. In a long memorandum dated 9 April 1885, circulated to the members of the Cabinet, Mr. Gladestone stated that he had from the first "regarded the rising of the Sudanese against Egypt as a justifiable and honourable revolt." (15) But, for one reason or the other, Mr. Gladestone refrained from expressing this idea in public until the 12th of May 1884 when Sir Michael Hicks Beach provoked him when the latter demanded that the revolution must be put down. Mr. Gladstone retorted that any war to put down or stem the Mahdi "would be a war of conquest against a people struggling to be free." (16) He would not be a party to such a war because during all his political life he had never opened his lips in favour of a domination such as that exercised by certain countries upon other countries, and he, therefore, declined to become a party to maintain the possession of the Sudan by the Khedive's government. (17).

These views of Mr. Gladstone were violently attacked by the Conservatives and Liberal Imperialists. They mocked and derided Mr. Gladstone's portrait of the Mahdist Revolution as one for freedom and liberty. Front-Bench Spokesmen of the Tory Opposition, Mr. Bourke, Mr. A.J. Balfour, and Mr. Ashmead-Barttlet rediculed Mr. Gladstone's view. Mr. Ashmead-Barttlet declared that :—

"There never was a purer fiction for a greater effort of imagination than to describe as a war of freedom the movement of the fanatical, savage, cruel, bloodthirsty and barbarous chiefttin. The war-like hordes from whom the Mahdi got his principal support had been slave-dealers in the Sudan for generatioins and General Gordon told us distinctly that

(15) British Muesum, Add. Mss. 44769, The Military Situation in the Sudan,» Appril 9, 1885; also John Morley, The Life of William Ewart Gladestone, (London, 1909), Vol. 11, pp. 532-6.

(16) Hansard, 3rd. ser. CCLXXXVIII, 12 May, 1884.

(17) Ibid CCLXXXIV, cols, 715-16, 12 Feb. 1884.

this war of slave dealers, communists, and pillagers against established order and government was a war of one-third against two-thirds of whom were terrorized into submission." (18).

The Conservatives and the Liberal Imperialists could not have failed entirely to depict the nationalist character of the revolution because they had from time to time criticised the evil and tyrannical character of the Ottoman rule which led to its outbreak. If they had recognised that fact the logical conclusion would have been to acknowledge that the Sudanese were fighting a war of liberation. But such an admission would have forced them to throw off their imperialist designs on the Sudan. During the years 1884-5 the Conservatives and the Liberal Imperialists were strongly against the official policy of forcing the Khedive's government to abandon the Sudan and they demanded that at least that part of the Sudan east of the White Nile should be included in the British sphere of influence. But if they had admitted that the Sudanese were fighting for their liberty what justification or right had Britain to wage a war against a people fighting for freedom. It is interesting to see that even the Imperialists could not thiny of themselves being branded as enemies of freedom; and instead of exposing themselves to such a charge they denied and ridiculed the idea that the Mahdist Revolution had a nationalist character.

Not only did the Tories and Liberal Imperialists deny the nationalist character of the revolution but they did their best to blacken and traduce the general character of the revolution. Nowhere was this clear than in their attempt to discredit the revolution by describing it as a movement engineered and led by slave traders. They claimed that the Mahdi was a tool of the slave traders who were using him in order to gain control of the country.

This view had constantly been expressed in Parliament by the Tory and Liberal Imperialist members. The two figures who were most vehement in uttering it, and who

---

(18) Ibid., CCLXXXVIII, col., 248, 13 May, 1884.

tried, and did succeeed in converting the House of Commons to it, were the Liberal Imperialist leader, W.E. Forster (19) and the Tory Mr. Ashmead-Barttlet. (20).

This last named hypothesis was soon adopted by the majority of the British. It was even dominant among these Britons who sympathised with the revolution. It gained such a considerable currency because persons, who were supposed to have knowledge of the Sudan and its peoples defended it. General Gordon went as far as to accuse the Mahdi himself of being an active slave trader. (21) Sir Samuel Baker claimed that the "suppression of the traffic" was an incentive to rebellion. (22).

The Press had also taken up the idea. A large section of the Press claimed that the Mahdi was not the real leader of the revolution that bore his name. *The Times* held that the Mahdi was supported mainly by the slave traders and that the Ansar were "fighting in the interests of the great slave-owners and the slave-dealing chiefs." (23) Blackwood's Edinburgh Magazine declared that slavery was one of the greatest motives for the outbreak and spread of the revolution as slavery was "ingrained in the nature of the Arab race." (24) The Anti-slavery Reporter, the organ of the Anti-slavery Society, had constantly asserted that the revolution was organised by the slave traders and that the success of the Mahdi was due to the support of the slave traders rather than to the religious zeel of his followers. (25).

This thesis was too easily and uncritically accepted because there had been some evidence that "among the Mahdi's

---

(19) Hansard, 3rd ser. CCLXXXIV, col. 941, 14 Feb. 1884.

(20) Ibid., CCXCIII, col. 1002, 4 Nov. 1884, also Ibid., CCLXXXVIII, col. 248, 13 May, 1884.

(21) British Museum, Add. Mss. 3447, General Gordon's Journal, Vol. 1, p. 45, also p. 55.

(22) Samuel White Baker, The Sudan and its Future, the Contemporary Review, XLV (Jan. 1884), p. 75.

(23) The Times, 8 Feb. 1883, also 29 Nov. 1883.

(24) Blackwood's Edinburgh Magazine, No. DCCCXXIII, (May, 1884), p. 675.

(25) Anti-slavery Reporter, 12 May 1883; also 19 March 1884.

first adherent" and for a long time "the backbone of his military strength were the tough and turbulent northern Sudanese frontiersmen who dominated the slave and ivory country of the Bahr al-Ghzal." (26) Also among the lieutenants of the Mahdi were such personalities as "Uthman Diqna and Ilyas Pasha Umm Birayr, who had been slave traders and who were better known in Britain than the Mahdi himself. The Baqqara, who composed the backbone of the Mahdi's army, were suspected of being slave traders too. And, unlike "Urabi Pasha, the Mahdi was silent about the slave trade and slavery in his statements and proclamations. In 1882 "Urabi Pasha included in his programme of national reform the complete abolition of slavery in Egypt. (27). The absence of such an item in the proclamations issued by the Mahdi prompted the Anti-slavery Reporter to protest against such an omission. (28).

However, it was doubtful that even if the Mahdi had included in one of his proclamations an article against the slave trade and slavery this would have induced the Anti-slavery society and its mouthpiece, the Anti-slavery Reporter, The Times and the Liberal Imperialists, to change or modify their views of the Mahdist Revolution as one of slave traders and holders. For, when "Urabi Pasha and his National Party declared that their programme contained the suppression of the slave trade and the abolition of slavery, the secretary of the Anti-slavery Society, Mr. Allen, took the cudgels against them in The Times; it was an unheard — of thing, he said, that a Muslim reformer should "dare to strike at the roots of a time honoured institution." (29). The same charge would have been levelled against the Mahdi if he dared to come out against the slave trade and slavery.

---

(26) G.N. Sanderson, England, Europe and the Upper Nile, 1882-1899, (Edinburgh, 1965), p. 15-16 also P.M. Holt, The Mahdist State in the Sudan, 1881-1898 (Oxford, 1956), pp. 34-5; idem, A Modern History of the Sudan, from the Funj Sultanate to the Present Day, (London, 1961), pp. 78-9.

(27) Anti-Slavery Society Papers, Rohdes House, Oxford; Wilfrid Blunt to Allen, 17 March, 1882; also The Times, 25 March, 1882.

(28) Anti-slavery Reporter, 12 May, 1883.

(29) The Times, 31 March, 1882; also Wilfrid Scawen Blunt, Gordon at Khartoum, (London, 1911), pp. 98-99.

Recent historical studies on the Mahdia do not confirm this portrait of the revolution which represented it as a slaver's revolt. Some modern historians say that the attempts of the Government to suppress the slave trade formed an immediate cause of discontent. (30) Others think that these attempts of the Government were one of the principal causes leading to the outbreak of the revolution. But modern historians do not go as far as to accuse the Mahdi himself of being a slave trader or a puppet of the slavers; they do not see in the revolution a movement engineered and led by slave traders.

Thus, this image of the revolution was certainly a mistaken one. That an element which formed the Mahdi's revolutionary army had been slavers did not prove the point. It was not shown, and is still to be investigated, whether the ex-slavers who joined the Mahdi had done so out of a conviction that the Mahdi was going to allow them to continue their trade or because they genuinely believed in the Mahdi's religious ideas. Also it had not been shown what percentage of the Mahdi's supporters were slave traders and whether they continued to practice their traffic during the revolutionary period. There was some evidence to show that until the Mahdi's death in June 1885 everybody who had joined the Mahdi was engaged in the jihad (holy war) and it could hardly be expected that any substantial number of the Ansar were occupied in slave-raiding or trading.

One other hostile view of the Mahdist Revolution, which was dominant was that which represented it as an essentially destructive and anarchical movement and which claimed that if the Mahdi succeeded a deluge of barbarism would certainly and necessarily follow his success.

The idea was continued to be propagated by a large section of the Press. The Times stated that the revolution meant

(30) P.M. Holt, the Mahdist State, p. 25. Muhammad Fu'ad Shukri, Mist wa-i-Sudan, (Cairo, 1958), p. 276; Al-Shatir Busaili «Abd al-Jalil, Ma'alim Tarikh Wadi al-Nil, (Cairo, 1957), pp. 163-5. Makki Shibaika, Al-Sudan fi Qarn 1819-1919 (Cairo, 1947), p. 154.

"rapine, bloodshed and discord." (31) To the Anti-slavery Reporter the revolution was a reign of anarchy and barbarism. (32) In May 1884 the Pall Mall Gazette claimed that the revolution "was degenerating into anarchy". (33).

This view was enthusiastically defended in the two Houses of Parliament. Mr. Goschen, the leader of the Liberal Imperialists, saw in the revolution nothing but "anarchy and fanaticism". (34) The Whig leader, Lord Hartington's portrait of the revolution was that of a "power of barbarism and anarchy." (35) The leader of the Opposition in the House of Lords, Lord Salisbury, denounced what he called the "oppressive", "barbaric" and "fanatic" character of the revolution. (36).

What evidence did the propounders of this view have to present to the public to prove that this image of the revolution was a correct one ? They alleged that the Ansar had "massacred" the Ottoman garrisons at el-Obeid (al-Ubayyid), Berber, Sinkat and Khartoum, and "butchered Hick's army". Because of these massacres and "those horrible" and "unparalled scenes of carnage and ruin", the revolution, they argued, degenerated into a bloodthirsty orgy, a one regin of terror and the Ansar were but fanatics and cutthroats.

However, the revolution found those who were willing to defend it against this charge. The Radicals denied that the revolution was aggressive and anarchical. They retorted that whenever a garrison had surrendered there was no massacre and the soldiers were incorporated in the victors' army and that it was only when the British Government began to intervene and to send troops that such massacres took place. (37). Moreover, if massacres could prove that a certain people were barbaric, the same charge could be laid upon British be-

---

(31) The Times, 31 Oct. 1883; also 12 Dec. 1885.
(32) Anti-Slavery Reporter, 19 March 1884.
(33) Pall Mall Gazette, 6 May 1884.
(34) Hansard, 3rd. ser., CCLXXXVIII, col. 270 13 May. 1884.
(35) Ibid., CCXCIV, Col. 1702, 27 Feb. 1885.
(36) Ibid., CCLXXXVIII, col., 1324, 27 Feb, 1885.
(37) Ibid., CCLXXXV, col. 763, 7 March 1884.

cause British troops had massacred the Egyptians at al-Tal al-Kabir and the Sudanese in the Eastern Sudan. (38).

Recent research has shown that these alleged "massacres" of the Ottoman garrisons by the Ansar were exaggrated and it has been shown that the Mahdi and his generals tried their best, and did succeed to a large extent, to avoid fighting and bloodshed whenever it was possible for them to expand the revolution peacefully and without shedding blood; and that many of the garrisons which were though to be "massacred" had capitulated, in corporated in the revolutionary army and subsequently played a very important part in the spread of the revolution. (39).

Until the defeat of Hicks Pasha the British failed to recognise the Mahdi as a religious leader or to sce that the revolution was primarily a religious one. It was only after November 1883 that some Britons began to think of the revolution as a religious revolt.

The War Office was the first fovernmental department to speak of the revolution in religious terms. A War Office memorandum entitled "The Insurrection of the False Prophet" written in the Intelligence Branch on the 23rd of November 1883 considered that one of the principal causes of the "rebellion" was the "religious fanaticism of the native tribes of the Sudan". The document attributed this "religious fanaticism" to the fact that "for many years the creed of Mohamad had been making immense strides in Central Africa where it seems to haove a particular fascination for the native races"; and as a result of this expansion of Islam in Central Africa "the idea of the regeneration of Islam by force of arms has gained a considerable hold among" the Muslims. This reoprt considered that according to the intentions of the Mahdi as set forth in his various proclamations the purpose of the Mahdist Revolution was "to establish the

---

(38) Ibid., CCLXXXV, col. 372-5, CCCXXXIV, col. 909, CCXCIV, col. 1329, CCLXXXVI, cols. 780-1.

(39) P.M. Holt, The Mahdist State, pp. 37-97.

thousand years kingdom in Mecca and to convert the whole world". (40).

The Press was late in admitting that the revolution was religious. It was only in November 1883 that the religious element in the revolution began to be explored and analysed in the columns of the Press. The daily papers, as well as some of the monthly and quarterly periodicals, entered into a discussion relating to the religious aims and motives of the Mahdi. The whole idea of a "Mahdi" and the prophecies bearing on it wero discussed and the conclusion was often arrived at that Mohammatd Ahmad was a "False Prophet."

However, the estimate of the revolution as a religious one varied between two extremes. One extreme was represented by General Gordon who maintained that it was an entire mistake to regard the Mahdi as in any sense a religious leader and he thought that the movement was not religious but an outbreak of despair. (41) The other extreme was represented by the anti-imperialist Wilfrid Blunt and the Radical peer, Lord Derby, who had constantly stated their belief that the Mahdia was a revolutionary movement for the regeneration of Islam. Blunt compared the Mahdi with Muhammad Abd el-Wahab, the founder of the Wahabi movement in Arabia. He considered that the Mahdi resembled is almost every particular the founder of the Wahabi movement in Arabia. Lord Derby considered the Mahdi to be the head of a religious war, or a "Mohammadan crusade" and declared his conviction that as far as the religious force of the revolution "there has been nothing like it, I will not say since the day of the Prophet and his immediate successors, but certainly since the Wahabi movement tin Arabia". (42).

If Wilfrid Blunt and Lord Derby were able to see in the Mahdist revolt a revolutionary reforming Islamic movement, they were not representatives of the general trend of thought.

---

(40) War Office 106/221 «The Insurrection of the False Prophet», compiled in the Intelligence Branch, 23 November, 1883, p. 1.

(41) Pall Mall Gazette, 8 Jan., 1884. Ibid., 6 May 1884.

(42) Hansard, 3rd ser., CCLXXXIV Col. 642, 12 Feb. 1884.

Ignorance of the religious aims of the Mahdi and the religious principles behind the revolution might have contributed to the British failure to envisage the revolution in terms of a movement for the revival of Islam. Interest on the part of another section of the British — the interest being personal, financial or imperial — forced them to deny or belittle the religious character of the revolution because the public at large was reluctant to acquiesce in the plans and policies of interested groups if the execution of such policies would lead to a religious war which might have wider repercussious in the Muslim world. A war with the Mahdi might excite the religious feelings of the Muslims under the British Crown. The Radical leader Sir George Campbell gave the warnisg that "it would be monostrous for the Government of the Queen, who had so many millions of Mohammedan subjects to embark on a crusade against this Mohamedan leadre." (43).

A fairly common view of the revolution was that it was fanatical. It was believed that the Mahdi and his supporters were fanatic Muslims; and that their fanaticism was fostered with their hatred of the Christians. This fanaticism bred in them a strong desire to externimate the Christians and to propagate anti-Christian ideas. (44) The belief was widespread that this so-called fanaticism was directed not only against Christiasity but also against western civilisation too. It was commonly believed that this fanaticism had given to the Mahdist Revolution its militancy, its aggressiveness and the enthusiasm for the propagation by force of arms the religious principles of the revolution. The general view was that it was this "fanaticism" that bred and fed what was thought to be the Ansars' desire to shed blood.

This supposed fanatical character of the revolution aroused strong feelings among the British; and was condemsed by nearly everybody in Britain. Even Mr. Wilfrid Blunt and Mr. Gladestone, who generally sympathised with the revolution, did not approve of it. Mr. Gladestone disliked it be-

---

(43) Ibid., CCLXXXIV. col. 643, 12 Feb. 1884.

(44) H. Ganem, «Europe's Stake in the Sudan», The Fortnightly Review, CCIX (May 1, 1884), pp. 650-9.

cause he thought it generated bloodshed. Wilfrid Blunt hated it because he assumed it had converted the Ansar into being reactionaries. (45).

Dr. Norman Daniel thinks that at all titmes, to the British and French alike, "fanaticism" was an congenial and an endless source of suspicion. (46). I would add that. It was also and endless source of fear. Most resistance movements to European imperialism and ancroachment on the Muslim world in the nineteenth century took a religious form because the leaders of such movements were well aware that the Muslims could be persuaded to rebell if their religious feelings were excited. Religion was a stronger appeal than nationalism; and national feeling found its expression in religious movements.

So the fear of the Ansars' "fanaticism" was as much as hatred of it. It was feared that this "fanaticism" might cause excitement among the Muslims in other parts of the world; and especially among the Muslims in India. The Muslims under the British Crown might be roused into rebellion and in this case Britain would be forced to enter into a struggle with "Mohamedan fanaticism".

There was not doubt that the majority of British thinking people, although they did not fully understand the religious nature and ideology of the revolution, they envisaged that it was this factor that gave to the revolution what they considered to be a reactionary, anti-Christian and anti-Western characters. However, the British failed to understand that the religious enthusiasm of the Ansar to which the British gave the name "fanaticism" was the main force that gave to the revolution its militancy and that moved the Ansar to fight with bravery which astonished both friends and foes.

---

(45) Wilfrid Scawen Blunt, Gordon at Khartoum, (London, 1911), p. 29.

(46) Norman Daniel, Islam, Europe and Empire, (Edinburgh, 1966), p. 418.

Few Britons held the view that the revolution was a reaction to the encroachments of Christian Europe on Muslim lands. Wilfrid Blunt was a strong advocator of this idea. He argued that the Mahdist Revolution, like that of "Urabi, began as a national rebellion of a people against long misgovernment, but later took a religious complexion when Christian Europe had intervened in support of the tyrannical Khedive Tawfiq against the people. (47) Had the Christian army been withdrawn from Cairo, Blunt argued, "the Mahdi's rebellion would have lost its fanatical raison d'etre". (48).

The Fortinghtly Review discussed this theme and concluded that one of the causes of the "insurrection" in the Sudan was the apprehension excited among the Mulisms by alreedy witnessed by Christian Europe. France had occupied Tunis and England entered into possession of Egypt and the canal. (49).

Although this last named hypothesis attracted few contemporaries, modern historians were decidedly against it. Professor P.M. Holt thinks that originally the reaction was not against Christendom or Europe or the West, but against the religious establishment in the nineteenth century Ottoman Empire. (50).

Professor Shibeika and Professor Sanderson were of the same opinion. They regard the revolution as a movement which was directed against the Turks in the first place. (51) In fact the writings and proclamations of the Mahdi support this modern view. The Mahdi had specifically stated that his revolution was against the Turks who changed religion and replaced it by Kufr. They annulled the laws of the Merciful and revived the ways of Satan after their own inclination. (52).

(47) Wilfrid Scawen Blunt, op. cit., p. 29.

(48) Ibid., p. 16.

(49) H. Ganem, op. cit., p. 654.

(50) P.M. Holt, «The Place in History of the Sudanese Mahdia», Sudan Notes and Records, XL (1959), p. 108.

(51) Mekki Shibeika, British Policy in the Sudan 1882-1902, (O.U.P. 1952), pp. 18-19. G.N. Sanderson, op. cit., p. 15.

(52) Mahdia 1-34-11 the Mahdi to the Negus Yohanes 1302-1884-5 (no date or month).

It is hoped that I have succeeded in surveying some of the British views about the Mahdist Revolution which were current in contemporary Britain. It is remarkable that every idea or hypothesis originated with, was propagated and defended by a certain individual or group of men. The distinction must be made among three groups. First, there were those who before November, 1883, campaigned for the containment of the revolution in the Western Sudan and checking its advance into the Northern and Eastern Sudan, and, who, after the fall of Khartoum in January 1885, demanded that the British Government should intervene to crush the revolution. This group included such individuals as Sir Samuel Baker, as well as the Tories and the Liberal Imperialists. The second party tried its best to establish the principle of non-intervention and ultimately did succeed. This group opposed any direct British intervention in the Sudan, was willing to accept the existence of a Mahdist state as long as it confined itself to the Sudan and as long as it did not endanger the security of Egypt, of the sea communications to India and the integrity of the Ottoman Empire. This group included Mr. Gladstone and behind him the majority of the Liberal Party in Parliament and in the country. The third group, which was a minority compared to the first two groups, sympathised with the revolution and even welcomed its expansion in other parts of the Muslim world. This group, the Radicals, was against any British military intervention to suppress the revolution inside the Sudan or to check its advance into other Muslim lands. If we use modern terms the first group were imperialists or colonialists while the second and third groups were anti-imperialists. Each of the two camps, the imperialists and the anti-imperialists, thought that their policy and attitude were the right ones and the ones which would serve the interests of Britain. Those who were imperialists usually advocated British intervention to contain or crush the revolution; and in order to convince themselves, the British Government and the public of the soundness of their policy and attitude, they portrayed the revolution in very dark terms. It is interesting to realise that the most unfavourable images of the revolution were those con-

structed and preached by the Conservatives and the Liberal Imperialists. Almost never did they pass a charitable judgment on the revolution. On the other hand, the anti-imperialists, in order to justify their anti-imperialist attitudes, pictured the revolution in favourable terms.

So in both cases the influence of policy on ideas was clear. The ideas of each group were dictated by a pre-conceived policy. The policy was determined by interest.

Ignorance was also largely responsible for many of the erroneous views about the revolution. Most of the British failed to understand the revolution because of their ignorance of all that pertained to the revolution and its leader. All reports on the revolution that reached England were third or fourth-hand information. Their inadequacy, contradictory nature and their mixture with the personal ignorance, prejudice and self-interest of those who had communicated them, can hardly escape the eye of an observer at this distant time.

The British Government and public possessed no authentic knowledge of the real nature and progress of the revolution, or a correct picture of the Mahdi's character, his intentions and his motives. This was due to the total lack of any sort of contact between Britain and the Sudan during this revolutionary period. To come to an appropriate understanding of the revolution, the British needed to arrive at an accurate estimate of the Mahdi's character, his views and his intentions. But, this was a knowledge which no Britan or an European had completely, or partially, acquired in the life time of the Mahdi. Mr. Gladstone was annoyed at the fact that he and his government knew neither the Mahdi's disposition nor his power. (53) The Fortnightly Review complained of the "mysterious and distant seclusion of the Mahdi" and the "absence of precise information concerning his person and the extent of his authority". (54) Sir Charles Wilson who was, in November 1884, in Dongola, complained not so much of the paucity of information reaching them from the Mahdi's camp as of the quality of it, which was all about

(53) **Public Record Office 30-29-127 Gladestone to Granville 18 Dec. 1883.**

(54) The Fortnightly Review, No. CCIX, May 1, 1884, p. 674.

sickness and as such could never be of help to them in assessing the strength and intentions of the Mahdi. (55).

This ignorance was clearly responsible for much of the almost universal unreality of everyone's thinking. Because no European could go into the Mahdi's association and then emerge to tell the Western World who on earth was that mysterious figure, no one could have known what was going in the Mahdi's mind, what he was thinking or planning and what were his motives. In these circumstances anyone could make his choice of what he wanted to believe. Nor was it difficult for any Briton to choose an opinion that flattered his prejudices, his ignorance and self-interest. And, as we have seen, such opinions based on ignorance and determined by self-interest and prejudice were far away from the truth as revealed by recent research on the Mahdia.

---

(55) **Public Record Office, 30-57-5 C. Wilson to Kitchener, Dongola, 23 Nov. 1884.**